عبد الوهاب مطاوع

وحدي مع الآخرين

فريق متميزون

E-BOOK

الدار المصرية اللبنانية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: وحدي.. مع الآخرين.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لمقالات الراحل

عبد الوهاب مطاوع

وحدي.. مع الآخرين

عبدالوهاب مطاوع

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2)
إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ
(4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5)
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))

صدق الله العظيم

مقدمة..

مهما تكن ناجحاً ومشهوراً وثرياً ومحبوباً من الآخرين، فلابد أن تجيء لحظة تشعر فيها أنك إنسان وحيد وبائس لأقصى حد، ولا تجد من تكلمه وتشركه معك في خواطرك وهواجسك وهمومك!

هكذا كتبت في مقدمة مقالي «وحدي مع الآخرين» الذي اخترت عنوانه لهذا الكتاب. وهكذا يشعر كل إنسان في أعماقه في بعض الأحيان.. فالوحدة شبح قاس يهدد الإنسان في كل مراحل عمره، وقد يشعر الإنسان بوحدته الداخلية حتى وهو وسط زحام البشر، حين يفتقد التعاطف الحقيقي والمشاركة الصادقة ممن حوله..

وفى هذا الكتاب مقالات وصور أدبية وإنسانية ترددت فيها بين الآخرين، فعايشت هموم الآخرين وتعاطفت معها وكتبت عنها في بعض الأحيان، وخلوت بنفسي في أوقات أخرى، وسجلت هواجسها وتأملاتها ورويت عنها.

وهكذا تمضي حياة الانسان في أغلب الأحوال يعيش وسط الآخرين ويشاركهم همومهم واهتماماتهم وأحلامهم.. وينفرد بنفسه في أحيان أخرى ويستسلم لتأملاته وخواطره وأحلامه الأبدية في السعادة والأمان.

وما بين هذين القطبين يتردد الإنسان طوال الوقت في رحلة أبدية مستمرة.. فلا هو يستطيع أن يندمج في الآخرين كل الوقت.. ولا هو يستطيع أن يحتمل وحدته إلى النهاية، ولا مفر من أن يقطع هذا الطريق المزدوج ذهابا وإياباً طوال رحلة العمر..

وفى كتابي صور من هذه الحيرة الأبدية بين «نفسي.. وبين الآخرين»

عبد الوهاب مطاوع

القاهرة في: ١٢ ديسمبر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خُبز الغرباء!

لقد أكلت من خبز الغرباء.. فوجدته كالعلقم!. تذكرت هذه العبارة من رواية «المساكين» للروائي الروسي العظيم ديستويفسكي وزائري يروي لي ما جاء يستشيرني فيه وهو مثقل الفكر والضمير بما يشغله.

إنه أب موظف جامعي، يعمل بإحدى الهيئات العامة ويتقاضى مرتباً لا بأس به، ويحصل على حوافز ومكافآت يدّخرها لمواجهة طوارئ الحياة، وزوجته ربة بيت جامعية استقالت من عملها بعد عشر سنوات من العمل، وتفرغت لرعاية أطفالها الثلاثة وزوجها وبيتها، ورضيت بحياتها وشغلت ما تبقى من أوقات فراغها بالقراءة والزيارات العائلية ومشاهدة التليفزيون خاصة المسلسلات وخياطة فساتينها بأفضل مما قد يفعل مصمم أزياء محترف، والأطفال الثلاثة مهذبون ومهندمون ومتفوقون في دراستهم، والأسرة كلها سعيدة ومقبلة على الحياة ولها مسراتها العائلية العديدة التي لا يحس ببهجتها سواها، كإفطار يوم الجمعة السعيد الذي يجمع كل أفرادها وتتفنن الزوجة العاشقة لأطفالها ولزوجها في إعداده وإثرائه بتحف الطعام والحلوى، وكغدائها المتميز كل يوم خميس الذي يجمع شمل الأسرة، ويهيئها لقضاء الأمسية السعيدة التي تنتظرها إما في بيت أهل الأب أو في بيت أسرة الأم.. أو في حديقة نادي الهيئة العامة التي يعمل بها عائل الأسرة أو في دار السينما. وكرحلة الشتاء التي تستغرق أسبوعا كاملا في عطلة نصف السنة تقضيه الأسرة في مشتى قريب للعاصمة تابع لجهة العمل ولا يكلف ميزانية الأب الكثير، وكرحلة الصيف التي تستغرق عشرة أيام سعيدة في مصيف الهيئة ذي الأسعار التعاونية.

والأم المثقفة الحازمة هي عصب هذه الأسرة وعقلها المفكر، فالأب يعمل ويكافح بإخلاص ويعود لزوجته بكل ما يتقاضاه من مرتب ومكافآت، فتدبر بها ميزانية الأسرة وحياتها، وتخطط أيضاً لمستقبلها فتفتح لكل طفل من أطفالها دفتر توفير بالبريد تضع له فيه كل شهر مبلغاً صغيراً يضاف إلى ما تودعه فيه من هدايا الأهل المالية في مناسبات النجاح والتفوق وأعياد الميلاد. والزوجان متحابان ومتفاهمان وسعيدان بحياتها وراضيان عنها، فما المشكلة إذن التي أثقلت ضمير هذا الرجل الوسيم مريح الطلعة الذي جاء يستشيرني فيها؟. إن له ابن عم أو قريبا في منزلة ابن العم بمعنى أدق، يعيش في مدينة الاسكندرية على بعد مائتين وعشرين كيلو مترا من القاهرة، وقريبه هذا رجل أعمال ناجح وثري ومتزوج من زوجة فاضلة منذ عشرين عاماً، ولم ينجب وقد تأكد الاثنان منذ زمن طويل من عدم قدرتها على الإنجاب ورضيا بحالهما وتراضيا عليه، لكن زوجته تحن إلى ممارسة أمومتها الموءودة ولهذا فقد فكرت في رعاية طفلة صغيرة تضمها إلى بيتها وتهتم بشؤونها وتلحقها بأرقى المدارس وتتابع تعليمها حتى تقدمها للمجتمع في النهاية فتاة مهذبة متعلمة قادرة على مواجهة الحياة. وقد فكر الاثنان في الأمر طويلاً ثم تساءلا في النهاية.. ولماذا نربي أبناء الغرباء الذين لا نعرفهم ولا نعرف جذورهم العائلية فنضم لأسرتنا طفلة من إحدى دور رعاية الأطفال، كما

ينصحنا الجميع، ولماذا لا نقدم هذا العطاء بل هذا الحظ السعيد لأحد أطفال الأهل والأقارب الذين ينوءون بثقل أعباء الحياة وكثرة الأطفال فنخفف عن أبويه بعض العناء ونوفر للإبن أو الإبنة تعليماً راقياً لا يستطيع أبواه أن يقدماه له؟

وانتهى بها تفكيرهما إلى أن يعرضا على زائرى هذا أن «يخففا» عنه عبء أحد أطفاله الثلاثة ويضما لأسرتها صُغرى هؤلاء الأطفال التي لم تبلغ بعد السادسة ويعدا لها غرفة نوم جميلة بفراش على شكل طائر الطاووس وبستائر بهيجة الألوان.. ونوافذ تعزف الموسيقى كلما فتحت، ودب ضخم جميل يربض في أحد أركانها، ودولاب مليء بالفساتين الجميلة والألعاب الساحرة. وبعد ذلك يلحقانها بأرقى مدرسة ويتعهدانها بالرعاية والاهتمام حتى تغدو عروسا شابة جميلة!.

وفاتح القريب زائري في هذا «العرض» فاستاء له الأب كثيرا ولولا تقديره لظروفه الإنسانية لأذاه بالكلام الجارح. وحدثت زوجة القريب أم الطفلة في الأمر فكبتت انفعالها تقديرا لنفس الظروف وشكرتها معتذرة.

وتعجب الأبوان للفكرة الغريبة واتفقا على أن يرجو الأب قريبه ألا يعود لطرح هذا الأمر عليها مرة أخرى حرصا على العلاقات الطيبة بينهم. وتقبل القريب الرفض حزينا لكنه لم يف بوعده بعدم الحديث فيه مرة أخرى، ولم يكف هو وزوجته عن الإشارة إليه بطريقة غير مباشرة كلما جمعتهما الظروف بالأبوين في شكل أمنيات حسيرة أو عبارات مقصودة من نوع: تخيل لو كنت قد وافقت على عرضي وألحقت ابنتك بمدرسة كذا التي تتقاضى خمسة آلاف جنيه في السنة في المرحلة الابتدائية؟. أو من نوع: كم كنت أود أن تستمتع طفلتك بثروتي وبالملابس الفاخرة والرحلات الجميلة إلى أن تكبر وألحقها بالجامعة الأمريكية!.. إلخ. والأبوان يتجاهلان الإشارت المتعمدة ويلتزمان الصمت إزاءها حتى كرها لقاء الزوجين الوحيدين وأصبحا يتفاديان المناسبات التي تجمعها. وفي غمرة ذلك كله توقف الأب فجأة وسأل نفسه ذات ليلة: تُرى هل أحسنت إلى ابنتي برفض هذا العرض الجارح أم أسأت إليها؟. وهل تراني جنيت على طفلتى حين حرمتها من «حظ سعيد» كان يترصدها وتعليم راق لا أستطيع توفيره لها؟.

ونقل تساؤله الحائر لزوجته فاستاءت له في البداية ثم أشفقت على زوجها مما يستشعره من «عجز» مؤلم عن أن يوفر لابنته ما يعده بها قريبه الثري، فطمأنته إلى أنه لم يجن على طفلته ولاعلى أحد، بل إنه يجني عليها إذا استجاب لهذا القريب وحرم طفلته من أحضان أبويها وشقيقيها.

وهدأ الأب قليلا لكنه لم يسترح تماماً من هذا الهاجس فجاء يسألني نفس السؤال وهو في غاية الحرج والضيق، فأجبته بلا تردد بأنه لم يجن شيئا على طفلته ولم يحرمها من شيء، وإنا قد فعل ما يمليه عليه واجبه حين أبى لها أن تنتزع من بين أحضان شقيقيها وأمها وأبيها لتعيش بين «غرباء» مهما كانت عاطفتهم تجاهها، وتقاسي مرارة البعد عن أمها وأسرتها وهي في أشد الحاجة إلى حبهم ورعايتهم والإحساس بالأمان بينهم.

فالتعليم الراقي رغم أهميته، وغرفة الأطفال السحرية المزودة بكل الألعاب رغم فائدتها، والملابس الفاخرة والرحلات، كل ذلك لا يمكن أن يعوض طفلة صغيرة مرارة الافتراق عن أبويها وأشقائها في مثل هذه السن الصغيرة، ولا مرارة الإبعاد عن دنياها التي تحس فيها بالأمان وأسرتها التي تحس بالانتماء إليها كعضو أصيل فيها، وليس كضيفة حتى ولو كانت ضيفة معززة ومكرمة.. بل إن هذه الطفلة مهما نعمت بحب الأبوين البديلين وتنعمت بها يقدمانه لها من عطاء مادي وفرص ذهبية للتعليم فسوف تعانى ربا طوال عمرها من مرارة الإحساس بتخلي أبويها عنها وتسليمها إلى «غرباء» لأسباب قدَّراها وعجز عقلها كطفلة عن فهمها وسيظل عاجزاً عن التماس العذر لها فيها فعلا إلى نهاية العمر وتذكرت وأنا أحدث زائري تلك العبارة التي جاءت على لسان ذلك الكهل البائس «مقار ديوفشكين» في رواية «المساكين» التي أجاب بها الفتاة الجميلة الوحيدة باربرا حين ضاقت بعناء الحياة وعجزها عن مواجهتها بعائد عملها الشحيح من تطريز الدانتيل، فكتبت له أنها قد قررت أن تعمل كمربية في بيت أسرة لا تعرفها تخلصا من مشكلاتها ورد عليها الكهل الطيب الذي يتفانى في حبها بلا أدنى غرض سوى الرغبة في إسعادها ومساعدتها حتى ليقدم لها ما تملكه يده ويتضور هو جوعاً إلى حد المرض، رد عليها ناصحاً لها بألا تفعل ذلك أبداً وألا تعمل لدى أسرة لا تعرفها ولا تهتم في الحقيقة بأمرها ولا يهمها منها سوى أمرها هي لديها واحتياجاتها منها لأنهم «غرباء» عنها، مؤكداً لها «أن خبز الغرباء شديد المرارة على من يأكله مهما كان شهيا» ثم اختتم نصيحته المخلصة لها بخلاصة تجربته معه قائلا: لقد أكلت من خبز الغرباء فوجدته كالعلقم!.

وتذكرت كذلك ما روته الكاتبة الإنجليزية ذائعة الصيت أجاثا كريستي في مذكراتها عن أمها التي سقط أبوها الضابط عن حصانه فأصيب إصابات بالغة وتوفى متأثراً بجراحه وترك وراءه أرملة شابة في السابعة والعشرين من العمر وأربعة أطفال صغار، وكيف عرضت عليها شقيقتها المتزوجة من ثري أمريكي وتقيم في شمال انجلترا أن تضم إليها أحد أطفالها لترفع عنها بعض أعبائها فاختارت الأرملة الحزينة البنت الوحيدة من بين أبنائها لكي تنتقل إلى كفالة خالتها وتعيش مع أسرتها. وكتبت أجاثا كريستي بعد سبعين عاماً أو أكثر من هذه الواقعة في مذكراتها تقول: إنه بالرغم من أن دوافع الجدة الأرملة لاختيار أمها للانتقال إلى حضانة خالتها الثرية دون إخوتها الذكور كانت واضحة، وهي أن الذكور يستطيعون تدبير حياتهم والاعتماد على أنفسهم بأسرع مما تفعل الفتيات، إلا أن ابنتها - أم أجاثا - قد فسرت ذلك كطفلة بأن أمها إنها تهتم في الواقع بالذكور وتفضلهم عليها، لهذا فقد احتفظت بهم في حضانتها وسلمتها هي وحدها إلى الخالة الثرية، وغادرت الطفلة بيتها في جرسي إلى بيت خالتها في شمال انجلترا وفي أعماقها ألم شديد لإحساسها القاتل بأنها «غير مرغوب فيها» من جانب أمها. وعاشت طفولة تعيسة في بيت خالتها رغم التعليم الأفضل والحياة الأرقى، وراحت تبكي كل ليلة في فراشها وتذوي صحياً حتى جاءتها خالتها بطبيب عجوز فحصها وتحدث إليها طويلاً ثم قال لخالتها بحزم: إن الصغيرة تعاني من مرض واحد فقط هو مرض «الحنين إلى الوطن» أي إلى الأسرة التي نشأت فيها وإلى

أمها وأشقائها وبيتها الخاص وذكرياتها فيه!. وتعجبت الخالة الثرية لذلك كثيرا فالصغيرة هادئة ومهذبة ولا تشكو من شيء.. وهي تحبها وترعاها وكذلك يفعل زوجها الأمريكي العجوز فما سبب هذا الذبول والانكسار؟. وقد واصلت الطفلة حياتها رغم ذلك في بيت خالتها حتى كبرت وتزوجت من ابن زوج خالتها الأمريكي وأنجبت منه عدة أطفال كان من بينهم من قدر لها أن تصبح أشهر كاتبة روايات بوليسية على مر التاريخ، ومع ذلك فقد ظلت الأم كما قالت أجاثا كريستي في مذكراتها «تحمل في نفسها» لأمها الاتهام الصامت بأنها قد تخلت عنها دون إخوتها الذكور حتى ماتت وهي فوق الثمانين!.

وعلقت الكاتبة الإنجليزية الشهيرة على ذلك بقولها إنها كثيراً ما قرأت بعد ذلك في أبواب البريد في الصحف الإنجليزية وهي في قمة شهرتها رسائل لآباء وأمهات يسألون محرري هذه الأبواب حائرين: هل يضحون ويقدمون ابنهم أو ابنتهم لأسرة أخرى ثرية تستطيع أن توفر لها تعلمياً راقياً وحياة أفضل تعجز مواردهم عن توفيرها لها، «فكنتُ - تقول أجاثا كريستي - أصرخ في كل مرة: لا تفعلوا فبيت الطفلة الخاص مهما كان متواضعاً، وأهلها مها كانوا بسطاء والحب الذي تكنه لهم وتستشعره لديهم وإحساس الأمان الذي تشعر به بينهم لانتمائها لهم ولبيت خاص بها وليس إلى بيوت الآخرين، كل ذلك أي تعليم راق يستطيع أن يعوضها عنه؟. وأية حياة أفضل تستطيع أن تجبر ذلك الشرخ النفسي الذي تحسه وهي تنتزع من بين إخوتها وأحضان أبويها لكي تنتقل إلى بيت غريب وأناس غرباء؟. وقد كان دافعي دائما إلى هذا الرأي هو تعاسة أمي التي لازمتها في بيت خالتها رغم حب الخالة وزوجها ورعايتها المخلصة لها حتى تزوجت!».

استرجعت ذلك كله في مخيلتي وزائري يجلس أمامي، ورويته له تأييداً لرأيي الذي أكدته له بوضوح، فإذا بوجهه يتهلل.. وإذا بعلامات الارتياح تكسو ملامحه فينهض مبتهجاً وهو يقول لي: أكرمك الله لقد رفعت عن صدري حجرا ثقيلا وأرحت ضميري إلى أنني لم أحرم ابنتي من ذلك «الحظ السعيد» الذي تصورته في بعض لحظات ضعفي وإشفاقي من أن أكون قد ظلمتها بعاطفتي كأب، وسوف أعود إلى زوجتي بما سمعت منك.. وأنسى هذا الأمر كله تماماً. ومد إليّ يده مصافحاً فنهضت لوداعه حتى باب مكتبي وصافحته مودعا وشاكراً.. ورجعت إلى مقعدي وصدى عبارة دستويفسكي العظيم عن «خبز الغرباء» المر لايزال يتردد في أعماقي!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحدي.. مع الآخرين

مهما تكن ناجحاً.. مهما تكن مشهوراً.. مهما تكن ثرياً.. مهما تكن محبوباً من الآخرين أو محاطاً بهم حباً لك.. أو انتفاعاً بك.. فلابد أن تجيء لحظة تشعر فيها بأنك إنسان وحيد تماماً.. وبائس للغاية.. ولا تجد ما تفعله بوحدتك.. أو من تتحدث إليه على سجيتك وبلا حرج!.

أما متى تجيء هذه اللحظة فقد تجيء في أي وقت من اليوم، لكن الأغلب الأعم أن تجيئك في الليل إذا كنت أعزب وحيداً.. أو إذا كنت إنساناً سيىء الحظ عانيت مرارة الفشل في زواج سابق. أو مغترباً تعيش بعيدا عن أهلك وأصدقائك وبلدك أو «غريبا» بين من تعيش بينهم ولا تربطك بهم خيوط الحب والفهم والعطف المتبادل.

وحين تجيء هذه اللحظة فإنك تحس بحاجتك إلى صديق أو شريك أو حبيب تستطيع أن تتصل به وأنت واثق من أنه لن يضيق باتصالك به في هذا الوقت المتأخر من الليل، ومن أنه سوف يسعد بالحديث معك وسيسمع منك ويهتم بك ويشاركك همومك وقلقك ويخفف عنك.

وفى مثل هذه اللحظة كثيراً ما يعيد الإنسان تقويم حياته.. ويراجع ما حققه فيها من أهداف ونجاحات في مجالات مختلفة.. فينتهي من عملية التقويم هذه غالباً إلى «الرثاء لنفسه» مهما كان ما حققه في حياته من نجاح أو ثراء.. أو شهرة!

فإحساس الإنسان بالتعاسة وبالوحدة سواء أكانت حقيقية أم داخلية يفقده الشعور بقيمة أي «إنجازات» أخرى حققها في حياته.

وأخطر قرارات الإنسان الشخصية قد يتخذها في مثل هذه اللحظة التي يشعر فيها بأنه إنسان بائس ووحيد تماماً بلا رفيق ولا شريك للقلب والمشاعر، كقرار الزواج أو الانفصال.. أو الهجرة أو العودة من الغربة أو حتى تغيير مجال العمل والطموح بأكمله؟.

يروي الفنان العظيم شارلي شابلن في مذكراته أنه بعد أن حقق بدايات نجاحه الأسطوري في هوليود وأصبح مجرد ظهور اسمه على شاشة السينما في دور العرض يشيع موجة من السرور بين المشاهدين استعداداً للبهجة المرتقبة، قام برحلة بالقطار من شيكاغو إلى نيويوك وكانت الرحلة تستغرق وقتها خمسة أيام ففوجىء عند توقف القطار في أول محطة بزحام ك- «يوم الحشر» وبآلاف من المواطنين يحملون لافتات الترحيب به وعشرات من الأشخاص يدخلون القطار باحثين عنه، ويرغمون سائق القطار على الانتظار حتى ينزل شابلن إلى الرصيف ويشهد حفلا لتكريمه وعمدة المدينة وكبراؤها يحيطون به والموسيقى تعزف.. والأعلام مرفوعة وصور شابلن تغطي كل مكان فألقى شابلن وهو مذهول في الحاضرين كلمة شكر قصيرة، وتناول معهم نخب الانتصار والنجاح.. ورجع سعيداً إلى القطار وواصل رحلته فتكرر المشهد بحفاوة أشد في كل محطة توقف فيها، إلى أن فوجىء وهو لا يزال في القطار ببرقية من قائد بوليس نيويورك

يرجوه فيها أن ينزل من قطاره في محطة فرعية صغيرة قبل المحطة الرئيسية لأن الجمهور يسد مداخلها ومخارجها منذ الصباح وسيتعذر على الشرطة إخراجه منها، فيستجيب إلى طلب قائد البوليس ويذهب إلى فندقه في سيارة مسدلة الستائر، فإذا بالجمهور قد أحاط به من كل مكان فيدخل إليه بصعوبة بالغة ويخرج إلى الشرفة لرد تحيتهم كالزعماء التاريخيين عدة مرات، إلى أن ينجح البوليس في تفريقهم بعد عناء شديد لكيلا يعوقوا حركة المرور وينصرف الجمهور بالفعل ويخلو شابلن إلى نفسه في جناحه بالفندق فيتساءل كما كتب في مذاكراته:

- ما هذا الذي يحدث لي الآن؟. ها أنا في قمة نجاحي كأنما كافة البشر يعرفونني بينما لا أعرف أنا أحداً. لقد بدأت أرثي لحالي وقد سيطرت عليّ نوبة غير مفهومة من الأسى.. وتذكرت ممثلاً ناجحاً قال لي منذ أيام وهو في شدة الضيق:

ها قد «وصلنا» الآن يا شارلي إلى ما كنا نطمح إليه فما قيمة كل هذا؟

ووجدت نفسي أفكر فجأة في الأصدقاء القدامى الذين أتمنى أن ألقاهم وأنا متوج بكل هذا النجاح العظيم وأتساءل ترى هل بقي لي أصدقاء قدامى.. وأين هم الآن؟.

وواصل شابلن رحلة نجاحه.. ودخل عالم الملايين وتزوج أولى زوجاته وكانت ممثلة جميلة ففشل زواجه بها بعد أن انشغل كل منها بأفلامه ونجاحه وأصبحا لا يلتقيان على مائدة العشاء أو الإفطار بالأسابيع ثم ترامت إليه أخبار علاقتها بممثل شاب جديد فطلقها وعاش وحيداً بضعة أعوام وهو لا يزال في قمة نجاحه وثرائه ورغم ذلك فلقد استولى عليه الإحساس بالكآبة والوحدة فسأل نفسه ذات مساء وهو يجلس وحيداً في جناحه الفاخر بأكبر فنادق لوس أنجلوس: تُرى من هو «الصديق» الذي أستطيع أن أتصل به الآن بلا حرج لأقول له إنني مكتئب.. وزهقان وبائس وأريد أن أتحدث معك على راحتي وافضفض معك وأتخفف من ضيقي ووحدتي؟. وفكر في سؤاله بعض الوقت ثم انتهى إلى هذه الإجابة المعبرة: (لا أحد)!.

نعم.. لا أحد.. رغم كل ما يحيط به من شهرة وأضواء ومعجبين.. ومتهافتين على التقرب منه والفوز بصداقته فالأصدقاء الحقيقيون القدامي تفرقوا في الحياة. والباقون منهم نائمون في هذه اللحظة إلى جوار زوجاتهم وأبنائهم وليس من اللائق إيقاظهم من نومهم أو انتزاعهم من جوار زوجاتهم لإزعاجهم بمثل هذه الخواطر.. أما الآخرون فليسوا أصدقاء للروح يستطيع أن يتحدث إليهم بلا حرج ويتعرى أمامهم ويكشف لهم تعاسته وضعفه وحيرته.. فهم معارف.. أو زملاء أو أصدقاء شهرة وعمل لا يرون فيه إلا النجم الشهير.. والإنسان الناجح القوي.. حتى لو أراد أن يتحدث إلى أحدهم بما يشعر به من تعاسة وخوف وقلق، فلن يستطيع أن يفعل.. فاللسان لا يطيع صاحبه ولا يبوح بحقيقة المشاعر إلا للأصدقاء الحقيقيين الذين لا يخجل من أن يتحدث إليهم بهواجسه.

وبسبب هذه اللحظة التي سأل فيها شابلن نفسه هذا السؤال اتخذ قراراً شخصياً خاطئاً أثر تاثيراً مؤلماً على حياته فلقد قرر الاستجابة لإحدى زميلاته الفنانات والزواج بها ضيقاً بوحدته.. فكان زواجاً تعيساً آخر استغرق عدة سنوات، وانتهى

بالفشل والمشكلات، وعاد بعده إلى حياة الوحدة سنوات أخرى، ولم يعرف السعادة الحقيقية إلا وهو يقترب من الخمسين حين التقى بفتاة صغيرة جاءت للعمل كممثلة مبتدئة في أفلامه اسمها أونا أونيل وهي ابنة الكاتب المسرحي الأمريكي الشهير «يوجين أونيل» فأحبها وأحبته حباً طاغياً مسيطراً وتنازلت من أجله عن أحلامها في الفن والشهرة وتزوجته رغم معارضة أبيها وأسرتها ومقاطعتها لها. وإلى جوار أونا الصغيرة بنت الواحدة والعشرين عاش شابلن أسعد أيام حياته منذ التقى بها.

وحتى رحل عن الحياة بعد حوالي سبعة وعشرين عاماً، وأنجبت له تسعة أبناء. ومات شابلن وهو يعيش معها في سويسرا بعد هجرته من أمريكا.. وكتب عنها في مذكراته التي أصدرها عام 1964 أنه وبعد حوالي عشرين عاماً من الزواج حين يذهب معها إلى حفل عام أو زيارة ينظر إليها وهي تتقدمه مرفوعة الرأس بكبرياء لطيفة ويفيض قلبه لها بالحب والعرفان لما أسبغته على حياته من سعادة.. وحب وثراء.

وقد ماتت أونا بعد رحيل شابلن بأكثر من عشر سنوات غير نادمة على زواجها منه الذي أثار عليها عاصفة عائلية لم تخمد إلا بعد أن أنجبت ثاني أطفالها!

والمغزى الخطير حقاً هو أن شابلن قد عاش وحيداً وتعيساً في نجاحه.. وشهرته.. وثرائه.. وزيجتيه الأوليين.. حتى التقى بأونا أونيل أو أونا شابلن وأحبته حباً حقيقياً نهائياً وأحبها حباً طاغياً مسيطراً فسعد بها وسعدت به ولم يشعر بعد ارتباطه بها بالوحدة أو التعاسة لحظة واحدة في حياته مع أن عصره كفنان كوميدي عبقري كان قد انتهى وتغيرت الدنيا، فلم تعد الجماهير تبيت أمام دار العرض ليلة افتتاح أحد أفلامه الجديدة، ولم يعد البوليس يفرق الجماهير بالهراوات الثقيلة من حوله، وقد اعتزل الفن والسينما والحياة العامة لكن لا شيء من ذلك في نظر الإنسان العاقل الذي يبحث عن السعادة الحقيقية، فهذه سنة الحياة ولا مغير لها.. ولكل نجاح دورة صعود إلى القمة وفترة بقاء محدودة فوقها ثم دورة هبوط لابد منها إلى الناحية الأخرى، ولكل زمان رجاله ونجومه، فماذا يعنيه من كل ذلك وقد ارتوى من النجاح العملي في الحياة.. ولم تحرمه الأقدار من النجاح الحقيقي في الحياة الخاصة مع امرأة جميلة أحبته وباعت الدنيا من أجله.. وأحبها هو بكل مشاعره، وانطوى لها دائما على مشاعر العرفان والاعتزاز والحب، وإلى جانبه أبناء وأحفاد يملأون حياته بكل ما يدعو للبهجة والرضا والسعادة.

نعم.. لم يعد شهيراً ولا «مطلوباً» بنفس القدر في سوق السينما العالمية كما كان الحال في سنوات المجد الأولى.. لكنه لم يعد أيضاً وحيداً ولا تعيساً كما كان وهو في أوج مجده وشهرته وتألقه!.

تسألني.. ولماذا أقول لك كل ذلك؟ وأجيبك: إنها تأملات أثارها لدي التقائي مصادفة منذ أيام بإنسان ناجح إلى حد التألق في أحد مجالات الحياة وقد حقق فيه ما لم يكن يحلم ببعضه في بداية حياته وكفاحه الذي شهدت بعض مراحله، فلم

أفاجأ برؤيته وهو على شفا الوقوع في هاوية الاكتئاب النفسي المرضي.. لا ينام بغير المنومات ولا يسعد بشيء ولا يبتهج لشيء ولا يتحمس لشيء ويعاني من «الأنيميا» لأنه فاقد الشهية إلى حد لا يكاد يطيق معه رؤية طعام.. وكانت شكواه المريرة لي من أنه يخاف من الليل حين يرخى أستاره على الدنيا لأنه في الصباح ينشغل بعمله.. أما في الليل فلا يعرف ماذا يصنع بنفسه ووقته ولم تعد تفلح معه حيلة لتسليته وإشعاره بالابتهاج، فمدبرة بيته العجوز تنصرف في العصر وتابعه وهو صديقه الوحيد تقريباً يغادره عند المساء إلى بيته وزوجته وأولاده ويبقى هو في الشقة الواسعة الخالية وحده يقلب قنوات التليفزيون ويسأم مشاهدته.. ويقرأ بعض الوقت فيسأم القراءة، وينظر إلى التليفون الصامت ويسأل نفسه سؤال شارلي شابلن المحير حين كان يعيش وحيداً: تُرى من هو الصديق الذي أستطيع أن أتصل به الآن بلا حرج، وأقول له: إننى وحيد ومتضايق وأريد أن أتسلى بالحديث معك بعض الوقت فلا يجد إجابة مريحة للسؤال!

فيكاد كما قال لي «يستجدي» أن يزوره أحد الأصدقاء.. أو أن يجد صديقا حقيقيا جافاه النوم مثله فيتصل به ويتحدث إليه ويخرج معه رغم كثرة معارفه وأصدقائه وزملائه والطامعين في صداقته، ولا تسلني لماذا لم تنصحه بالزواج كحل طبيعي ومثالي لوحدته!. فلقد نصحته به أكثر من مرة فكان يجيبنى دائماً بنفس الإجابة المتحسرة:

- زيجتان فاشلتان.. في الرأس تكفيان!. ويكفيني ما أعانيه حتى الآن من آلامها وذيول متاعبها. ومع ذلك فلا حل لوحدته وتعاسته سواه.. ولا حل لوحدة أي إنسان وتعاسته سوى أن يعاشر من يحب ويعمل بما يحب من مجالات العمل.. ويصادق من يخلصون له الود ويشاركونه نظرته للحياة.. والبشر والأشياء فهناك حكمة بوذية قديمة تقول: إن مفاتيح الجنة هي نفسها التي تفتح أيضاً أبواب الجحيم!.

وهذا صحيح من بعض الوجوه.. فالنجاح في الحياة العلمية والثراء.. والشهرة كلها مفاتيح قد تفتح لك أبواب النعيم.. لكنها قد تفتح عليك أيضاً أبواب التعاسة.. والوحدة.. إذا خلت حياتك من أسباب السعادة الحقيقية.. وإذا كنت محروماً من الاستقرار العائلي والحب الحقيقي.. والصداقة الجميلة المبرأة من الأغراض وأيضاً إذا كنت محروماً قبل كل ذلك وبعده من الإيمان الذي يهون عليك متاعبك.. ويصبرك على بلواك.. ويعدك بالسعادة الباقية في الدار الآخرة إذا كنت قد ضللت الطريق إليها في هذه الحياة القاسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوجـه البـاسم!

في تلك الليلة لم يكن في مقهى وسط المدينة الذي اعتدنا أن نلتقي فيه كل مساء سواي وسواه. أين الأصحاب؟ أين رفاق الشلة؟

قد يجيئون في أي لحظة من الليل.. وقد لا يجيئون. وأنا مرهق على غير العادة من عمل اليوم الطويل وأرغب في الانصراف لكي أنام لكني لا أستطيع أن أتركه وحيداً حتى يأتى بعض الرفاق ليجالسوه بدلاً مني.. وهو يحس بتعبي ورغبتي في الانصراف لكنه يستمهلني كلما بدت عليّ الرغبة في النهوض..

والساعة تجاوزت الثانية صباحاً ولم يظهر أحد بعد اللعنة أين اختفوا هذه الليلة بالذات إن رأسي يميل من شدة التعب.. وسيارتي عند الميكانيكي معطلة.. وسأقاسي مشقة البحث عن سيارة أجرة في هذا الوقت المتأخر من الليل.. ورفيقي في هذه السهرة لا يستطيع أن يعود إلى بيته أو بالأصح إلى بيت ابنته أو بالأصح إلى بيت ابنته المتزوجة التي يقيم عندها إلا بعد الفجر.. هكذا اعتاد أن يفعل كل يوم منذ سنوات شبابه ولا مبدّل لعاداته.. فهو في الثمانين من عمره عرك الحياة وعركته وعمل ستين عاماً بالصحافة، ولديه مخزون لا ينضب من الحكايات والذكريات وقد كبر الأبناء وتزوجوا وأنجبوا، وماتت زوجته منذ سنوات طويلة.

وقد استنفدت كل قدرتي على مقاومة التعب.. فهممت بالنهوض فجأة بغير استئذان.. لكنه كان أذكى مني وأسرع، لمح بوادر حركتي وسبقني هو إلى النهوض بخفة طالباً مني انتظاره حتى يعود من الحمام. وكانت حركته أكثر خفة مما تحتمله شيخوخته، ففقد توازنه وسقط على الأرض وصرخ من شدة الألم. ونهضت فزعاً لإنهاضه فازداد صراخه وتأوهاته.. وأجلسته على مقعده بصعوبة شديدة.. فتعالت صيحات الألم منه.. «يا دي المصيبة».. لقد أصيب الشيخ بكسر في عظمة الحوض من سقوطه على الأرض، وتعذرت عليه الحركة.. وتعذرت عليه الراحة

سألت صديقي عن رقم تليفون ابنه الوحيد ليأتي لينقله لبيته بسيارته فأجابني بأن ابنه مسافر بالصدفة خارج القاهرة.. سألته عن تليفون زوج ابنته الكبرى فأجابني بأن تليفونه عطلان.. لم يبق إلا زوج ابنته الصغرى وسألته عن تليفونه وارتحت إلى أنه طبيب، إذن فهو أنسب شخص للتعامل مع هذه الكارثة.. ونهضت إلى مكان التليفون في آخر المقهى لأتصل به وأنا متحرج مما سوف أسببه له من إزعاج وانزعاج على صهره .... وقررت أن أبادره بالقول بأن الحالة ليست خطيرة وأن المطلوب فقط هو أن يحضر بسيارته لاصطحاب صهره للبيت أو المستشفى أيها يراه مناسباً.

أما «الشكر» على اتصالي به واهتمامي بأمر صهره.. فلا مبرر له.. فالشيخ صديقٍ قديم وهذا أقل ما أستطيع أن أقدمه له.. وأدرت رقم تليفونه ورن الجرس طويلاً قبل أن أسمع صوته، يتساءل من المتحدث فقدمت له نفسي ورويت له

القصة باختصار واستعددت لأن أقول له إنه لا داعي للقلق و.. فإذا بصوته يجيء جافاً بارداً خاليا من أي إحساس أو انزعاج:

- ولماذا لم تتصل بابنه؟

بُهت لا للسؤال فقط وإنما أيضا للطريقة الجافة التي تكلم بها وأحسست كأننى متهم يجري التحقيق معه وساءني أنه لم يفكر لحظة في أن يطمئن على حال صهره أو يسألني عنه.. وقلت له: ابنه مسافر للأسف خارج القاهرة هذه الليلة فجاءني نفس الصوت الجاف البارد «يحقق» معي:

- ولماذا لم تتصل بزوج ابنته الكبرى؟.

يا إلهي كأنني المسؤول عما حدث لهذا الشيخ العجوز..

أجبته بأن تليفونه معطل.

فساد الصمت بيننا دقيقة مرت عليّ كدهر ثم قال لي بنفس اللهجة الباردة الجافة: ما هو رقم تليفون المقهى؟ وأعطيته له فقال لي إنه سوف يتصل بي بعد ربع ساعة! ووضعت السماعة واستولى عليّ الضيق وكرهت الدنيا وكل ما فيها في هذه اللحظة.

وبقيت بجوار التليفون أنتظر المكالمة فمر وقت طويل قبل أن يرن الجرس ورفعت الساعة وقد قررت إن عاد «للتحقيق» معي بنفس هذه اللهجة الجافة أن أعطيه درساً في الأخلاق والإنسانية والشهامة وفي أفضال هذا الشيخ العجوز عليه وهو الذي يضيق الآن بطلب استدعائه لاصطحابه، وليكن بعد ذلك ما يكون.. وتحفزت لذلك فإذا بصوته

يجيء هذه المرة ناعماً.. رقيقاً.. دافئاً:

_ مساء الخير.. كيف حال «الوالد» الآن! هل هو بخير؟ هل لا يزال يتألم؟ آلام الكسر في مثل هذه السن شديدة كان الله في عونه سأحضر بعد قليل لاصطحابه.. ووضعت سماعة التليفون ذاهلاً لكني فهمت ما جرى! لقد كانت زوجته نائمة حين اتصلت به في أول مرة.

فتعامل معي بشخصيته الحقيقية.. نذلاً جافاً.. بارداً، وأمضى الفترة الماضية في الاتصال بابن صديقي فتأكد من سفره وبزوج الإبنة الكبرى فتأكد من عطل تليفونه، ولم يعد أمامه مفر من أداء هذا الواجب الثقيل.. فأيقظ زوجته أو لعلها استيقظت على مكالماته وعرفت الخبر، وحين اتصل بي للمرة الثانية كانت زوجته إلى جواره فتعامل معي بشخصيته الأخرى المزيفة.

وعدت لمجلس صديقى وطمأنته بقرب وصول زوج ابنته، ولم يمض وقت قليل حتى دخل علينا المقهى باسماً.. رقيقاً.. عطوفاً فلم أستطع النظر إلى وجهه، وراقبته وهو ينحني على صهره في عطف كاذب وأنا أقاوم رغبة قاتلة في أن أركله في ظهره، ثم تعاونا على حمل الشيخ إلى سيارته حيث تنتظر ابنته

منزعجة، وتمت المهمة بسلام فمد زوج الإبنة الشاب يده إلى ليصافحني.. فتشاغلت عنها متعمداً بتوديع صديقي ثم أعطيته ظهري وعدت إلى المقهى.

وأجرى صديقي بعد أيام جراحة عظام.. وساءت صحته بعد ذلك شهوراً ثم لقى ربه وانطوت صفحة حياته الحافلة رحمه الله ومضت عشر سنوات طويلة.. نسيت فيها هذه القصة فيها نسيت. ثم أبلغتني سكرتيرتي منذ أسابيع بأن قارئة تطلب مقابلتي لعرض مشكلة شخصية لها وتلح في تحديد موعد عاجل لها بدعوى أنها ابنة صديق قديم لي واستقبلتها على الفور فإذا بها ابنة صديقي الشيخ هذا وزوجة ذلك الطبيب الذي كان شاباً منذ عشر سنوات وأصبح الآن أستاذاً بكلية الطب ورحبت بها كثيراً واستمعت لقصتها باهتمام. لقد أحبت زوجها وأحبها عدة سنوات قبل زواجها.. وتزوجته في وجه صعوبات كثيرة.. أبسطها مقاطعة أهلها لها عدة سنوات قبل أن يصفحوا عنها، والآن بعد أن مات أبوها وماتت قبله أمها، ولم يعد لها في الحياة سوى زوجها.. فإنه يعذبها بمغامراته وخياناته العديدة، والتي لا تستطيع إثباتها عليه.. لأنه يبدو أمامها دائماً ملاكاً.. مخلصاً.. باسماً. متعجباً من شكها فيه، رغم ما تراه بعينيها من تصرفاته المريبة وما تسمعه بأذنيها من اتصالاته ومن أحاديث الصديقات.

وهتفتُ بيني وبين نفسي بصوت داخلي عال: النذل! لا يزال يواجه الحياة بشخصيتين متناقضتين تماماً الأولى حقيقية يستجيب معها لكل غرائزه بلا مبادىء ولا مثاليات والثانية مزيفة.. يرتدي فيها نفس القناع الملائكي الباسم.

ماذا عساي أن أقول لها؟. لقد روت لي قصته الأخيرة معها التي حطمت أعصابها. والقرائن التي جمعتها عنها تجعل للشك فيه أسباباً منطقية وهي تطلب رأيي لتتأكد من صدق ظنها لا لكي تواجهه أو تطلب الطلاق منه، وإنا فقط لكي تستريح وتطمئن على سلامة قواها العقلية، وتعرف أنها لا تعايش الوهم والخيالات كما يحاول جاهداً إقناعها بذلك.

واحترت بماذا أجيبها. لو لم أكن قد عرفت زوجها وتعاملت معه في تجربة سابقة كشفت لي حقيقة شخصيته لأجبتها على الفور، بأن قرائنك لا ترقى إلى مستوى الأدلة الدامغة.. وبالتالي فإن احتمال براءته مما تنسبينه إليه مساو تماماً لاحتمال إدانته، وما دام الشك يفسر لصالح المتهم.. فإن حكمي على القصة التي رويتيها لي أنه بريء منها إلى أن يثبت العكس.

لكنني من ناحية أخرى على يقين من أنه قد ارتكب فعلاً كل ما تتهمه به بغير دليل كاف. ويقيني هذا لم أتوصل إليه من القرائن التي عرضتها عليّ، وإنها من معرفتي بشخصيته الحقيقية.. «والقاضي لا يحكم بعلمه» فيما يعرض عليه من قضايا وإنما بما يعرض عليه من أدلة وبراهين ثابتة، بل إنه يتنحى عن نظر القضية التي ينظرها إذا وصلت إليه معلومات عنها عن غير طريق ساحة القضاء وأوراق القضية.. إذن فلا سبيل لأن أحكم عليه «بعلمي» عنه، ولابد من الاكتفاء بتقييم القرائن بغير التأثر برأيي الشخصي فيه واضطررت آسفاً إلى ذلك.. وناقشت معها شكوكها وقرائنها على هذا الأساس ثم سألتها في النهاية:

- لو تأكدت من ظنونك هل تطلبين الطلاق منه.. وتهدمين أسرتك وتمزقين أبناءك بينكما؟

فأجابت بحسرة: لا أستطيع أن أفعل ذلك.. فليس لي مكان آخر ألجأ إليه بعد موت أبي وأمي.. وأبنائي أعز عليّ من أن أعرضهم لهذه المحنة وهم عزائي وأملي الوحيد في الحياة.. بل إنني لا أستطيع أيضاً الانفصال أو الاستغناء عنه فهو حب حياتي منذ كنت في الثامنة عشرة من عمري ولا أتصور أن أكون لغيره أو أن أعيش بعيداً عنه.

قلت لها: ماذا تستفيدين إذن من إثبات صحة الواقعة الأخيرة؟.

قالت: أن أواجهه مرة بخطأ ارتكبه.. فيعترف به ويعتذر عنه، ويعترف لي بأني لست مجنونة أتوهم أشياء لا وجود لها في الحقيقة كما يحاول دائما إقناعي..

- وماذا بعد؟

قالت بانكسار: لا شيء.. لكنه قد يتغير وقد يكف عن تعذيبي بالشك فيه.. وعن اتهامي بالجنون إذا شككت في تصرفات جديدة مريبة له

فلم أتردد هذه المرة في أن أقول لها: لن يتغير.. ولن يعترف بخطأ له ولن يكف عن اتهامك بالجنون إذا واجهتيه بقرائن جديدة.. لهذا فنصيحتي لك هي أن تقبلي به كما هو مادمت لا تفكرين في تغيير حياتك معه ولا تقدرين على ذلك.. ونصيحتي لك. ألا تتيحي له فرصة تشكيكك في نفسك.. وأن تضيقي عليه فقط فرص الخطأ الفاضح بسذاجتك أو بحسن نيتك معه ثم أن تعوضي بعد ذلك متاعبك معه بالتصاقك بأبنائك وبتجنب أسباب الشقاق معه وإطالة ساعات الصفو بينكما بقدر الإمكان، وترحمي نفسك وأعصابك وصحتك من محاولة تغييره، لأن الطب لا يعالج إلا المرض الذي يحتمل الشفاء، أما المرض الميئوس منه فلا يملك له الطبيب إلا تخفيف الآثار وانتظار معجزة الشفاء من السماء وحال زوجك كحال المريض الميئوس منه لا نملك له إلا الدعاء بالهداية.. وطلب الشفاء من الله، واليأس إحدى الراحتين في النهاية. أما تعذيب النفس بمحاولة إصلاح ما لا ينصلح فلا عائد له إلا المعاناة.. والأرق.. وتدهور الصحة وهذا ما لا أريده لك بأي حال من الأحوال.

فهزت رأسها يائسة وواعدة بأن تفعل ما أشرت عليها به لكنها قالت لي فجأة وهي تصافحني: سأفعل ما أشرت به لكني أريد رأيك النهائي فقط لكي أستريح.. هل أرتكب الجريمة الأخيرة التي رويتها لك أم لم يرتكبها؟

ففكرت قليلا ثم قلت لها: رأيي النهائي هو أن قرائنك ضده تبرر لك الشك فيه.. لكنها ليست كافية وحدها لإدانته!.

فشكرتني وغادرت مكتبي وهتفت لنفسي بعد خروجها: ألف لعنة على مبدأ ألا يحكم القاضي بعلمه.. وألف مليون لعنة على مبدأ تفسير الشك لصالح المتهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجل المستحيل

اتصل بي يستأذن في الحضور إلى مكتبي بعد قليل لأمر هام. كان الوقت قرب منتضف الليل في يوم الاثنين الذي أستقبل فيه قراء بريد الأهرام وأستمع لمشاكلهم، وقد اكتفيت بما سمعت من هموم وآلام ذلك المساء، ولم يعد في صدري متسع للمزيد. فصارحته بأني قد استنفدت كل طاقتي النفسية والعصبية في اللقاءات السابقة ولم أعد صالحاً للتفكير في مشكلة جديدة فإذا كان مصرا على مقابلتى.. فليتفضل لنحدد موعداً آخر للقاء. فأكد لي أنه سيأتي لكي يسلم لي رسالة فقط ولن يطلب رأيي فيها خلال نفس اللقاء.

وضعت سماعة التليفون وانشغلت با يشغلني من عمل، فلم يمض وقت طويل حتى وجدته يدخل إلى مكتبي. تصافحنا وشيء ما في داخلي يهمس لي بأني قد التقيت به من قبل لكني لا أعرف أين أو متى حدث ذلك. وصدق إحساسي حين قال لي بعد قليل: لعلك تذكرني.. فلقد جئت إليك منذ حوالي عام وأبلغتك رغبتي في تعيين بعض الشباب الباحثين عن عمل من قرائك في شركتي الخاصة، وأرسلت إليّ عددا منهم. وتذكرته على الفور، إنه رجل الأعمال الناجح الذي جاءني فعلا منذ حوالي عام ولاحظت عليه في لقائي الأول به أنه إنسان مهذب متواضع سعيد بما حقق من نجاح في حياته ويريد أن يساهم في حل مشاكل بعض الشباب من قراء بريد الأهرام بإيجاد العمل الملائم لهم وكان شرطه الوحيد لي وقتها أن يكون هؤلاء الشباب الذين أرسلهم إليه أصحاب الحالات الاجتماعية الحرجة ليكون العمل إنقاذاً لهم من معاناتهم وقد شكرته بحرارة على عرضه وقتها وأرسلت إليه عدداً من الشباب لكن شتان بين الرجل الناجح الباسم الذي التقيت به منذ عام وبين هذا الشخص المكتئب الحزين الذي يجلس أمامي.

وأحسست على الفور بأن هناك مشكلة ملحة وراء إصراره على مقابلتي رغم تأخر الوقت، ونظرت إليه مشجعاً، فمد يده إليّ برسالة مكتوبة وأمسكت بها وبدأت أقرأ:

أنا رجل من أسرة كبيرة طيبة. تخرجت في الجامعة، وعملت في مجال جديد بعيد عن دراستي تعلمته بسرعة وأجدته، ثم سافرت للعمل في إحدى الدول العربية لعدة سنوات وعدت وأسست شركتي الصغيرة وحين بلغت الثلاثين من عمري قررت أن أتزوج فاخترت إحدى قريباتي لتكون شريكة حياتي وكانت أسباب اختياري لها، أنها على خلق وتحبني بشدة وصاحبة رأي ودين وبارك كل أهلنا ارتباطنا، ونظر إلينا الجميع بالإعجاب والإكبار، فزوجتي جميلة ورقيقة تعمل بإحدى الوظائف لإثبات ذاتها وشغل فراغها وأنا شاب وسيم وميسور مادياً وصاحب عمل ناجح، وتزوجنا وأنجبنا ولداً وبنتاً وعشنا حياة هادئة مستقرة يغبطنا الجميع عليها وعلى البهجة التي يستشعرها أي زائر يدخل جنتنا الصغيرة.

وقد تشاركنا وتساندنا في مواجهة مواقف الحياة المختلفة بالحب والعطف المتبادل فوقفت هي إلى جواري كثيراً في بداية افتتاح شركتي الصغيرة وخففت عني صعوبات البداية. ووقفت الى جوارها في محنة مرض أمها ثم وفاة أبيها

وأمها فيها بعد، وأحسستَ بعد وفاتها بأنني قد أصبحت مسؤولا عنها ليس كزوج محب فقط وأنا كأب وشقيق أكبر لها أيضاً بعد أن أصبحت وحيدة في الحياة، فتحملت مسؤولية الحفاظ لها ولشقيقتها الوحيدة على تركة أبيها وتكبدت في سبيل ذلك عناء كبيراً فأصبحت أعمال شركتي وأعمال تركة أبيها تشغل كل وقتي، وواصلت العمل ليلا ونهاراً في الجبهتين حتى استقرت أعمال تركة أبيها واطمأننتُ إلى أني قد حافظت لها ولشقيقتها على ميراثها من الضياع.. وبدأت أعود تدريجيا للتفرغ لعملي الخاص وبدأت في تطويره.. ووضعت خطة جديدة للتوسع فيه ودخول أسواق بعض الدول العربية وافتتحت لي مكتباً في إحدى عواصمها وانشغلت في ذلك كثيراً، لكني لم أنشغل عن بيتي وأسرتي الصغيرة ولم أبخل على زوجتي وأولادي بحبي وحناني واهتمامي.. فهم كل حياتي، وقد رأيت أنني قد أصبحت كثير السفر لأعمالي الجديدة فاشتريت لزوجتي سيارة جميلة لكي تستخدمها خلال فترات سفري القصيرة. وبدت لى الحياة خلال هذه الفترة جميلة وواعدة بمستقبل أكثر ازدهاراً ونجاحا. لكن شيئا غريباً طرأ على حياتنا فجأة فأثار هاجسي وقلقي.. لقد بدأت شخصية زوجتي تتغير بشكل ملموس فأصبحت تغالي في الاهتمام بأناقتها ومظهرها بأعذار مختلفة وشديدة الاهتمام بعملها رغم عدم حاجتنا إليه ماديا. وبدأت وجهات نظرنا تختلف حول بعض الأمور مع أننا كنا دائماً متفاهمين حول كل شيء. وبدأت المشاكل الصغيرة بيننا حول هذه التطورات الجديدة في حياتها من المكالمات التليفونية الطويلة التي أصبحت تنشغل بها عني إلى أسلوب ملابسها وزينتها المبالغ فيها، وبدأ العش السعيد يسمع نعيق الشجار لأول مرة بعد أن كان لا يسمع إلا أنغام الحب، وانتابني إحساس غامض مزعج بأن زوجتي ليست صادقة معى فيها تقدمه لى من تفسيرات عن هذا التغير الجديد في أسلوب حياتها. إحساس غامض لا دليل عليه سوى قلبي الذي ينبئني بأن هذه السيدة الصغيرة الجميلة التي تتحدث معي الآن لم تعد هي نفسها السيدة التي عرفتها وامتزج روحانا وقلبانا خلال السنوات الأخيرة.

وبعد معاناة نفسية طويلة قررت الإقدام على خطوة خطيرة تعكس ما تردت إليه علاقتي بها وهي مراقبتها من حيث لا تعلم! وانصرفت عن عملي الذي كرست له حياتي وجندت ذكائي وكل حيلي لأكتشف سر تغيرها الغامض. واستعنت بالسيارات المؤجرة.. وبأشخاص متفرغين لمراقبتها عن بعد بل واستعنت أيضاً بأجهزة تسجيل صغيرة بثثتها في غرفة المعيشة بالبيت حيث تجري زوجتي المكالمات الطويلة الهامسة.

ولم أكتشف رغم كل ذلك شيئاً محدداً.. لكن إحساسي بوجود شيء في حياتها أحسه ولا أجد دليلاً عليه لم يرحمني.. وزادت معاناتي وانهرت نفسياً وعصبياً حتى فكرت جدياً في الانتحار وأنا الشاب الناجح الذي يحسده الآخرون على نجاحه وأسرته الصغيرة.. وفي غمرة حيرتي هذه ذهبت في فجر أحد الأيام الى مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة وأديت صلاة الفجر وزرت الضريح الذي تفوح منه روائح المسك وبكيت وأنا أدعو أن يخرجني من حيرتي وأن يلهمني الصواب فيها أفعل، لكي أتخلص من جحيم المعاناة.. واستجاب الله لدعائي سريعاً فلم تمض على ذلك

أيام حتى وضعت يدي على السر الغامض، وكان كارثة هزت وجداني من الأعماق. لقد أصبحت زوجتي يا سيدي لاتحبني.. وإنما تحب زميلاً لها في العمل، وليته كان شخصا مناسباً لها أو يتميز عني بشيء يستحق من أجله أن يستأثر بقلب زوجتي دوني بل على العكس ذلك تماماً. فهو شاب يصغرها بثمان سنوات ويصغرني ب- 16 سنة.

وهو شاب بسيط لا يملك شيئا هو وأسرته وليس فيه ما يجذب إليه أي امرأة بشهادة زملائها وزميلاتها أنفسهم، كما أنني لا ينقصني شيء منجاذبية شخصية أو رجولة كاملة. ووقفت ذاهلاً أمام هذه الحقيقة القاسية، وفي اضطراب تفكيري فكرت جدياً في أن أقتله ثم تراجعت في اللحظة الأخيرة لأني أحسست بالخسة والنذالة في أن أعاقبه هوولا أعاقبها هي. ثم ماذا أجني من وراء هذا العمل الإجرامي؟ هل سيصفو لي قلب زوجتي المسلوب، وعدلت عن هذا التفكير الانفعالي، واخترت الطريق الأصعب وقررت الانفصال عنها وإعطاءها حريتها لأضعها أمام الاختيار الحر بيننا.. فإما أن تندم على ما فعلت وترجع إليّ مقتنعة بي وبأنها قد أخطأت خطأ بشعاً في حقي وحق أسرتها وتكفر بمشاعر صادقة علا فعلت.. وإما أن تصحح علاقتها الخاطئة بهذا الشاب وتعيش معه في الحلال وتحت وهج الشمس.. وليس في ظلام الخيانة والغدر.

ونزل، الطلاق عليها كالصاعقة وبعد الطلاق واجهتها بكل ما عرفت عنها وبكل ما جمعت من أدلة على خيانتها ولم تجد ما تقوله لي بعد الانهيار والبكاء الطويل سوى أنني قد أسهمت في انزلاقها إلى الخطأ بانشغالي عنها بتوسعات أعمالي الأخيرة! ورددت عليها بأنه لا شيء يشفع للخيانة أو يبررها، ومع ذلك فان كانت علاقتنا كزوجين قد انتهت، فإن علاقتي بك كأم لأطفالي وكقريبتي اليتيمة التي أعتبر نفسي مسؤولاً عنها بعد وفاة أبويها لم تنته، لهذا فاني أريد أن أطمئن على مستقبل أيامك مع هذا الشاب وأن أتأكد أنك ستعيشين حياة مستقرة حتى ولو كانت مع غريمي. وسألتها عن خطتها للمستقبل فطلبت مني أن ألتقي بزميلها الشاب وأبحث معه هذا الأمر! ولم أتردد لأني كنت قد طلبت منها ذلك فعلاً لكي أستكشف نياته الحقيقية تجاهها.

والتقيت به في وجودها في سيارتي فجلس هو إلى جواري.. وقبعت هي متخاذلة في المقعد الخلفي.. وتحاملت على نفسي وارتفعت فوق آلامي، وبدأت أتحدث معه كما يتحدث الأب مع شاب علم بأنه على علاقة بابنته ويريد أن يطمئن إلى جديته معها. وبدأت أساله عن خطته للمستقبل معها وماذا يريدان من هذه العلاقة وما هو مكان الأطفال في خطتهما ولم أجد أية إجابة واضحة لديه أو لديها ولم أخرج من اللقاء سوى بأنها كانت مجرد خيانة دون تفكير في العواقب أو المستقبل وبلا سبب أو هدف.. أو أخلاق. ولم أتمالك نفسي حين أدركت ذلك فأوقفت السيارة ونزلت منها وعدت إلى الخلف وفتحت الباب الذي تجلس الى جواره أم أطفالي ثم هويت على خدها بصفعة مدوية عبرت بها عن كل فجيعتي فيها وفي أخلاقها وفي شخصية فتى أحلامها الخسيس المضطرب هذا! ولم يجرؤ شريكها الجبان على أن يدافع عن «حبيبته ضدي بل ولم يبد أي حركة للمقاومة أو لحمايتها مني وإنما

انكمش كالفأر صامتا ومتخاذلا في مقعده.. وليته فعل شيئا أو تحرك للدفاع عن كرامة السيدة التي خانتني من أجله حتى ولو أدى ذلك إلى مصرعه في معركة عادلة بيننا إذن لاحترمته وقدرت فيه استعداده لحمايتها والدفاع عنها لكنه كان يعرف منها أنني أجيد منذ الصبا فن الكاراتيه وأستطيع أن أسحقه بيدي في لحظة فلم يتحرك ولم ينطق وازداد احتقارى له ولها وحين تأكدت من أنه ليست لديهما أية خطة لتصحيح وضعهما طالبتهما بقطع علاقتهما فوراً وتعهدا أمامي بقطع علاقتهما، ورغم ذلك استمرت اللقاءات بينها.. ووقعت في يدي تسجيلات لمكالمات عاطفية بينهما وأشعار تكتبها في حبه وأشعار يهديها إليها!.

واستمرت زوجتي السابقة تكذب على بشأن قطع علاقتها به.. وانتشرت الفضيحة في مقر عملها بعد أن كانت سيرتها فيه ناصعة البياض.. وكل ذلك وهو لا يتقدم خطوة واحدة في طريق الارتباط المشروع بها بحجة معارضة أهله. فتحركت لأحمي مستقبل أولادي من نزوات هذين الطائشين فأرغمتها على أن تكتب كل ما تملك وهو كثير لأولادنا وحتى السيارة التي أهديتها إليها أرغمتها على أن تكتبها باسمي واستجابت لكل ما طلبت بلا مقاومة. وأصبحت زوجتي السابقة بلا مال يغري أحداً باستغلالها.. وانتظرت أن يثبت الآخر حبه المجرد من الغرض لها ويقدم على الزواج منها. ولم يفعل، فأضيف إلى همومي النفسية المؤلمة هم جديد لا أعتقد أن رجلاً آخر قد حمله قبلي هو أن أبحث لشريكتي الخائنة وشريكها الآثم عن وسيلة للارتباط الشرعي بينهما.. حتى لا يستمرا في حياة الخفاء وعرضت عليها مساعدتي لها بكل ما أستطيع لكي يتزوجا. ويصححا وضعهما الشائن وكلما ذللت لهما عقبة من عقبات الطريق أثار هو بجبنه وتردده مشكلة جديدة، فأثار مشكلة معارضة أسرته لزواجه. وأقدمت على خطوة أكثر جرأه رغم مرارتها وقابلت معها أسرته لإقناعها بالموافقة على الزواج.. ورفضت الأسرة ارتباط ابنها بها وهو جالس صامت متخاذل لا ينطق ولا يدافع عن كرامة «حبيبته» أمام أسرته. وفعلتُ ما هو أكثر من ذلك.

فوعدتهما بأن أشتري لها شقة تجمع بينهما في الحلال على أن يبقى الأولاد معي وتراهم هي كلما أرادت في أي وقت. فأبدى تخوفه من الصعوبات المادية لحياتها الجديدة خاصة وأن زوجتي السابقة قد اعتادت على مستوى مرتفع للمعيشة معي!

ولم أدر ماذا أستطيع أن أفعل لها أكثر من ذلك. فتوقفت يائسا وواضعا الأمر أمامها بوضوح وهو: إما الزواج الشرعي وإما الانفصال النهائي بينهما حفاظاً على ما بقي من القيم والأخلاق وراقبتهما مراقبة شديدة لتنفيذ ذلك، ثم مضت فترة قصيرة فإذا بزوجتي السابقة تأتي إليّ وتعترف لي برجولتي معها ووقوفي بشرف وشهامة إلى جوارها.. ثم تقسم لي أنها قد قطعت علاقتها نهائياً بهذا الشاب، وتطلب عودتها إلى البيت.. وعودة الحياة الزوجية بيننا كما كانت بعد أن أدركت عمق خطئها.. وعرفت حقيقة معدني بالقياس إلى جوهر فتاها «النذل» ذاك. ووقفت حائرا أمامها هل أصدقها فيها تقول أم أكذبها وكيف أثق فيها بعد ذلك لو عدنا للحياة معاً والشك يملأ حياتي ووجداني؟ إنني حريص فعلا على إنقاذها. من الهاوية، لكن كيف أتحمل حياتي معها بعد ذلك وأين أنا من كل ما جرى وكان؟.

لقد خسرت الكثير نفسيا وصحيا وماديا وفقدت قدرتي على العمل.. وأوقفت خطتي للتوسع والعمل الخارجي وافتقدت الإحساس بمعنى الحياة.. وبمنطق الأشياء.. ولا أعرف لماذا فعلت زوجتى ما فعلت، وهي رغم كل شيء من أسرة كريمة.. بل إن «الآخر» أيضا رغم ضعفه وجبنه من أسرة فاضلة رفضت الموافقة على هدم حياة أسرة أخرى من أجل ابنها، وأولادى أمامي ضحايا لخطأ لا أعرف سببه ونزوة لم يقدر أصحابها عواقبها.. ولست أصدق أنها قد عادت إليّ نادمة وبكل مشاعر الحب القديمة. وحتى لو صدقت فلن أنسى ولن أغفر لها ما فعلت بي وبنفسها وبأولادها فاذا أفعل معها.. وهل أقبل عودتها؟ لقد أصبحت أنظر إليها وإليّ على أننا ثمار عصر بائس تدهورت فيه الأخلاق والقيم إلى أقصى درجة وتحولت حياتي إلى جحيم أعايشه كل لحظة من ليل أو نهار، وأنت تكتب وتنظر للحياة نظرة وردية وتخفف عن المهمومين آلامهم بكتاباتك التي تدعو للتفاؤل وإلى الثقة في الله والخير والقيم الدينية والخلقية، فهل تستطيع بعد كل ما رويت لك أن تلقى في طريقي بأي بصيص من الأمل في الخير والإخلاص والوفاء؟

وهل تستطيع حتى لو جاهدت نفسك أن تبث في نفسي.. روح التفاؤل الوردي تجاه الحياة مرة أخرى؟ ثم هل تنصحني في النهاية بأن أقبل العودة إليها وبأن أصدق ندمها وعودة حبها القديم لي من جديد.. .أم ماذا أفعل معها؟

وانتهيت من قراءة الرسالة.. ورفعت رأسي من فوق سطورها محاذراً أن يبدو على وجهي أي تعبير للرثاء قد يجرح مشاعر ضيفي برغم كل ما شعرت به من رثاء حقيقي وتعاطف صادق معه.. ونظر هو إليّ متطلعا إلى تعليق مبدئي على ما قرأت.. فقلت له متحاملاً على نفسي:

- أنت رجل شجاع بكل معنى الكلمة يا سيدي، لكني أحتاج إلى بعض الوقت لأفكر بعمق وصفاء فيها قرأت قبل أن أبدي فيه رأيي وسوف أتصل بك بعد يومين لنلتقى مرة أخرى ونتحدث فيها عرضته عليّ.

فنهض بقامته الفارعة مصافحاً وهو يقول لي:

- أنا لست شجاعاً.. وإنا أنا رجل مسؤول عن سيدة من أهلي كانت زوجتي وأنجبت لي أطفالي وقد تحملت مسؤوليتها وحاولت إنقاذها رغم جرحها لمشاعري كرجل وزوج حرصا عليها كإنسانة في النهاية وحرصاً أيضاً على أطفالي.

فقلت له: كل هذا يؤكد أنك رجل شجاع. لأن الشجاع فقط هو من لا ينكص عن تحمل المسؤولية ولو كان في أدائه لها ما يجرح كرامته ومشاعره، وأنت لم تتحملها فقط بل وأقدمت أيضا على ما يعتبره البعض ضربا من المستحيل بالنسبة لرجل وزوج في سبيل تحمل هذه الأمانة الثقيلة. لهذا كله فأنت رجل شجاع ونبيل ولابد أن تعترف بذلك لنفسك وألا تبخسها حقها، فقال وهو يتحرك إلى الباب منصرفا: تليفوني في نهاية الرسالة وسأنتظر منك اتصالا حين تتوصل إلى رأي محدد في مأساتي.. وإلى أن يحدث ذلك.. أؤكد لك مرة أخرى أنني لست شجاعاً.. وإنما «مسؤول».. وتعيس إلى أقصى حد بهذه المسؤولية الكئيبة.. إلى اللقاء.

ثم غادر مكتبي وأنا أتابعه بنظراتي المتأملة.. والحزينة. وأفكر بعمق فيها سأقوله له في لقائنا القادم.

يا إلهي.. ماذا عساي أن أقوله له حقا.. أو أنصحه به؟

.. هل عندك نصيحة مفيدة لي.. وله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صبـاح الفـل

غريبة هذه الحياة! تجري فيها أحياناً أحداث لو عرضت علينا على الشاشة أو قرأناها في قصة لاتهمنا مؤلفها بالمبالغة والافتعال. لكن ماذا نفعل حين يكون المؤلف هو «الزمن» الذي قال عنه الأديب والفليسوف الانجليزي فرنسيس بيكون إنه أعظم المؤلفين أو «مؤلف المؤلفين» بنص عبارته؟ هل نستطيع أن نتهم الزمن أيضا بخروجه أحياناً على قواعد الدراما الواقعية والميل إلى المبالغة والافتعال؟

لي صديق فنان ممثل عرفته منذ بداية خطواته الأولى وهو طالب بالجامعة ويمارس هواية التمثيل في فريق كليته. ثم تخرج في كليته فاتخذ قراراً جريئا هو ألا يقبل الوظيفة الحكومية التي كانت متاحة له وقتها وأن يحترف الفن والتمثيل. وراقبت خطواته الأولى وهو يحاول أن يشق طريقه وسط الصخور بلا سند إلا من موهبته وإصراره على النجاح وفرحت بكل خطوة حققها في مشواره الفني إلى أن بدأت أقدامه تستقر فوق الطريق الصعب، وبدأ اسمه يتصدر المسلسلات التليفزيونية وإعلانات مسارح القطاع العام. وراقبت عن قرب قصة حبه لزميلة له مؤهلة جامعيا ومن أسرة طيبة، وشهدت حفل زفافها بعد قليل في فندق «هيلتون النيل» وتمنيت لهما السعادة والتوفيق، ثم شاركتهما فرحتهما بأول مولود لها ثم بثاني مولود، وانشغل كل منا بمعركته مع الحياة فأصبحنا لا نلتقي إلا كل عدة شهور.. أو كلما شارك في مسرحية جديدة ودعاني لمشاهد تها، لكن الصلة الحميمة ظلت قائمة بيني وبينه فيجمع المصيف بيننا أحيانا.. ويربط التليفون بيننا من حين لآخر.

وذات صيف منذ ثلاث سنوات كنت أستعد للسفر في اليوم التالي إلى لندن في أجازتي السنوية حين اتصلت بي في بيتي زوجة صديقي الفنان تدعوني لمشاهدة المسرحية الضاحكة التي يتقاسمان بطولتها في أحد المسارح الصيفية، فاعتذرت لها على الفور باعتزامي السفر صباح غد وإنشغالي الليلة في كتابة بعض الأعمال الصحفية التي ستنشر خلال غيابي، فإذا بها تلح عليّ في الحضور، فأحسست بالحرج وحاولت إفهامها بلطف باستحالة ذلك للأسباب التي شرحتها من قبل، فإذا بها تتوسل إليّ باسم الصداقة أن أفعل المستحيل لأحضر للمسرح تلك الليلة مهما كانت الظروف! وأحسست بأن الأمر ليس مجرد دعوة لمشاهدة مسرحية ضاحكة فسألتها عن حقيقة الأمر، فانفجرت باكية وهي تقول لي: ستحدث كارثة إذا لم تحضر الليلة وتجلس معنا أنا وفلان بل سوف تندم طويلاً على أنك لم تفعل. وأدركت الموقف فأسرعت أؤكد لها أني سأترك كل شيء وأحضر لمقابلتها قبيل انتهاء العرض المسرحي مهما كانت الشواغل. ووضعت السماعة وأنا أتعجب من نغمة الحزن العميقة في صوتها وواصلت الكتابة بلا توقف لكي أفي بوعدي لها، وقبيل منتصف الليل توجهت إلى المسرح وجلست في الصالة أنتظر انتهاء المسرحية وتشاغلت بمشاهدة الفصل الأخير منها فلاحظت على الفور أن بطليها صديقي وزوجته في قمة تألقهما الفني وتأثيرهما على الجمهور فحوارهما معاً

يفجر عواصف متلاحقة من الضحك ومزاجهما الفني في أحسن أحواله وهما يتبادلان القفشات النابعة من وحي اللحظة ولا يتحكمان أحياناً في نفسيهما فيضحكان على القفشة التي ألفها أحدهما منذ لحظات مع الجمهور، وكنت مرهقاً بالعمل طوال الأيام الماضية..

فاسترخت أعصابي لهذا الجو الضاحك. واستسلمت لمداعباتهما وقفشاتهما وتابعت أحداث المسرحية مبتهجاً الى أن أفقت على ختام المسرحية، ورأيت الجمهور يصفق لأبطالها بشدة فصفقت معهم وشاهدت صديقي يقدم زوجته للجمهور وابتسامتها العريضة تنطق بفخرها بها وإعجابه ثم يقبلها في وجنتها بعد أن تنتهي من ردِّ تحية الجمهور، ورأيت زوجته تفعل نفس الشيء معه فتسحبه من ذراعه إلى مقدمة المسرح ليرد تحية الجمهور المتحمس وابتسامتها تنطق بفرحتها واعتزازها به وما إن ينتهي حتى تقبله هي أيضا في وجنته ثم يمسك كل منها يد الآخر ويرفعانها تحية للجمهور ووداعاً له. وأسدل الستار فخرجت من صالة المسرح إلى حديقته الخلفية التي تواعدت مع زوجة صديقي على انتظارها فيها، وأرسلتُ عاملاً يبلغ الفنان الشاب بوجودي في الحديقة وانتظاري له.. فلم تمضِ دقائق حتى رأيتها قادمة متجمهة وقبل أن أبدأ الحديث معها رأيته قادماً مندهشاً من حضوري بغير علمه ولاحظت تجهمه أيضاً وتعمده عدم النظر إلى زوجته!

وانصرف كل من كان في المسرح من جمهور وعمال وفنيين ولم يبق إلا حارس الحديقة الذي ابتعد عنا، وبدأ الحديث فانفجرت المفاجأة.

فصديقي وزوجته على خلاف تفاقم حتى اتفقا على الطلاق ولم يبق إلا التنفيذ صباح الغد!. وكمحاولة يائسة من جانب زوجته اتصلت بي لأجلس معهما جلسة أخيرة قبل أن يقدما على الطلاق في اليوم التالي! وبدأت بالسؤال التقليدي عما حدث، وتحدث صديقي طويلاً.. وتحدثت زوجته أطول.. وقاطع كل منها الآخر أكثر من مرة وكذبه مرات ودافع عن نفسه وانهمرت دموع الزوجة غزيرة كالمطر ودمعت عيون الزوج تأثراً وانفعالاً أكثر من مرة، واستجمعت كل قدرتي على الصبر والوساطة وتقريب وجهات النظر فإذا بالجلسة العاصفة تنتهي بعد ثلاث ساعات طويلة إلى أنه لاسبب حقيقياً لهذا النزاع، اللهم إلا تفاهات الحياة اليومية التي ضاعف من تأثيرها خصام كل منها للآخر ومجافاته له واعتصام كل منها بكبرياء جوفاء وعناد أحمق يمنع كلا منها من أن يبدأ بالاقتراب والصلح. أما أغرب ما اكتشفته خلال هذه الجلسة العجيبة فهو أن الزوجين المتحابين متخاصان خصاماً كاملاً وشاملاً لكل أوجه التعامل بينهما منذ شهر كامل أي منذ بداية عرض هذه المسرحية وأنهما خلال هذه الفترة الطويلة لم يتبادلا كلمة واحدة فيما بينهما ولا حتى تحية الصباح أو المساء.. إلا فوق خشبة المسرح التي يؤديان عليها دوري زوج وزوجته تقع بينهما المشاكل الزوجية المألوفة!

ولم أتمالك نفسي من الدهشة وسألتها وكيف تحضران للمسرح كل ليلة وتنصرفان منه؟ فأجابتني: يحضر كل منا منفرداً في سيارته ويتوجه إلى غرفته في المسرح ويضع ماكياجه ثم يؤدي دوره أمام رفيقه، وربما نتوجه للمسرح من

البيت فينزل كل منا في نفس المصعد دون أن يخاطب شريكه أو ينظر ناحيته ويتجه لسيارته ويركبها.. وفي الليل يحدث نفس الشيء فيعود كل منا للبيت في سيارته ويتجه الزوج إلى غرفة النوم وتتجه الزوجة إلى غرفة نوم الأولاد.

وهكذا منذ شهر كامل بلا كلمة ولا مشاركة في طعام أو شراب أو حديث عن شؤون البيت والأبناء.

واستعدتُ منظرهما وهما يتبادلا الضحكات والقفشات على المسرح.. ثم وكلٌّ منهما يقدم الآخر للجمهور والابتسامة العريضة تغطي وجهه وتصرخ بحبه للآخر وفخره به.. ثم وكلٌ منها يقبل الآخر في وجنته مختالا به على العالمين، ولم أستطع أن أكبح السؤال الذي يتقافز على لساني فسألتها: وكيف تتبادلان القبلات على المسرح أمام الجمهور ثم يبخل كل منكما على بكلمة حب أو تعاطف واحدة معه بعد انتهاء المسرحية؟

فأجابني الزوج والزوجة متنهدين: هذا ما يُحيرنا صحيح أنه «عمل» كنا نسعد به لكنه أصبح عذاباً مضاعفا حتى ان كلا منا فكر في الانسحاب من المسرحية لولا خوفنا مما سيثيره ذلك علينا من شائعات وأقاويل!

ولم أجد صعوبة كبيرة في إقناعهما بالصلح ونبذ فكرة الطلاق نهائيا حماية لحبهما.. ولطفلين بريئين من أن يتمزقا بينهما، ولا في إقناعها بتنازل كل منها عن كبريائه وعناده مع شريكه مؤكدا لها أن العناد دليل الغباء.. وأن الكبرياء الجوفاء اجتراء على مقام الخالق الذي لا يحق لأحد سواه - جل شأنه - أن يتكبر لأنه «المتكبر» الوحيد وكل من عداه بشر ضعاف في حاجة إلى عطف الآخرين خاصة وأن كلا منهما يحب الآخر حباً صادقاً، وقد قدم لشريكه خلال رحلة الحب والزواج من التضحيات ما يمدّ جذور حبه في أعماق الآخر، فكيف لهذه القصة الجميلة أن تنتهي على مذبح العناد والكبرياء؟

وأنهيت حديثي بمطالبة زوجة صديقي بترك سيارتها للصباح أمام حديقة المسرح والعودة إلى البيت في سيارة زوجها موصياً إياها أن تهجر غرفة نوم الأولاد إلى الأبد. ووقفت على باب المسرح رافضاً ركوب سيارتي إلا بعد أن تركب الزوجة مع زوجها، فركبا معا مبتسمين ولوحا لي بأيديهما مودعين.. وانطلقا إلى بيتهما وركبت سيارتي عائداً إلى بيتي ولم يتبق على موعد طائرتي سوى ثلاث ساعات، وأدركت أنه لا أمل لي في النوم قبل السفر فانشغلت بإعداد حقيبتي وانتظار السيارة التي ستنقلني إلى المطار، وجاءت السيارة في موعدها فسلمت الحقيبة لمن يحملها إليها.. وحملت حقيبة أوراقي الصغيرة وودعت أسرتي واتجهت لباب الشقة فإذا بجرس التليفون يرن! ترددت قليلاً في رفع السماعة خوفاً من أن تعطلني المكالمة غير المتوقعة عن موعد السفر.. لكني غالبت ترددي ورفعت السماعة متوجساً من أن يكون الزوجان قد اشتبكا مرة أخرى في نزاع جديد وأنهما يريدان إشهادي على فشل الصلح أو على عدم وفاء أحدهما بما تعهد لي به في نهاية الحديث. فتبددت مخاوفي فجأة حين سمعت صوت زوجة صديقي يتألق بالبهجة والمرح وهي تصيح بطريقتها المألوفة: صباح الفل! لقد أردنا أن نودعك

قبل أن تركب الطائرة.. وأن نشكرك مرة أخرى ونتمنى لك كل خير.. وهذا «حبيبي» يريد أن يقول لك مع السلامة قبل السفر.

وأعطت السماعة «لحبيبها» فجاءني صوته مهللاً ومحيياً وغلبته روحه المرحة فقال لي: لقد اتفقنا على أن تدخل تعديلاً جديداً على تحية الجمهور التي نؤديها معاً كل ليلة في ختام المسرحية.. فحين أقدم «فلانة» للجمهور سأفاجئها وهي منحنية لرد التحية «بشلوت» من الخلف يقذف بها إلى الصالة ويعبر عن «حبي لها»!.. وستفعل هي معي نفس الشيء.. ها ها ها أليس الأفضل أن أضربها وتضربني أمام الجمهور مقابل أن أقبلها وتقبلني في البيت بدلاً من أن نقبل بعضنا أمام الناس.. ثم نتخاصم فيما بيننا؟ ها ها ها مع السلامة..

وضحكت لهذه الدعابة وتخيلت وأنا في طريقي للمطار هذا المشهد العجيب وابتسمت متعجباً منه.. ومن مفارقات الحياة وغرائبها الكثيرة.. التي لا تجد «ناقدا» أدبياً يستطيع أن يتهمها بالمبالغة أو الافتعال لسبب بسيط هو أن «مؤلفها» هو الزمن - أعظم المؤلفين وأعصاهم على النقد والتحليل! فهل عندك أنت اعتراض على «تآليفه»؟!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منطق الربح.. والخسارة!

طلبت لقائي في باريس خلال مروري بها في طريقي إلى مونتريال في كندا. ورحبت بلقائها رغم ضيق الوقت وقصر الفترة التي أمضيتها في العاصمة الفرنسية.. وتوجهت في الموعد المحدد إلى بيت صديقي الذي أبلغني برغبتها في مقابلتي وجاءت بعد قليل، ونهضت لمصافحتها فرأيت أمامي سيدة مصرية متوسطة العمر جميلة.. محجبة صمد جمالها للزمن، فقدرت أنها كانت في شبابها فتنة للناظرين. قالت لي: إنها في زيارة لباريس وعرفت من صديقي بوجودي بها فرغبت في أن تقابلني لتستشيرني في أمر يشغلها.

وروت لي على الفور قصتها فقالت لي: إنها تزوجت صغيرة من رجل تسعد معه ولم تحتمل الحياة إلى جواره طويلاً، وعجزت عن الاستمرار في المعاناة والمشاكل، فطلبت الطلاق منه وأصرت عليه ووافق زوجها على طلاقها، لكنه اشترط عليها شرطاً هو أن تتنازل له عن حضانتها لطفلها وطفلتها منه إلى الأبد، وتمسك بهذا الشرط اللا إنساني فرضخت له، وتنازلت له عن الطفلين وعمر ابنتها 8 سنوات وعمر ابنها 7 سنوات، وهي تأمل أن يخفف الزمن من حدة العناد والقسوة فيسمح لها بعد أن تهدأ النفوس بحقها الطبيعي في أن ترى طفليها، لكن الأيام مضت دون أن يتخفف من عناده أو قسوته حتى بعد أن تزوج من أخرى، وحاولت هي أن تعوض سوء حظها في الزواج الأول فتزوجت من رجل آخر ووجدت سعادتها معه، وأنجبت منه، وحاول زوجها الجديد إسعادها بتمكينها من رؤية طفليها، وبحث عن الزوج الأول ليتفاهم معه على ذلك، ففوجىء بأنه قد هاجر بطفليه وزوجته إلى أمريكا ورفض أقاربه بإصرار أن يبوحوا له بعنوانه في مهجره.

ومضت الحياة بها وهي سعيدة بزوجها وأطفالها الجدد.. لكن في القلب جرحا لا يلتئم، وأملاً غامضاً في أن تلتقي ذات يوم بطفليها الغائبين، وتجددت المحاولات مرة أخرى مع أقارب الزوج فصارحها أحدهم بأن زوجها السابق قد أبلغ الطفلين بأن أمهما قد «ماتت» منذ زمن بعيد، وأنه لا أم لهما إلا زوجته الحالية، وصدقه الطفلان البريئان وتقبلا واقعهما الجديد، وتكيفا معه، وبعد سنوات أخرى تمكنت من معرفة عنوانه في أمريكا وراسلت ابنيها فلم تتلق أي رد منهما، وعرفت أن زوجها السابق قد اعترف لهما بوجود أمهما على قيد الحياة لكنه حرّم عليهما أي اتصال بها بدعوى أنها قد ألقت بهما إليه.. وتخلت عنهما، لكي تتزوج مرة أخرى، ولم تيأس الأم من الأمل في أن تعود العلاقة بينها وبين ابنيها إلى وضعها الطبيعي فراسلتهما على مدرستيهما في أمريكا وواظبت على أن ترسل إليها بطاقات التهنئة في الأعياد والمناسبات.. وحرصت على أن تكتب لها عنوانها واضحاً وترجوهما أن يجيبا على رسائلها بكلمة، فلم تتلق منهما رسالة واحدة، وفسر لها أحد أقارب زوجها ذلك بأن الأب قد هدد من يجيب على رسائلها بأن يقطع صلته به ويتخلى عن مسؤوليته تجاهه فرضح الاثنان للأمر الواقع.

ومضت 15 سنة كاملة.. ثم فوجئت ذات يوم برسالة على عنوانها في القاهرة من ابنها الذي أنهى تعليمه العالي وأصبح الآن شاباً مسؤولا عن نفسه يبلغها فيها أنه يريد أن «يعرف» أمه التي كان يظنها قد رحلت عن الحياة وآن الأوان الآن لأن يراها ويعرفها.

وتهللت فرحاً بالرسالة الغالية.. وكتبت إليه تقول له: إنها على استعداد لأن تقابله في أي مكان يحدده في أمريكا.. أو أوروبا أو مصر وعاد إليها البريد بالبشري.. فابنها سوف يجيء إلى القاهرة ليزور أهله لأول مرة منذ سفره إلى أمريكا. وسيزورها هو في بيتها.. وانتظرت زيارته بفارغ الصبر.. والتقت به فوجدت أمامها شابا في الثالثة والعشرين من عمره ينظر إليها بمشاعر متضاربة من الخجل والدهشة، وحب الاستطلاع، فلم تدعه لنفسه لحظة وهجمت عليه واحتضنته وأمطرته بقبلاتها ودموعها.. وجرفه سيل المشاعر الذي تدفق عليه فجأة فوجد نفسه بعد قليل يبادلها القبلات والدموع وتلفت وهو في أحضانها فوجد فتاة وشاباً صغيرين ينتظران أن تفك أمها حصارها حوله ليتلقياه بين أحضانهما وجذبته الفتاة من ذراعه وقبلته وهي تقول له: أنا أختك! وشده الشاب من بين يديها وقال له: أنا أخوك! وراح الثلاثة يتجاذبونه.. وهو ينتقل من واحدة إلى أخرى أو آخر ويضحك في مرح وسعادة، واندهاش لطوفان المشاعر العاطفية هذا الذي لم يعتد عليه في مجتمع المهجر الواقعي الذي يتعامل مع الحياة بحياد وتجرد.

وعاش الشاب أياما حافلة بالسعادة والمرح مع أسرته التي حرم منها كل هذه السنوات الطويلة، وأصبح نجم الأسرة الجديد الذي تقدمه بفخر للأقارب والأهل والأصدقاء.. وامتلأ برنامجه إلى آخره بالرحلات والزيارات والدعوات إلى بيوت الأهل والمعارف، وعرفت منه أمه أنه ظل فترة طويلة يتطلع إلى عودة العلاقة الطبيعية بينه وبين أمه، لكنه لم يكن يستطيع أن يواجه تهديد أبيه بالامتناع عن الإنفاق على تعليمه إذا أقدم على الاتصال بأمه، فانتظر حتى بلغ سن الرشد وعمل ورأى أن من حقه الآن أن يعرف أمه وأن يتحمل تبعات غضب أبيه آملا أن يتجاوز عن هذا «الخطأ» من جانبه بعد قليل، وغادر الشاب مصر مشحونا بأجمل الذكريات والمشاعر وتوالت الاتصالات والمراسلات بينه وبين أمه وإخوته، وانتقل للعمل في إحدى العواصم الأوروبية فأصبحت أمه تزوره كل عام.. ويزور هو أسرته الجديدة في أجازته السنوية. وفى كل لقاء مع أمه تطلب منه أن يرتب لها اللقاء الذي تتلهف عليه مع ابنتها التي عرفت منه أنها قد تزوجت دون أن تراها، ويحاول الشاب ذلك مع أخته فتصدمه بالرفض القاطع لأي اتصال بينها وبين أمها. وبعد جهود مضنية وافقت على أن تلتقي بأمها لقاء واحداً خلال رحلة لها من أمريكا إلى جنيف حيث يعمل الإبن الشاب، وطارت الأم إلى هناك ورأت ابنتها لأول مرة بعد 16 عاما من الغياب، واندفعت إليها ففوجئت بها تصدها عنها بجفاء وتصافحها كما يتصافح الغرباء قائلة لها: هاي!.

وصدمت الأم بجفاء مشاعر ابنتها فلم تتمالك نفسها وسألتها على الفور: لماذا تكرهينني؟ وأجابتها الإبنة في هدوء: أنا لا أكرهك ولا أحبك.. لأني لا أعرفك!.

وحبست الأم دموعها وسألتها: ولماذا ترفضين أن أراك أو أتصل بك؟ ففوجئت بابنتها تجيبها: وماذا «سأكسب» من رؤيتك أو اتصالك بي؟ إننى لن أستفيد شيئا سوى أني سأخسر مساندة أبي لي وهو لا يريدني أن أعرفك أو أتصل بك.

لقد تخليت عنا ونحن صغيران في حين احتضننا أبونا وربانا، لهذا فهو يستحق أن أحترم رغبته في ألا أعرفك! وعبثا حاولت الأم أن تقنعها بأنها لم تتخل عنها وعن شقيقها راضية وإنا مضطرة وتحت ضغط قاهر، وأنها لم تنسها لحظة واحدة طوال السنوات الماضية وحاولت مراراً أن تتوصل إليهما لتراهما وتهتم بأمرهما لكن الأب حال دون ذلك بكل الوسائل.

وعبثا حاولت أيضا إقناعها بأن عودة العلاقة الطبيعية بينها كأم وابنتها لا تعني أبدأ تنكرها لأبيها أو جحودها له.. وإنما تعني فقط تصحيح خطأ دفعت إليه ظروف خاصة وأن الأوان لتصحيحه الآن كما أن العلاقات العائلية لا يصح أن نتعامل معها بمنطق الربح والخسارة وحده ودون أي اعتبار للمشاعر الإنسانية والعاطفية.

لكن الفتاة العنيدة لم تتزحزح عن موقفها وتمسكت بمنطقها المادي هذا ورفضت أن تعطيها عنوانها الذي انتقلت إليه بعد زواجها أو رقم تليفونها ومنعت شقيقها من أن يبوح بها لأمها واحترم الشقيق رغبة شقيقته فاعتذر لأمه آسفا عن ذلك. وعادت الإبنة إلى أمريكا.

ورجعت الأم إلى مصر وهي تأمل أن تلين الأيام من صلابة عنادها ومنطقها «الأمريكي» الذي تتعامل به معها.. فمضت ثلاث سنوات كاملة دون أن تلين.. أو ترق أو تسمح لشقيقها بأن يعطي أمها عنوانها في أمريكا! وفشلت جهود الشقيق معها فأعلن لأمه يأسه من المحاولة معها مرة أخرى!.

ودمعت عينا الأم الجميلة وهي تسألني: هل تنصحني بأن أستمر في إلحاحي عليها بالخطابات التي أرسلها إليها عن طريق شقيقها لكي تسمح لي بأن أراها وأدافع عن نفسي أمامها.. أم تنصحني باليأس منها وبالكف عن إرسال الخطابات.. والوسطاء إليها لتغير موقفها مني؟.

وتفكرت طويلا في السؤال وأنا أتعجب لهذه القصة الحقيقية التي تتحدى بغرابتها قصص الأفلام الميلودرامية القديمة.. ثم سألت السيدة الجميلة:

- هل تستطيعين تحمل انقطاع العلاقة بينك وبين ابنتك وتكييف حياتك على أساس عدم وجودها فيها لفترة أخرى؟ فأجابتني بواقعية: نعم أستطيع فقد تحملت اختفاءها من حياتي 19 سنة وأستطيع تحمل هذه الحقيقة رغم آلامها لفترة أخرى بلا معاناة كبيرة.

فقلت لها على الفور: إذن فدعي للزمن ولعوامل أخرى أن تغير من أفكار ومشاعر هذه الفتاة العنيدة تجاهك. فقط أبلغيها عن طريق شقيقها أن هناك في مكان ما من الأرض أما صدرها مفتوح لها في أي وقت وأي مرحلة من العمر تحتاج فيها إليها وعلى استعداد لأن تلتقي بها في أي مكان من خريطة الدنيا.. وسوف تجد لديها دفء مشاعر الأم.. واهتمامها بها وتأييدها المعنوي والمادي لها حين تحتاج إليه

أو تفتقده واطلبي من شقيقها أن يذكرها دائما بهذه «الحقيقة».. وبأن هذه الأم لن «تكسب» شيئا ماديا من اتصالها بها، لكنها هي التي «ستكسب» وستستفيد لأنها ستجد لدى أمها كل ما تحتاج إليه فتاة وزوجه شابة من رعاية أم تستطيع أن ترجع إليها في شؤونها وتستطيع أن تقدمها لزوجها ولأولادها حين تنجب أطفالا، وسوف يلعب الزمن دوره الخالد في هذه المشكلة.. كما يؤديه دائما في كل مشاكل الحياة، فيهدأ الغضب.. وتلين الأفكار الجامدة وترق القلوب القاسية خاصة حين تقتنع بأن اتصال أمها تليفونيا بها مرة كل أسبوع أو كل شهر ليس «خيانة» لأبيها كما تتصور ولا يتعارض مع الوفاء له وإنا هو أداء لواجب إنساني هي الخاسرة بالامتناع عنه قبل غيرها.

وسكت قليلاً ثم قلت للأم إن ملاحقتك لها بمشاعرك العاطفية وإلحاحك عليها بها لن يزيدها إلا إعراضا عنك فالنفس قد تزهد أحيانا من يرغبها بإصرار ويتوسل إليها بكل الوسائل، ويزيد من هذا الاحتمال معها أنه لا مجال للتأثير عليها بالوازع الديني الذي يذكرها بحق الأم عليها حتى ولو أخطأت في حقها كما تتصور، فالواضح أنه ليس لهذا الوازع أي دور مؤثر في منطقها «البراجماتي» العملي الذي يقيس الأمور بحساب المكسب والخسارة وحده. إذن فالأفضل هو أن تتعاملي معها بنفس هذا المنطق الذي لا تفهم غيره، وأن تنقلى إليها الرسالة التي أشرت إليها عن طريق شقيقها ومضمونها أنها سوف «تستفيد» الكثير من ظهور أمها في حياتها ولن تخسر الكثير فلقد تجاوز الأب عن «خطأ» الإبن الذي أعاد علاقته الإنسانية بأمه ولم يغلق دونه بابه أو حياته وتستطيع هي أيضا أن تفعل نفس الشيء وأن تبرره لأبيها بالاعتبارات الإنسانية المعروفة. ومع كل ذلك فإن الأمل في تصحيح أفكارها وتنبيه مشاعرها الإنسانية تجاه أمها وتجاه أشياء كثيرة في الحياة لن يتحقق بتأثير هذا المنطق المادي وحده.. وإنما هو يمهد الطريق فقط لتقبلها مبدأ التفكير في عودة العلاقة مع أمها، وإنها سيتحقق التغيير بعامل أهم هو أن تعرف هي لأول مرة في حياتها مشاعر الأم حين تنجب أول أطفالها بعد فترة قصيرة، ففي اللحظة التي يخفق فيها قلبها لمولودتها الصغيرة وتعرف مشاعر الأمومة ولهفة الأم على ابنها، وحاجتها الإنسانية والعاطفية إلى أن تلمسها وتقبلها.. وتشتم عبيرها.. سوف تفهم معنى رسالتك إليها.. وتعرف قيمتها وتتفتح مسام قلبها لك، وتتعامل معك بمنطق آخر لا مجال فيه لحسابات الربح والخسارة فانتظري إذن هذا التغيير الحتمي الذي سيحدث في حياتها ومشاعرها إن آجلا أو عاجلا فليس كالأبناء شيء يرقق القلوب وينسف المنطق البراجماتي من جذوره ويكسر الأنوف المتعالية.. ويذكر الإنسان بحقيقة أنه إنسان.. وإن غدا لناظره قريب!

وراقبت الأم وهي تستمع إليّ فوجدت أسارير وجهها تنفرج رويداً رويداً مع كلماتي الأخيرة لها كأنها تتخيل معاناة ابنتها في الولادة ولهفتها على وليدها وتأمل أن تذكرها هذه اللحظات المشحونة بأصدق الانفعالات والمشاعر بأمها التي تتلهف على سماع صوتها وتعلن استعدادها لأن تطير إليها في أي مكان لا لشيء سوى أن تحتضنها وتقبلها.. وتقدم لها عطاءها الإنساني الدافق الذي حالت

الظروف المأساوية دون أن تقدمه لها فيها مضى من العمر. وأنهيت حديثي إليها وصافحت السيدة مودعا، ونهضت لألحق بموعد تأخرت عنه فشكرتني بحرارة.. وغادرت الشقة وأنا أحكم إغلاق معطفي على صدري اتقاء لبرد باريس القارس في هذا الوقت من السنة.. وفى خاطري يتردد السؤال الحائر الذي يعاودني كثيراً كلما واجهت مشكلة جديدة من مشاكل البشر.. وهو: متى يستريح الإنسان في هذا العالم الحافل بالمعاناة.. والآلام.. وجفاء المشاعر؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السـحـر الأسـود

جاءت إلى مكتبي في الموعد المحدد مصطحبة معها فتاة في سن السادسة عشرة بدا من التشابه الواضح بينهما أنها ابنتها. وجلست الأم الجميلة تروي لي قصتها فلاحظت منذ الوهلة الأولى أناقتها البالغة وقوة شخصيتها. قالت لي: إنها تزوجت منذ ثلاثة وعشرين عاما من طبيب شاب تفانى في إرضائها وإسعادها وأنجبت منه ثلاث بنات صغراهن تجلس الآن أمامي.

وقد عمل في إحدى الدول العربية منذ خمسة عشر عاما فصاحبته إليها لعدة سنوات ثم ضاقت بالاغتراب والابتعاد عن أهلها ومجتمعها فطلبت أن تعود إلى مصر ورغم حاجته الشديدة إليها بجانبه فقد وافق بلا معارضة، وأصبح يعيش معظم شهور العام وحيدا في مسكنه في تلك الدولة العربية، وأثث لها شقة فاخرة في القاهرة ورضيت عن حياتها وزوجها الحريص دائما على إرضائها وعدم معارضتها في شيء، ورأت دائما أنها جديرة بذلك فهي جميلة بيضاء شقراء متسلطة لا تقبل المعارضة.. وإذا غضبت اكفهرت السماء وثارت البراكين.. وقد تعلم زوجها من تجاربه معها أن خير وسيلة للعيش معها في سلام هي ألا يعارضها في شيء، فإذا أرادت العودة لمصر وتركه في غربته فليكن لها ما أرادت وليحتمل هو الحياة وحيدا إلى أن تأتي شهور الصيف، فتلحق به لبضعة أسابيع تمضي معظمها في الأسواق والمحال التجارية لشراء ما تريد وبلا حساب أو فليعد هو إليها وإلى بناته وأهله في أجازته السنوية القصيرة، وإذا عاد كان لها كل ما تريده منه إذا أرادت السفر إلى أوروبا وكان هو يريد أن يقضي بعض الوقت مع أهله وإخوته.. فليتنازل الأهل عن حقهم فيه وليسافر معها إلى أي مكان، وإذا جاء في إجازة قصيرة في الشتاء متعبا يريد أن يستريح في شقته ويلتقط أنفاسه ورأت هي أن تسافر الأسرة إلى أسوان أو الغردقة نهض إلى حقائبه التي لم تفتح بعد.. واستجاب لرغباتها صامتا، كل ما تريد.. كل ما تطلب بلا مناقشة.. ولا اعتراض، فمطالبها ومطالب الفتيات المادية أوامر لا تحتمل النقاش وهو دائما الزوج المطيع المتودد.. الراضي بها تمنحه له من نفسها ومشاعرها وإن كان قليلا. ولقد تزوجت كبرى بناته فأدى واجبه الأبوي معها على خير ما يرام ولم يشك من إسراف زوجته أو مغالاتها في كل شيء وتزوجت الوسطى بعدها بعام فكان الأب المثالي والزوج الذي تفخر به زوجته في مجتمعها وأمام أسرتها، وبعد زواج ابنتيه رأى أنه قد أدى الجزء الأكبر من رسالته في الحياة وضاق بحياة الوحدة لأكثر من عشر سنوات، وتمنى أن تعود زوجته للإقامة الدائمة معه في مقر عمله خاصة وأن البنت الصغرى مازالت في بداية المرحلة الإعدادية، وأبلغ زوجته أمنيته أو رجاءه فلم تستجب له، فعرض عليها أن ينهي عمله في الخارج ويعود للحياة معها ويجتمع الشمل في بلدهما مرة أخرى فثارت عليه ثورة هائلة.. ولامته على تفكيره في ذلك وابنته الصغرى مازال المشوار طويلا أمامها.. ولم ينجح في إقناعها بأن مدخراته تكفي لهذا الغرض ولتحقيق الحياة الكريمة لهم في مجتمعه إلى جانب أنه سوف يعمل في بلده وسوف يكسب الكثير بخبرته الطويلة، فتحطمت

رغبته أمام صخرة عنادها وإصرارها.. وغضبها المزلزل.. واستسلم لأقداره وعاد حزينا وحيدا إلى مقر عمله وهدأت العاصفة وعاد للحياة سكونها من جديد.

وتوقفت محدثتي عن الكلام لحظة فتعجلتها متسائلا: ثم؟

فانكسرت نظراتها الواثقة قليلا وقالت: ثم في السنوات الثلاث الأخيرة عينت في المستشفى الذي يعمل به ممرضة فلبينية سمراء دميمة نحيفة كأنها عود أجرد وخصصت لمساعدته في إجراء العمليات الجراحية فتفانت في خدمته وتعرفت عليها فأثارت إشفاقي بظروفها العائلية السيئة وبانكسارها الدائم، فهي من أسرة شديدة التواضع وكل شقيقاتها يعملن خادمات في الدول العربية فدعوتها إلى البيت خلال وجودي مع زوجي في مقر عمله، وأصبحت فردا من الأسرة وكسبت محبتي باستعدادها الدائم للقيام بأعمال البيت نيابة عني، وكانت تعود من المستشفى إلى بيتي وتقوم بأعمال النظافة والطهي وتساعدني في ارتداء ملابسي وكيها وتبدي إعجابها بجمالي ولون بشرتي البيضاء وشعري الأصفر وثقافتي وتعليمي العالي، وتقول لي دائما إني جديرة بحب زوجي لأني سيدة يفخر بها أي زوج.. وأحببتها لذلك ودعوتها لقضاء إجازتها معنا في مصر واصطحبتها على نفقتي إلى القاهرة فكانت تخجل من الذهاب معنا إلى النادي وتفضل القيام بأعمال خدمة البيت وتشعرني دائما أنها أقل مني قدرا، ولا يمكن أن ترقى لمستوى صداقتي، وانتهت إجازتها وعادت إلى مقر عملها وبعد شهور قدمت استقالتها وعادت إلى بلادها!

فسألت محدثتي: وبعد!

فقالت: وبعد ذلك جاء الطوفان بلا نذير فلقد تغير زوجي فجأة من النقيض إلى النقيض وأصبح يضيق بطلباتي ويناقش ويعترض ويقبل ويرفض فخاصمته وهجرته فلم يحاول مصالحتي أو استرضائي كما كان يفعل من قبل، وطال خصامنالأول مرة لعدة أسابيع وتوقفت الاتصالات التليفونية اليومية بيني وبينه.. ثم اكتشفت أنه غير موجود في مقر عمله واتصلت بالمستشفى تليفونيا فعلمت أنه في أجازة يقضيها في الخارج، وتعجبت من أنه لم يأت إلى مصر ليراني ويرى بناته ويصالحني كالعادة وانتظرت عودته وأنا أحترق وظللت كل يوم أتصل بشقته الخالية تليفونيا فيظل رنين التليفون متصلا لعدة دقائق بلا مجيب حتى فكرت في السفر إلى هناك للبحث عنه ثم طلبته تليفونيا ذات صباح فإذا به يجيب وسألته بلهفة أين كان ولماذا اختفى هذه الفترة دون أن يبلغنا بمكانه فهل تعرف بماذا أجاب على تساؤلاتي الحائرة؟

لقد أجابني في هدوء قاتل بأنه كان في الفلبين يطلب يد ممرضته السابقة من أهلها رسميا وأنه تزوجها هناك في القنصلية المصرية وعاد بها زوجة له وأنها تقيم معه الآن في شقتي التي أثثتها هناك بذوقي واخترت ألوان ستائرها وديكوراتها! فهل يصدق أحد ذلك؟

لقد تزوج الطبيب الكبير ابن الأسرة الكبيرة ووالد الفتيات الثلاث وصهر المهندس الشاب ابن الأسرة العريقة والمحاسب الشاب نجل مساعد الوزير الخطير من

ممرضة فلبينية جاهلة دميمة نحيفة عجفاء من أسرة متواضعة فقيرة ويرفض أن يطلقها ويرفض أن يعود إلى نفسه وبيته ومستواه، واستولت عليه هذه الخادمة الفلبينية بانكسارها ونعومتها وتجفيفها لعرقه وتدليكها لأكتافه وهو يجري العمليات وتنظيفها لحذائه وكيها لملابسه وتظاهرها بالاهتمام بصحته كما كانت تفعل أمامي وكنت أفسره في حينه بأنه من طبيعة «الخادمات» التي تربت عليها.. لكني لم أكن أعرف أنه سلاح له هذا الخطر الكبير.. فكيف تفسر هذا التحول العجيب؟

فبادرتها أنا بسؤال: بل وكيف تفسرينه أنت أولا؟

فقالت باندفاع: لا تفسير له عندي إلا بأنه قد وقع تحت تأثير السحر الأسود المنتشر بكثرة في الفلبين.. فلقد كانت تحرص أن تصنع له كوب الشاي بنفسها وتقدمه له أمامي.. وتحرص على أن تضع طبقه على المائدة، ولابد أنها دست له شيئا في طعامه أو شرابه فسلبت إرادته واستسلم لها وتزوجها.. لقد فتشت بيتي في القاهرة بعد أن علمت بزواجه منها فوجدت بضع أوراق مخبأة في ثنايا مقاعد الصالون تحمل حروفا ورموزا غامضة لقد سحرته ولابد أن تكتب محذرا الزوجات من هذا السحر الفلبيني الأسود.. ففي مصر ما لا يقل عن ثلاثين ألف خادمة فلبينية على الأقل وفي الدول العربية مئات الألوف منهن.. والسحر الأسود معروف ومنتشر في الفلبين ولابد أن تحترس الزوجات منه وإلا تكررت الكوارث وتعددت! فسألتها: وماذا فعلت حين عرفت بزواجه؟ فأجابت بكبرياء: ثرت عليه ثورة هائلة وطلبت الطلاق فرفض فرفعت عليه دعوى للطلاق ودعوى للحصول على نفقة العام الأخير الذي شغل عنا فيه بزوجته الخادمة الفلبينية ودعوى للحصول على نفقة لائقة لابنته ومازالت القضايا منظورة أمام المحاكم.. لكن ليس هذا هو المهم..

الأهم ما هو رأيك في السحر الفلبيني؟ فكرت قليلا في سؤالها ووجدت نفسي أمام الخيار الصعب الذي أواجهه دائما كلما استشارني أحد بين أن أقول له ما أراه الرأي الصحيح في مشكلته حتى ولو أغضبه وبين أن أراعي ظروفه النفسية وأحاول إرضاءه ليغادرني وقد تخفف من بعض همومه، والحق أني منذ أن اخترت طريق التعامل مع هموم البشر قد عاهدت نفسي على ألا أخدع أحدا يطلب مشورتي، وبغض النظر عن رضائه أو عدم رضائه عن رأيي في مشكلته، ذلك أنني أعتبر الرأي أمانة أسأل عنها أمام خالقي وليس أمام من يطلبه مني لهذا فإني أختار دائما طريق مصارحة صاحب المشكلة برأيي معتذرا له في البداية عن أي اختلاف معه وغاية ما أبذله في هذا الصدد من جهد هو أني أضع دائما في اعتباري الظروف النفسية التي يعانيها المهموم بأمره فأحاول قدر الإمكان التخفيف من وقع كلماتي عليه.. وكان هذا أيضا اختياري مع هذه السيدة فأجبتها في هدوء: الحق أني لا أستطيع أن أحكم على مالا علم لي به ولست أستطيع أن أعفي زوجك من اللوم والمسؤولية عن هذا الانتحار الأدبي والاجتماعي الذي ارتكبه في حق نفسه بزواجه بمن لا يليق به الارتباط بها وبانصرافه عن أسرته وإهماله لشؤونها ولكن:

فسألتني بلهفة.. ولكن ماذا؟

فقلت بعد تردد: ولكن السحر الأسود الذي تتحدثين عنه قد يكون بريئا من المسؤولية عن ارتكاب زوجك لهذه الحامقة لأن هناك سحرا أشد سوادا منتشر أيضا في بعض بيوتنا وتأثيره أخطر في هدم العلاقات الزوجية المستقرة وتشريد الأبناء هو سحر النكد الأسود وسحر التسلط والأنانية وقهر شركاء الحياة وفرض رغباتنا عليهم دون اعتبار لما يريدون أو يحبون.

لقد غابت عنك أشياء كثيرة يا سيدتي خلال حياتك الزوجية كما أنك أسأت فهم صمت الزوج وخضوعه لكل رغباتك وخنوعه لك ففسرتيه أنه رضاء بالأمر الواقع وسعادة به، ولم يدر بخلدك لحظة أنه قد يكون صبرا على المكروه واحتمالا للحياة حرصا على مصلحة الأبناء وانتظارا للوقت الملائم الذي يتحرر فيه الزوج من معظم مسؤوليات الأبناء فيعلن التمرد، والعصيان.

إنك تعترفين بأن علاقتك به كانت علاقة إملاء للرغبات وفرض للإرادة من جانبك وإذعان وتصبر وتقبل لكل شيء من جانبه.. ولقد رفضت الإقامة معه في مقر عمله حيث يحتاج إلى قربك وتتزايد حاجته مع تقدم العمر، ورفضت عودته لبلاده واجتماع شملكما فيها وأجبرتيه على الاستمرار في العمل بالخارج والاغتراب ليوفر لك مطالب الحياة ومستوى المعيشة الذي ترينه ملائما لك، وطوال رحلة حياتك معه كان المطلوب منه إرضاءك أولا والسهر على راحتك دائما بغض النظر عما يرضيه هو أو يسعده، ثم وضعت تصاريف الحياة في طريقه فتاة جعلت مهمتها الاولى إرضاءه هو والسهر على راحته وتجفيف عرقه وتدليك أكتافه والتخفيف عنه وغير ذلك من الأمور التي تعتبرينها أنت من «شؤون الخدم»! وهي ليست كذلك لأنها خيوط رقيقة تجتمع وتتكثف وتوثق روابط الزوجين وتشعر كلما منها باهتمام الآخر به وبحاجته إليه وقد تجمعت هذه الخيوط الرقيقة تحت أنظارك وأنت غير عابئة بها وتحولت إلى حبال متينة تشده إليها فأصبحت الفلبينية الجاهلة الدميمة الصاعدة من قاع المجتمع في نظره أجمل الجميلات وأفضل الزوجات.. وسقط في بئر ضعف الإنسان المحروم من التعاطف والمشاركة تجاه من يلمس هذا الوتر الحساس في نفسه ويعوض حرمانه.. وهكذا أقدم الزوج الصامت على ما لا يتوقعه أحد منه وتزوج منها.

إننى لا أدافع عن تصرفه ولابد أن ينقذ نفسه من هذه الهاوية قبل أن ينجب من زوجته الجديدة وتزداد الأمور تشابكا وتعقيدا لكني فقط أفسر لك هذا التصرف بأسباب أقرب إلى العقل والواقع من حكاية السحر الأسود التي يصعب التحقق من صحتها فراجعي علاقتك به يا سيدتى وسوف تكتشفين الكارثة فيها وليس في هذا السحر.. وحاولي استعادته وإصلاح الأخطاء بعيدا عن ساحات المحاكم والعناد والكبرياء الذي لا معنى له.

فازدادت محدثتي اكتئابا وهمت بالنهوض وهي تسألني إذن فلن تكتب محذرا من السحر الفلبيني الأسود؟ فأجبتها مشفقا: بل سأكتب وسأكتب ولكن ليس محذرا من السحر الفلبيني الذي لا أعرف عنه شيئا.. ولكن من السحر الأسود الآخر الذي

يعشش في بيوتنا ويقتل الحب بين الأزواج والزوجات ويهدم البيوت الآمنة.. سحر النكد والتسلط والأنانية والفراق الطويل وغياب الحب والحنان والتعاطف وقهر إرادة شريك الحياة، وهو سحر يمارسه بعض الأزواج وبعض الزوجات ويحقق نتائج قاتلة في هدم العلاقات الزوجية.. وبعد أن يتهدم المعبد فوق الرؤوس يتساءل الضحايا والجناة في نفس الوقت عن أسباب ما جرى ويحاولون التماسها في عوامل خارجية وأوهام بعيدة تماما عن الواقع والحقيقة.

ونهضت أصافحها فصافحتني بارتباك وخجل.. وصافحتني ابنتها وهي تبتسم ابتسامة ذات معنى كأنها تقول لي بغير كلام: إني قد عبرت عما يمنعها الحياء والحرص على مشاعر أمها من مصارحتها به بلا مواربة.

وتفكرت طويلا في مغزى ابتسامة ابنتها ونظرتها المعبرة وتعلق أملي على دورها الهام في إصلاح الأمور بين الأبوين.. وفى تغيير نظرة أمها لما جرى - عسى أن تستطيع تدارك ما غاب عنها قبل أن يفوت الأوان إلى الأبد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسالة من امرأة «مهجورة»

في بريدي نوع من الرسائل أتوقف دائما أمامه مشفقا ومتأملا. إنها رسائل الأزواج الذين بلغوا سن الستين أو تجاوزوها، وأحيلوا للمعاش، وخلا عليهم وعلى زوجاتهم البيت بعد زواج الأبناء وانصرافهم إلى حياتهم، فإذا بجدار من الصمت ينزل بين الزوجين، وإذا بالحياة بينهما تتحول إلى تجاور في المكان وغربة في الروح والقلب! وفي كل تلك الرسائل كان من يشكون من هذه المشكلة أزواج يصورون حياتهم في سن المعاش أو على حافتها.. ويشكون من أن زوجاتهم قد هجرنهم هجرة داخلية إلى غرفة أخرى.. وإنه لم يعد يجمع بينهم وبين رفيقات العمر حديث يخفف من وحشة الفراغ.. ولا تعاطف يحقق الائتناس ولا صحبة هادئة تبعث الأمان في النفس.

وكان من بين تلك الرسائل.. رسالة نشرتها بعنوان «صيغة الغائب» روى لي فيها قارىء تجاوز الستين أن زوجته تقاطعه تماما منذ 6 سنوات ولا تتبادل معه كلمة واحدة منذ خلا عليها بيت الزوجية بعد زواج الأبناء. حتى أنها لا تناديه باسمه أبدا.. وإنما تضع له الطعام على المائدة وتدعوه إليه بغمغمة غامضة، ولا تؤاكله ولا تشاربه القهوة والشاي، ولا تنطق باسمه في حضوره أو في غيابه.. فإن اضطرت للإشارة إليه في حديث ضروري تحدثت عنه بصيغة الغائب وهو «حاضر» أمامها فتقول «هو» فعل كذا أو «هو» عليه أن يفعل كذا.. أما صيغة المخاطب «كأنت وأنتم» فلم تعد تتردد على لسانها رغم محاولاته للتودد إليها وبعث الدفء في حياتهما الباردة.

ونشرت الرسالة وعلقت عليها بما علقت على مثيلاتها من أن مأسأة بعض الأسر الشرقية بصفة عامة هي أن أحد الطرفين قد يختزن خلال علاقته الطويلة بالطرف الآخر ذكريات مريرة عنه وتحفظات عديدة عليه، حتى إذا تزوج الأبناء وانتهت المسؤوليات العائلية التي اقتضت تجاوزه عن بعض آلامه لكي تظل سفينة الحياة طافية، أحس فجأة بأنه لم يعد مطالبا ببذل أي جهد لتعويم السفينة.. وانطوى على مراراته تجاه الطرف الآخر، وزهد قربه وكلامه، وفقد القدرة على مشاركته اهتمامات الحياة اليومية. ولأن المرأة في مجتمعاتنا الشرقية قد تكون في كثير من الأحيان هي الطرف «الكظيم» في معظم سنوات الرحلة.. فإنها بعد زواج الأبناء وانفرادها بنفسها في بيت الزوجية قد تستسلم لمراراتها القديمة وتعزف عن أي رغبة في التواصل مع رفيق الرحلة المريرة.. ولولا الخوف من عدم إحراج الأبناء والبنات المتزوجات لهجرته نهائيا. ودعوت في تعليقي على رسالة «صيغة الغائب» وعلى مثيلاتها من الرسائل الأزواج والزوجات إلى عدم اختزان المرارة في سنوات الزواج الأولى حتى «لا تطفح» على حياتهم في سن الهدوء وحشة ووحدة وغربة نفسية.

ودعوت كل الأزواج والزوجات إلى أن يبذروا بذور العطف والحب والمشاركة بينهم في سنوات الرحلة المبكرة لكي تؤتي ثمارها في سن الجلال والاحترام إيناسا وتعاطفا متبادلا. ولاحظت كما لاحظ غيري أن كثيرين منا يعيشون سنوات

الشيخوخة في شقاق زوجي ومعاناة يضاعفان من محنة الطرفين وإحساسهما المرير بانتهاء الدور واقتراب الختام، في حين تتركز أحلام الزوجين المحبين في الغرب في أن يتمكن الزوج من أن يستقيل من عمله قبل سن المعاش بعام أو عامين لكي يستمتع بالحياة مع زوجته بعد انتهاء المسؤوليات العائلية، ولكي ينفذا «برامجهما» التي حالت هذه المسؤوليات دون تنفيذها في بداية الحياة الزوجية.. فيسافرا في رحلات خارجية حول العالم.. أو يهجرا المدينة إلى منزل صغير جميل في الريف عاشا يحلمان بامتلاكه طوال سنوات الكفاح.. ويتحررا من قيود العمل فيذهبا معا إلى المسرح والسينما وحفلات الزواج والمناسبات المختلفة. لهذا نراهم في شيخوختهم أصحاء متدفقين بالحيوية والإقبال على الحياة وتجري في عروقهم دماء الحب والعطف والرغبة في الحياة.. ونرى الأزواج والزوجات عندنا في شيخوختهم غالبا متهدمين ممرورين يفتقدون دفء المشاركة.

ونرى رجالهم ونساءهم في سن الاحترام، وأيديهم في أيدي رفيقات الحياة وأذرعهم في أذرعهن.. في المسارح والحدائق والبواخر والطائرات.

ونرى رجالنا ونساءنا في نفس السن يعيش كل طرف منهم وراء جدار الصمت والوحدة ويعانون من الأمراض النفسية الجسمية.. ويشكون من الاكتئاب!.

وحين نشرت رسالة صيغة الغائب تلقيت رسائل كثيرة من أزواج وزوجات يعلقون على الظاهرة ويحللون أسبابها ويحذرون منها.

لكني توقفت طويلا أمام رسالة منها لزوجة في منتصف العمر تحكي قصتها مع ما تعتبره حالة مشابهة لحالة صيغة الغائب واستوقفني في رسالتها صدق مشاعر كاتبتها وإن بالغت في تصوير أزمتها.

ولأنني أقول دائما إنه ليس أصدق ممن يروي عن مشاعره ونفسه بأمانة، فلقد اعتبرت هذه الرسالة نموذجا صادقا لمشاعر واحتياجات المرأة في أزمة منتصف العمر أو مرحلة السن الحرجة وأرى من المفيد أن نقرأها معا:

قرأت رسالة «صيغة الغائب» في بريد الجمعة.. فشعرت بقلبي يغوص في أعماقي وأحسست بيد من حديد تضغط على عنقي، وروحي تنسحب رويدا مني لأنني أيضا أشعر أنني أنزلق إلى هذه الهاوية! لقد قرأت ردك عليها وأعجبني كل ما جاء فيه، ولكن لي رأى بصفتي الطرف الآخر «المرأة» التي لم يسبق أن أتيحت لها فرصة إبداء وجهة نظرها في مثل هذه الرسائل.. لقد قرأت لك أكثر من مرة تعليقات تستشهد فيها بالحديث النبوي الشريف الذي يطالب المرأة بألا ترفض رغبة زوجها فيها ولو كانت على «ظهر جمل».. ودائما أسأل نفسي هل هذا هو الحديث الشريف الوحيد الخاص بالعلاقة الزوجية؟ لماذا يتناسى الرجال أحاديث الرسول الأخرى التي يقول فيها «استوصوا بالنساء خيرا» و «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» و «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته».. إن هذه هي أحاديث رسولنا الكريم.. وهذا هو ديننا الحنيف، فإذا أضفنا إلى ذلك نقطة أخرى وهي أن الرجل عندما تمتنع عليه زوجته فإنه يمكنه أن يشكوها لأهلها.. أو يطلقها أو

يتزوج عليها لأصبح من حقي أن أتساءل ماذا تفعل المرأة إذا وجدت نفسها في نفس الموقف؟

هل رأيت أو سمعت عن امرأة شكت لأبيها أو أخيها من أن زوجها يمتنع عليها؟

وهل يليق بالمرأة المحترمة أن تشكو زوجها في هذه النقطة بالذات؟

وهل يمكنها أن تطلقه بغير أن تعرض نفسها لهتك أسرار حياتها الخاصة؟

إنني أبدأ في الرد على صاحب الرسالة بأن أحكي له عن نفس الحالة التي يعاني منها هو وأعاني منها أنا الآن وهي حالة الغربة وافتقاد الرفيق الذي يعيش ويتحرك ويتنفس بالقرب مني فأنا زوجة تخطيت الأربعين منذ سنوات قليلة وقد تزوجت منذ ربع قرن وكنت وزوجي زوجين صديقين حميمين وعاشقين.. ورزقنا الله البنين والبنات وعشنا في سعادة لأكثر من عشرين عاما حتى صار حبنا مضرب الأمثال في أسرتينا.. وكان زوجي يتيه بي فخرا، وكنت أكن له من الحب والاحترام والمودة ما يعجز قلمي ولساني عن وصفه. ومنذ أول يوم من خطبتنا اسمعني أحلى الكلام وعندما ضمنا عش الزوجية كانت له لمسات ولفتات لا تصورها ألف قصة وقصة.

فقد تعود أن يوقظني في الصباح الباكر بلمسة حلوة من يديه يداعب بها أذني ووجهي، فإذا رفضت الاستيقاظ لأننى كنت ساهرة طوال الليل بطفلي الرضيع مثلا وعاتبته في ذلك قال لي: أعمل إيه بتوحشينى.. لا أستطيع أن أصحو من نومي ولا أجدك بقربي في البيت. لذلك فمهما كنت متعبة وفي مسيس الحاجة للنوم كنت أستيقظ باسمة سعيدة.. وكيف أرفض أن أستيقظ للحب ولشوق حبيبي إليّ؟.. كان الصباح يبدأ هكذا بالسعادة والانشراح.. ثم نظل نتحدث في أي شيء وكل شيء حتى السابعة والنصف فأذهب للمطبخ لأعد الإفطار ويذهب هو للحمام ليحلق ذقنه فلا يطيق بعدي عنه دقائق،، وأفاجأ به يقبلني وصابون الحلاقة على وجهه فينطبع الصابون على وجهي ونضحك في سعادة ونظل نتبادل المداعبات حتى يخرج إلى عمله وأنصرف أنا إلى واجباتي اليومية.

ثم يعود من عمله مرهقا وأكون مرهقة مثله من ضجيج الأولاد طول النهار فما إن تجمعنا جدران غرفتنا حتى يحكي كل منا للآخر ما صادفه في يومه، ويحدثني ووجهه كله لي وذراعاه في معظم الأحيان تحيطان بي.. ونذهب في غفوة الظهيرة ونحن على هذه الحال ومضت بنا سنوات العمر هكذا.. وما أكثر ما قابلتنا المشاكل.. والأزمات المادية والمتاعب الصحية كأي بشر في الحياة لكنها أبدا أبدا لم تغير شيئا منا.

كنا أحيانا نتخاصم كأي زوجين، لكن كنا لا نبيت الليل أبدا متغاضبين، فقد كان يكفي أن أضع ذراعي حوله أو يفعل هو ونحن نائمان أو نتظاهر بالنوم حتى يلتفت له رفيقه في حنان ويضمه إليه، ويذوب الخصام ويتبخر الغضب كأنه ما كان. هكذا عشنا طوال سنوات حياتنا معا وفجأة منذ حوالي عامين تغير زوجي بشكل لافت للنظر فأصبح يدخل سريره وظهره لي.. وينام وظهره لي.. وفي معظم

الأحيان دون أي كلمة. جف نبع الكلام واللفتات واللمسات الرقيقة وأصبحت تفوته أشياء كثيرة لم يعد يعيرها أي اهتمام كعيد ميلادي أو عيد زواجنا أو أي مناسبة سارة لنا، فلا تهنئة ولا احتفال ولا هدية. وأصبح لا يلتفت لأي فستان جديد أرتديه.. فلا مجاملة.. ولا إطراء ولا أي شيء. ونسي زوجي أو تناسى أن أمامه أنثى تحبه وتحتاج إلى حنانه ولم أعد أنال منه أي التفاتة إلا إذا أراد هو!

أما أنا ورغباتي ومشاعري التي كان يراعيها ويحترمها فقد أصبح يهزأ بها ويسخر منها. وإذا عاتبته لجفائه نفى ذلك وقال لي: إننى أتصور أشياء غير حقيقية ثم يستمر في نفوره وتباعده ومن حين لآخر قد يسمعني كلمة جارحة يدمى لها قلبي وروحي وأبكي وأحزن فلا يعتذر ولا يسأل كما كان يفعل، وأخاصمه فلا يأبه لي ثم أعاتبه عن كل ذلك فيدعي أنه كان يداعبني وأسامحه ويعود الحال كما كان وتمضي أيام قليلة ثم يعود متباعدا وإن طلبت منه شيئا أحتاج له طالبني بالصبر إلى أن تأتيه نقود، وعندما تأتي يبدأ في الصرف في كل اتجاه وينسى تماما ما طلبته منه وأخجل أن أذكره به. أما يومنا الذي وصفته لك في البداية فقد أصبح هكذا: في الصباح الباكر نستيقظ لنصلي كل منا وحده طبعا وبعد أن كانت غرفة نومنا لنا نحن الاثنين فقط عندما كنا زوجين عاشقين أشرك الآن في غرفتنا بل في فراشنا ألف عين وعين الراديو والتليفزيون وعشرات الكتب والمجلات والجرائد.. يفتح الراديو فيعطيه أذنه ويفتح الشباك ويعطيه عينه.. ويعطيني أنا ظهره!. ماذا في الشارع سوى آثار المطر فماذا يشد انتباهه إليه ولم يمش أحد بعد فيه ونحن مازلنا في السادسة صباحا.. أرقبه وهو جالس متغافل عني مشغول بالنظر عبر النافذة إلى لا شيء، وأكاد أنفجر من الغيظ وأكاد أصرخ فيه وأهبشه بأظافري ليتنبه لي ويحس بوجودي بجواره. ثم نفطر وهو صامت وأنا صامتة مثله ويذهب لعمله ويعود في الظهر حاملا كل جرائد ومجلات الدنيا ليفردها على السرير ويقرأ هذه ويتصفح تلك ثم يتثاءب ويعطيني ظهره وينام، ويصحو بعد الظهر على التليفزيون يجلس صامتا أمامه مستغرقا في متابعته من أخبار السادسة للتمثيلية لفيلم السهرة.. وينسى أو يتناسى أن بجواره امرأة مهملة، في قلبها آهة بل ألف آهة وآهة.. أما في بيته فلم أعد سيدة وربة بيت بل خادمة نعم خادمة تعمل بلقمتها، فلا حب ولا اهتمام ولا رعاية ولا هدايا في المناسبات ولا دعوة للخروج معه ولا أي شيء والدنيا كما تعلم أخذ وعطاء وكلمة «أخذ» تأتي قبل كلمة العطاء.. فإذا كنت لا أخذ إلا إهمالا وجفاء فما هو المطلوب أو المفروض أن أعطيه؟.. أيام وليال كثيرة قضيتها ساهرة ودموعي تؤنسني.. وكم من مرة بكيت فيها وقلت له إنني أشتاق إليه وإني أحن لحنانه ومداعباته وكلماته الرقيقة وخاصة في هذه الفترة من عمري فترة سن اليأس لأن تغيره بدأ معها. ومع أننا توقفنا بإرادتنا عن الإنجاب منذ أكثر من 10 سنوات إلا أنه يعايرني بأني أصبحت عاقراً.. أضناني السهر وأتعبني انتظار ما لا يجيء، آثرت أن أنام في حجرة أخرى ولو لبعض الوقت إذ ما الداعي لمشاركته الفراش وهو لا يعطيني من روحه وحبه واهتمامه.. وتوقعت أن ينزعج لابتعادي عنه فلم يهتم ولم يسأل وكأنها استراح إلى ذلك. فتوقفت عن سؤاله عن سبب تغيره بعد أن نهرني أكثر من مرة أو سخر مني مدعياً أنني مازلت مراهقة، وأطارده بعواطفي! لا يا سيدي لست أنا التي

تطاردك بعواطفها فلتبق في أعمق أعماقي واهنا أنت بالهدوء مع جرائدك وكتبك وصوت مذياعك الذي يقطر ملالة وسأماً، ولكن عندما يأتيك الخريف الذي زارني مبكرا عنك.. عندما تحال للمعاش سوف تبحث أنت أيضا عمن تملأ فراغ حياتك وتؤنس وحدة فراشك تماما كما فعل هذا الذي أرسل لبريد الجمعة ليشكو امرأته له.

إننى أقول لزوجي ولكل زوج: يا سيدي الرجل.. هذه صرخة كل امرأة هذه رسالة لكل الأزواج.. أنت الذي تبدأ.. أنت الذي تزرع.. ولن تجني سوى ما تزرعه.. إزرع حبا تجن حبا وحنانا وسعادة في ضعفك وشيخوختك.. أهمل اقس تجافى ولن تنال في النهاية سوى هذا.

يا أيها الرجل ليست هناك امرأة ترضى بأن تكون مهجورة لأن المرأة التي تعودت أن تتلقى الحب والحنان والأمومة والرقة، لا ترضى أبدا أن تهجر حبها بعد كل هذا العمر.. فإن فعلت ذلك فإنها تفعله تحت ضغط الهوان الذي تشعر به من إهمال زوجها لها وفتوره ونفوره منها وفى هذه الحالة تختار المرأة أن تهجر هي بإرادتها لأن في ذلك بعض العزاء لكرامتها وأنوثتها.. نعم أنوثتها حتى ولو كانت في خريف العمر فابحث أيها الرجل تحت الرماد لعلك تجد الجذوة ما زالت مشتعلة، وتستطيع أن توقظها مرة أخرى قبل أن تخمد للأبد.. ابدأ فاهتم بزوجتك داعبها بكلمة حلوة.. اطبع على خدها قبلة مبللة بصابون الحلاقة.. تضاحك معها.. أهدها هدية جميلة كقطعة ملابس بلونها المفضل أو زجاجة عطر.. أو حتى كلمة حب فقط.. قلها لها أيها الرجل قبل فوات الأوان. وحتى لا تكون يوما «غائبا» في وجدان زوجتك اعمل من الآن على أن تكون «الحاضر» دائما في أحاديثها وفي «قلبها وعقلها».

هذه هي الرسالة.. وتعليقي عليها هو أننا نحتاج لأن نفهم طبيعة كل مرحلة من مراحل العمر لكي نتواءم معها، ولا شك أن قراءة الرسالة تكشف أنه ليست هناك مشكلة حقيقية تواجه الزوجين، سوى جهل الزوج بطبيعة المرأة في مرحلة السن الحرجة التي تحتاج فيها إلى زيادة التعاطف معها وإشعارها أكثر من أي وقت مضى في عمرها بأنها مازالت فتاة القلب، كما أن الزوجة أيضا تجهل وبنفس الدرجة أن الرجل في نفس المرحلة يحتاج لمن يهتم به بنفس القدر ولمن يصبر عليه ويتجاوز عن بعض لمحات الفتور التي قد تغلب عليه، إلى أن يستعيد نفسه ويعبر هذه المرحلة كذلك ينبغي أن تدرك المرأة أن لكل سن جمالها .. ولكل مرحلة من العمر ما يتناسب معها من طرق التعبير عن المشاعر.. وليس من العدل أن تطالب الزوجة زوجها بأن يظل متأججا بالحب في كل لحظة وكل دقيقة مهما كانت مشاغله ومتاعب حياته ووساوس أفكاره التي تراوده في هذه السن بكثرة وتشعره ببعض الأسى على انقضاء العمر واختفاء رفاق الحياة واحدا وراء الآخر.

إنها أزمة فهم.. وليست أزمة حب، وأزمة رفض للمرونة والمواءمة مع تغيرات العمر لأن الزوجة تجمدت عند مرحلة واحدة من العمر كان الحب خلالها يعبر عن نفسه باللمسات والمداعبات والقبلات المختلطة بصابون الحلاقة.. ومازالت

ترفض وتقاوم أن تنتقل إلى المرحلة الأخرى التي يصبح فيها مجرد تواجد الرفيقين في «الجوار» وبالقرب من الآخر يشيع الاطمئنان في النفس ويغذي الروح والقلب ويشعرهما بالإيناس والأمان. إن ذلك لا ينفي أبدا ضرورة الاهتمام باللفتات الصغيرة التي تشعر الطرف الآخر بأنه «مركز الدائرة» وأول قائمة اهتماماته وقطب الرحى الذي تدور به حياة شريكه. والزوج مطالب في ذلك بإشعار زوجته بكل اللفتات الممكنة أنه مازال على الحب مقيما. والزوجة مطالبة بعدم المغالاة في مطالبها إلى حد استشعار الغيرة من الراديو والتليفزيون والمجلات ونافذة الصباح لأن المغالاة في الطلب تثير الأسى في نفس الطالب حين يتلقى غالبا أقل مما يطلب.. وتثير الضجر في نفس المطلوب منه حين لا يجد نفسه قادرا على تلبية كل المطالب. وبالفهم والصبر والإرادة والرغبة الدائمة في تجديد الحياة.. تحل المشاكل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لحظات انكسـار!

يؤلمني انكسار الإنسان وإحساسه المرير بالهوان الذي يدهمه فجأة في بعض مواقف الحياة، فيرى نفسه فيها وحيداً.. عاجزاً.. قليل الشأن.. ولأن الإنسان هو أكرم الكائنات على ربه.: وقد نفخ فيه الله سبحانه وتعالى من روحه واستخلفه في أرضه، فلقد أراد له أن يعيش معززا مكرماً شاعراً بكرامته الإنسانية مهما كان حظه من الثراء أو الأهمية أو الوجاهة الاجتماعية، لأنه قد استحق هذه «الكرامة» بالميلاد كإنسان، وليس فقط با يحققه في حياته من نجاح أو ثراء أو سمعة طيبة.. وعوارض الدنيا إنها تزيد أو تنقص من جدارة الإنسان بالتكريم.. ويبقى له دائماً حد أدنى من الكرامة الإنسانية يستحقه، وينبغي أن يتوفر له في كل الظروف.. لأنه أولاً وأخيراً إنسان!

لكن بعض مواقف الحياة قد تسلب الإنسان هذا الإحساس الثمين بالكرامة والجدارة وتسلمه لإحساس مؤلم بالهوان والعجز وضآلة الشأن.

وهذه لحظات انكسار إنسانية توقفت أمامها متأملاً ورثيت لأصحابها على البعد، ولا أعرف لماذا أريد أن أحدثك عنها.. ربما لكي تعفي الآخرين من هذا الإحساس المرير بالهوان إذا أغرتك ظروفك ذات يوم بذلك.. وربما لكي تحس بقسوتها على الآخرين، وتتعاطف معهم كما تعاطفت فتؤمن معي ومع الأديب السويسري العظيم دورينات أنه «يمكن حقا إنقاذ الإنسان من مخالب الإنسان».. لو أتيح له فقط أن يعايش لحظات آلام الآخرين، ويتمثل معاناتهم.. فيزداد رغبة في أن يخفف عن الآخرين بعض آلامهم.

ولقد «جمعت» هذه اللحظات من قراءاتي لبعض الأعمال الأدبية و«مشاهداتي» لما يجري من أمور الحياة الواقعية.. فوجدتها شيئا آخر غير لحظات القهر المؤلم الذي يكابده الإنسان في مواجهته لسلطة عاتية أقوى منه.. لأنها لحظات انكسار إنسان أمام إنسان آخر مثله تداخلت ظروف مختلفة فأشعرته بالعجز والمهانة في مواجهته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في قصة أمريكية حديثة

كان «فيتوريو» يحلم بأن يعمل ممثلاً مسرحياً فترك بلدته الصغيرة وسافر مع زوجته الشابة إلى المدينة يبحث عن مستقبله فيها وأقام في غرفة مفروشة وبحث عن فرصة عمل بأحد مسارح المدينة فلم يجد، واضطر للعمل كجارسون في مطعم، وواظب على تلقى دروس التمثيل والتردد على مكاتب الوكلاء الفنيين باحثاً عن دور صغير في أية مسرحية، وزوجته تشاركه حياته الجافة بدخله القليل.. وتنتظر بصبر أن يحقق نجاحه لكي يوفر لها حياة لائقة بها لكن الفشل يلازمه.. والسنوات تمر بلا أدنى بارقة أمل في النجاح والأمان.

وتضيق الزوجة الشابة بحياتها الجافة الخالية من كل مباهج الدنيا وتطالب زوجها بالاعتراف بفشله والعودة معها إلى بلدتها الصغيرة ليعمل في وظيفته السابقة ويوفر لها الحد الأدنى المقبول من الحياة.. والزوج لا يريد أن يتنازل عن أحلامه.. ويأمل أن ينجح حبهما في الصمود لصعوبات الطريق.. ثم يعود ذات مساء بارد إلى غرفته فلا يجد زوجته فيها ولا يجد ملابسها.. وإنا يجد رسالة منها تبلغه فيها أنها لا تستطيع أن تتحمل المزيد وأنها قد عادت إلى بلدتها وتنتظر منه أن يبدأ إجراءات الطلاق.. وينهار الزوج باكياً وهو يمسك برسالتها وتسود الدنيا أمام عينيه.. لكنه رغم ذلك يعفي زوجته من اللوم ويسلم لها بأنها قد تحملت معه الحرمان طويلاً ويوافق على طلاقها متألما وشاعراً بالعجز والهوان، ويواصل الحياة في المدينة والسعي وراء هدفه الذي لا يحيد عنه، وتتجهم الدنيا في وجهه أكثر فأكثر بعد هجر زوجته له وكلما لاح له أمل قريب في أن يبدأ خطوته الأولى على الطريق يتبدد الأمل فجأة قبل أن يتحقق.. ومع ذلك فهو لا ييأس ولا يستسلم، وبعد ثلاث سنوات من هجر زوجته له كان في المطعم يؤدي عمله، وهمَّ بالخروج من المطبخ حاملاً أطباق الطعام إلى أحد الزبائن فلمح على إحدى الموائد زوجته السابقة تجلس مع رجل متوسط العمر وهي ترتدي فستاناً جميلا.. وتضع جاكيت الفرو الثمين بجوارها على المقعد الخالي، فتسمرت قدماه أمام المشهد.. وأحس بضربات قلبه تتسارع وقطرات العرق تنز من جبهته.. ولمحه زميل له وسأله عما به فأشار إلى ناحية المائدة وقال له: إنها زوجته السابقة التي طالما أحبها لكنها لم تحتمل جفاف الحياة معه وهجرته، ويبدو أنها قد نعمت الآن بالحياة المريحة التي أرادتها مع هذا الزوج الجديد. ونظر اليه زميله بإشفاق وعرض عليه أن يعفيه من خدمة مائدة زوجته السابقة التي تقع في المربع المخصص له، وأن يقوم بدلاً منه بخدمتها.. وتردد الزوج السابق لحظات ثم استجمع إرادته واعتذر لزميله شاكراً وقائلاً له إنه يفضل أن يواجه الموقف المحرج بدلاً من الهروب منه، ثم سحب فوطته ووضعها على ذراعه الأيسر كما يفعل الجارسونات وتقدم من المائدة في خجل وبادر من يجلسان إليها بالتحية المعتادة: مساء الخير يا سيدي مساء الخير يا سيدتي.. ماذا تطلبان؟

لحظة الانكسار التي أحسستها في موقف هذا الزوج السابق ليست فقط لحظة المواجهة المحرجة.. لكنها أيضا اللحظة التي أمسك فيها برسالة زوجته الهاجرة وراح يقرأها وسحب الحزن والألم تتكثف داخله بلا رحمة.. وهي أيضاً اللحظة التي راح يرقب فيها زوجته السابقة وهي تجلس إلى المائدة مع رجل آخر حقق لها ما عجز هو عن أن يحققه لها من الأمان والحياة المقبولة والمظهر الكريم، فراح يغالب إحساسه المؤلم بالعجز والخجل وضآلة الشأن.. قبل أن يقرر مواجهة الموقف بواقعية بدلاً من الهروب منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هو شاب

كتب لي يروي قصة حياته وكفاحه النبيل في الحياة لكي يتعلم وسط صعوبات حياته العديدة التي اضطرته لكي يؤمن لنفسه لقمة العيش أن يشتغل في بعض فترات حياته وهو طالب بالمدرسة الثانوية كبائع سمك جوال يتجول في الشوارع في الصباح الباكر منادياً على بضاعته الرخيصة السمك ويبيعها لربات البيوت فيحقق ربحاً صغيراً ويعود إلى بيته فيحمل كتبه ويتوجه للمدرسة، وظل على هذا الحال حتى نجح بتفوق في الثانوية العامة والتحق بكلية الطب واكتشف أن ربحه الزهيد من بيع السمك لا يكفي لمتطلبات الدراسة الباهظة فعمل موزعاً لأنابيب البوتاجاز لدى صاحب توكيل أشفق على ظروفه فاستخدمه واستأمنه على عدد من الأنابيب يطوف بها الشوارع كل ضباح ويصعد إلى الشقق ويحصل على رزقه البسيط فيخلع الأوفرول الأزرق الذي يرتديه فوق ملابسه ويتوجه إلى الكلية.. وفى الكلية تلحظ عليه طالبة زميلة له أنه مجهد دائما ومهموم بهموم غامضة فتقترب منه وتعجب بشخصيته الجادة الأمينة وبتفوقه الدراسي رغم ما يبدو عليه من تقشف واضح في حياته ويتعاونان معاً في الدراسة وتتحدث الفتاة الى أمها عن إعجابها بزميلها الجاد في الكلية.. ثم يجيء يوم يطوف فيه الشاب بأنابيب البوتاجاز بشوارع حي جديد لم يكن يدخله من قبل.. فيسمع نداء ربة بيت من إحدى العمارات ويصعد إليها في الدور الثالث حاملا الأنبوبة الجديدة وهو يرتدي «أوفرول» عمال التوزيع ويحييها بأدب ويدخل المطبخ ويفك الأنبوبة الفارغة ويركب الأنبوبة الجديدة.. ثم يخرج حاملا الأنبوبة الفارغة على كتفه ويستدير ليحاسب ربة البيت عن أجره فيجد وراءها فتاته زميلة الكلية تنظر إليه في دهشة وتلتقي عيناه بعينيها في لحظة قاسية يشعر فيها بخجل مؤلم فيضطرب ويرتبك ويمد يداً مرتعشة ليتقاضى أجره ويهرول نازلاً الدرج وهو لا يشعر بما حوله، فما أن يأمن عيون زميلته وأمها حتى تنفرط من عينيه دمعة ساخنة تلخص كل معاناته في لحظة انكسار مؤلمة لإنسان لا ذنب له في ظروفه القاسية.

أما لحظة الكرامة والانتصار فقد جاءت بعد ذلك بعدة سنوات فقد تمسكت به الفتاة رغم ظروفه في البداية لكن أسرتها رفضت ارتباطها به بعد تخرجه بإصرار لعجز إمكاناته المادية وضعفت مقاومة الفتاة فاستسلمت وتزوجت رجلاً آخر يملك كل إمكانات الزواج وبحث الطبيب الشاب عن مستقبله في مكان آخر غير المدينة القاسية فاستقر به المقام في قرية صغيرة في أقصى الجنوب افتتح لنفسه عيادة صغيرة فيها واتخذ منها عيادة ومسكناً.. عاش حياته راضياً بين أهل القرية حتى فوجيء ذات يوم وبعد 6 سنوات من تخرجه بفتاته السابقة تقف أمامه في العيادة وتسأله هي هذه المرة في «انكسار»: هل ما زلت ترغبني؟ ويعرف أنها قد طلقت من الزوج الثري بعد عامين من الزواج تحملت فيها ما لا تطيقه وبعد مراجعة طويلة لحياتها ومشاعرها بحثت عن حبها الوحيد الذي عرفت من أهله عنوانه الجديد وقررت أن تصحح خطأها القديم وترتبط بمن لم تحب غيره.

ولا تمضي الليلة إلا ويكون الطبيب الشاب قد عقد قرانه عليها وتتحول لحظة الانكسار القديمة إلى لحظة انتصار للحب.. والكرامة الإنسانية.. والشباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المقهى

وفي واقع الحياة الذي كنت شاهداً عليه بالصدفة منذ سنوات سمعت هذا الحوار يجري بين شخصين فهمت من ملامحهما أنهما شقيقان وكنت قد لاحظت خلال تأملي لهما أن الأكبر منهما يرتدي بدلة جيدة من الصوف وقميصاً حريرياً وحذاء لامعاً جديداً ويضع في إصبعه خاتماً ذهبياً في حين يرتدي الأصغر بدلة قديمة وحذاؤه متهالك ويشي مظهره برقة الحال بالقياس إلى شقيقه.. ثم فجأة سمعت الأخ الأكبر يتحدث إلى شقيقه بلهجة لائمة وبصوت قوي.

الأخ الأكبر: قلت لي انتظر حتى بداية العام إلى أن أقبض «الحوافز» السنوية وأسدد لك الدين وها قد قارب شهر يناير على الانتهاء ولم تدفع شيئا فلماذا لم تسدد جزءا على الأقل من الدين ولماذا أخلفت وعدك معي؟

-الأخ الأصغر يجيب بصوت متلعثم مضطرب وخافت وهو حاني الرأس ووجهه يتضرج الاحمرار: كنت سأفعل كما وعدتك.. ولكن ولكن.. ولكن.

-الأخ الأكبر مقاطعاً بنفس اللهجة: ولكن زوجتك طلبت التليفزيون الملون.. فاستجبت لطلبها على الفور ولم تفكر في سداد دين أخيك الذي يصدقك كلما طلبت منه قرضاً ووعدته بالسداد في موعد محدد فتضحي به.. ولا تحرص على الوفاء بوعدك له إرضاء لزوجتك!

-الأخ الأصغر متألماً وبصوت متحشرج: يعلم الله أن الأمر ليس كذلك.. لكنها أحرجتني كما تحرجني كثيراً وتذكرني بأني عاجز عن أن أوفر لها الحياة التي تعيشها أختها وصديقاتها في بيت أزواجهن، وأن طفلنا «وليد» يتساءل لماذا لا يكون لدينا تليفزيون ملون كابن خالته فاحرجت وظننت أن أخي يستطيع الصبر عليّ ثلاثة شهور أخرى حتى أقبض الحوافز ربع السنوية وأسدد له ديني شاكراً له مروءته.

-الأخ الأكبر بصوت غاضب: ولماذا لم تستأذنني في ذلك لتعرف هل أنا مستعد للانتظار أم أن لديَّ ظروفاً لا تسمح به.

- الأخ الأصغر: ظننت.. ظننت.. أنك تستطيع الانتظار.

- الأخ الأكبر بحدة مكتومة: ولماذا ظننت هذا.. هل لأني تاجر ميسور؟. والتجار أليست لهم أيضاً أعباؤهم والتزاماتهم وديونهم؟.

- الأخ الأصغر وقد اشتد احمرار وجهه وبدا واضحاً أنه يعاني من آلام شديدة في معدته وصدره: نعم.. نعم إني آسف لما سببته لك من حرج.. وسوف أعيد الجهاز إلى البائع غداً وأسدد لك دينك شاكراً مروءتك وصبرك عليَّ.

- الأخ الأكبر تلين ملامح وجهه قليلا ثم يغرق في الصمت لحظات أحسّ خلالها أنه يتردد بين ضيقه بأخيه وبين عاطفته الأخوية نحوه....

وأخيرا يحزم أمره فيقول له بصوت أكثر هدوءا: لا تعد الجهاز للبائع وسأنتظر ثلاثة شهور أخرى.. لكن لا تكرر ما فعلت معي مرة أخرى فالنقود ليست مهمة في حد ذاتها وإنا احترامك لوعودك لي هو الأهم.. هيا اشرب شايك ودعنا ننصرف سأوصلك إلى بيتك.

وينصرف الشقيقان من المقهى والأخ الأصغر مازال واجماً كسير النفس محمر الوجه.. والأخ الأكبر يلحظه خفية وملامحه تشي بأن «الحساب» قد انتهى واستيقظت في قلبه من جديد عاطفة الأخوة التي توارت أثناء الحساب ويريد أن يختم اللقاء ختاماً أفضل.. ولكنهيهات أن يخفف شيء عن الأخ الأصغر إحساسه بالذلة والانكسار تجاه شقيقه في هذه اللحظات الثقيلة، وهيهات أن أنسى أنا منظرهما رغم مرور السنين وأنا أتابعهما من خلف زجاج المقهى.. والشقيق الأكبر يركب سيارته في ثقة واطمئنان.. والأخ الأصغر يجلس إلى جواره منكمشاً متضائلا.. مثقلاً بالحرج والألم والإحساس بالعجز والهوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القاهرة بعد منتصف الليل بساعتين ذات مساء بارد منذ (٢٥ عاماً).. أسير أنا وبعض أصدقائي في شارع شريف فيلفت نظرنا وجود سيارة نجدة تقف أمام إحدى العمارات وشرطي ريفي شاب يقف بجوارها ومعه رجل في الأربعين من العمر يبدو من مظهره أنه من أبناء الطبقة المتوسطة وأنه ربما يكون مهندساً أو طبيباً أو مديراً عاماً بإحدى المصالح الحكومية.. والرجل يتحدث مع الشرطي الشاب وهو يبكي ويقول له: في بيتي؟.. وفي فراشي؟ ... ويرتدي بيجامتي؟.. وأبنائي على بعد خطوات في غرفتهم المجاورة.. لماذا أستحق هذا يا ربى؟.. ولماذا عدت من سفري فجأة الليلة؟. لماذا يا ربي؟.. ثم ينفجر في البكاء المؤلم ويضع رأسه على سقف السيارة كأنها يعجز عن حملها فوق رقبته وتخدش الكلمات أسماعنا فنتبادل النظرات المعبرة فيما بيننا ونفهم الموقف دون أن نسأل عن تفاصيله، وندرك أن ضابط الشرطة ومساعديه قد صعدوا إلى إحدى شقق هذه العمارة التي جرت فيها الواقعة لضبط طرفيها بعد أن أغلق عليها هذا الزوج العائد فجأة الباب من الخارج وهرول باكياً إلى طلب شرطة النجدة، بينما وقف الزوج مع الشرطي سائق سيارة النجدة ربما امتثالاً لأمر الضابط.. فراح يبثه وجيعته بلا حرج، متنازلا عن كل الاعتبارات والفوارق الاجتماعية وفوارق السن التي تفصل بينهما.. والجندي الريفي الشاب يسمع اليه في صمت وهو يمصمص شفتيه رثاء له وعطفاً.

ولسنوات طويلة ينحفر هذا المشهد المؤلم في مخيلتي فأكاد أسمع صوت الرجل العائد الى بيته فجأة ليجد في انتظاره هذه الكارثة يرن في أذني وهو يرثي نفسه وعجزه وإحساسه المر بالهوان بكلماته المتلعثمة المتقطعة لذلك الجندي الشاب الذي ربما لم يكن ليقربه منه ذات يوم أو يبوح له بشيء من خصوصيات حياته.. لو لم يكن في لحظة الانكسار المريرة هذه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في رائعة نجيب محفوظ الثلاثية

وفي جزئها الأوسط قصر الشوق استغرق الطالب الشاب كمال عبد الجواد في حب عايدة شقيقة صديقه حسين شداد حباً عذرياً عفاً صامتاً ملك عليه كل حواسه حتى رفع فتاته في مخيلته إلى مصاف الملائكة الذين لا يعرفون صغائر البشر، فتزلزل كيانه حين أفسد صديق له اسمه حسن علاقته البريئة بها بوشاية كاذبة.. فاختفت الفتاة من مجلس أصدقاء شقيقها وكابد كمال العذاب ألواناً.. وترصدها ذات يوم عند خروجها من فيلا أسرتها وحدثها بأمره مدافعاً نفسه يائساً من أي أمل في منافسة صديقه حسن ابن المستشار في الفوز بقلب الفتاة التي تتطلع للزواج منه، فيعرف منها أنها قد علمت ببراءته منذ فترة، ومع ذلك لم تكلف نفسها عناء إعلان العفو عنه، ويتأكد له ما كان يشك فيه وهي أنها إنما حرمته صداقتها امتثالاً لرغبة صديقه حسن فيختنق صدره بالإحساس بعجزه وهوانه عليها وهزيمته في المقارنة بينه وبين حسن من كل الوجوه حتى في الشكل.. فقد عرضت ذات مرة باسمة برأسه الضخم وأنفه الكبير فغرست في قلبه خنجراً دامياً بغير أن تشعر واسترجع كل ذلك في لقائه الأخير معها وهو يرجوها ذليلاً منكسراً أن تسمح له فقط بأن يحبها دون أن يطالبها بأى مقابل من جانبها لهذا الحب ويقول لها متألماً:

-لا تذكريني بما لا أحب سماعه فإني في غنى عن ذلك.. لن أنسى رأسي لأني أحمله ليل نهار ولا أنفي فأني أراه مرات كل يوم لكن عندي شيئا لا نظير له عند الآخرين. حبي لا نظير له.. إني فخور به ويجب أن تكوني فخورة به أيضاً ولو زهدت فيه!

ولا تمضي أيام على هذا الاستجداء المؤلم حتى يعلن له صديقه حسين خطبة عايدة الى حسن ويشعر بالنار تلسع أحشاءه.. فيجد نفسه أمام هذا الخبر «كما يجد إنسان نفسه تحت الترام وخفق قلبه خفقة قاسية كسقطة طيارة منطلقة في فراغ هوائي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما أكثر لحظات الانكسار في حياة الإنسان.. وما أكثر مراراتها ولعلي - إذا أذنت لي بذلك - أحدثك ذات يوم عن نماذج أخرى منها!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مجمـع الأحـزان!

تعددت الأسباب والهم واحد. قلتها لنفسي وأنا أتأمل وجوه ضيوفي الذين اجتمعوا بالصدفة ذلك المساء في مكتبي. فلقد كان مساء حافلاً بالعمل منذ بدايته، وفي نهايته بدأ الزوار يتوافدون، بعضهم بموعد سابق، وبعضهم على غير انتظار. وعندما بدأ توافدهم كان يغادر مكتبي «أكثم» ذلك الشاب الذي امتحنته الأقدار بفقد أبويه وزوجته وطفلته في كارثة انهيار عمارة الموت بمصر الجديدة خلال الزلزال، والذي أمضى ثلاثة أيام في قبر مظلم تحت الأنقاض إلى أن تم إنقاذه فلم يبق له في الحياة سوى شقيقته الصيدلانية التي نجت أيضاً من نفس الانهيار.

وتلاقى القادمون مع المغادرين فتصافحوا وتعارفوا، ثم خرج أكثم وشقيقته، واستقر الوافدون في مقاعدهم ... مدير بإحدى شركات الطيران العربية بالقاهرة مع أحد أقاربه.. كاتب ومترجم له مؤلفات ومترجمات عديدة.. فنان كوميدي كبير ومعروف جاء يدعوني لمشاهدة مسرحيته الجديدة.. رجل أعمال ناجح يملك شركة سياحية في سن الشباب وإلى جواره شقيقه وشريكه الأكثر شباباً.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أستقبل فيها مدير شركة الطيران فلقد زارني قبل ذلك بأسبوعين، وكان مكتبي مزدحماً يومها بالزوار فانتحيت به جانباً، وأصخت السمع له، فإذا به يروي لي في دقائق مأساة تحتاج إلى دهر لكي يبرأ من جراحها، فهو أب لفتاتين كبراهما في السابعة عشرة من عمرها وصغراهما في الخامسة عشرة، وزوج سعيد في حياته وناجح في عمله، ومحبوب من زملائه وأصدقائه، ثم اشتكت الإبنة الصغرى من بعض الألم في جنبها الأيمن فعرضها على الأطباء وانتهى رأي كبيرهم إلى ضرورة إجراء جراحة عاجلة لها لاستئصال الزائدة الدودية، وتم تحديد الموعد، وحجز المستشفى الخاص المجهز بأحدث التجهيزات الطبية، وذهب الأب والأم والإبنتان إليه متفائلين ولم لا.. والمسألة لا تعدو زيارة أو رحلة كالرحلات العائلية التي تجمع بين أفراد الأسرة المتحابة من حين إلى آخر والجراحة بسيطة والجراح شهير والمستشفى على أحدث طراز، ودخلت الإبنة الصغرى غرفة العمليات باسمة تلوح لأبيها وأمها وشقيقتها الوحيدة وأغلقت غرفة العمليات وأضيء الضوء الأحمر على بابها وبعد نصف ساعة خرج الجراح ومساعدوه مهنئين بنجاح العملية البسيطة.. ثم خرج الممرضون يدفعون سرير المريضة التي مازالت تحت تأثير البنج إلى غرفتها الأنيقة، المزينة بالورود. وجلس الأب والأم والإبنة حول فراشها يتبادلون الأحاديث في انتظار أن تفيق الإبنة الجميلة من تأثير البنج، لكن الوقت يمضي وهي لا تفيق.. بل يزرق لونها وتنسحب من وجهها دماء الحياة وتفزع الأسرة ويفزع الجميع ويهرولون لنقلها إلى العناية المركزة.. وتعلن حالة الطوارىء في المستشفى ويهرول الأطباء من كل أنحائه إلى غرفة العناية. فلا تمضي دقائق حتى تلفظ الإبنة الجميلة آخر أنفاسها وتتحول الرحلة القصيرة إلى رحلة أبدية لا عودة منها.. وتفجع الأسرة الصغيرة في ابنتها الوادعة.. وتهتز أركانها من الجذور!

استمعت لقصته ذاهلا.. وأحسست وهج النار في رأسي وتحسست أذني أتلمس احمرارهما بتأثير ارتفاع ضغط الدم العصبي الذي أعاني منه وحذرني الأطباء من المجهود الانفعالي بسببه ثم مددت يدي بتلقائية إلى كوب الماء وابتلعت حبة مهدئة وبدأت مواساة الأب بالكلمات التي لا أملك سواها في مثل هذا الموقف المؤلم، وسألته عما أستطيع أن أفعل من أجله، فقدم لي رسالة يريد أن ينشرها في بريد الأهرام يرثي فيها ابنته الحبيبة ويمتثل لقضاء الله وقدره، ويطالب الجهات المختصة ببحث أسباب وفاتها.. وقرأت الرسالة فازداد صداعي، ووعدته بنشرها على الفور وعدت لمواساته بكل ما أملك من مفردات قاموس المواساة والتهوين، وودعته حتى باب مكتبي داعياً له بالصبر والإيمان.. وعدت لضيوفي الذين لم يسمعوا ما دار بيني وبينه وقد اعتل مزاجي واكتأب روحي.

ونشرت الرسالة وأحدثت أثراً مؤلماً بين القراء ورد عليها نقيب الأطباء طالباً بيانات القصة كلها للتحقيق فيها، وشارك قراء كثيرون في كتابة رسائل المشاركة والعزاء للأب الحزين.

ثم جاءني ذلك المساء شاكراً ومودعاً قبل أن يقوم مع زوجته وابنته التي أصبحت وحيدة بأداء العمرة ليقضوا يوم ذكرى الأربعين للإبنة الفقيدة في رحاب الكعبة، وعند الروضة الشريفة بين قبر الرسول الكريم ومنبره. ودهشت حين دخل مكتبي ومعه أحد أقاربه وصديقي الكاتب المترجم الذي لم أكن أعرف أن له به صلة وعرفت من صديقي الأديب أنه تعرف عليه بعد المأساة حين قرأ نعيه لابنته في بريد الأهرام فكتب له رسالة مواساة مؤثرة كدأبه مع كل مكلوم منذ عامين حين فقد هو نفسه ابنته الشابة الوحيدة، وأحاطته قلوب الأصدقاء والمعارف وأشخاص لا يعرفهم، وانهالت عليه رسائل وبرقيات عزائهم له من كل صوب، فعرف كما قال لي وقتها قيمة الكلمة الطيبة التي يتبرع بها إنسان لمواساة إنسان آخر لا يعرفه، وعاهد نفسه أن يواسي كل حزين على غير معرفة منذ ذلك الحين.

وتحدثنا قليلاً عن تطورات قصة ابنته الراحلة وما أثارته من اهتمام لدى الدوائر المختصة ثم شكا لي الأب من أن حزنه على ابنته يتنامى في أعماقه مع مرور الوقت ويفسد عليه حياته.. على عكس ما كان يتصور من أنه سوف يهدأ بعد حين.. وطمأنته إلى أن لهيب الحزن لابد أن يهدأ بزحف الأيام، وطالبته بالصبر والإيمان إلى أن يلعب الزمن دوره الخالد في ترطيب الجراح.. وطالبته قبل كل شيء بأن يسلم معي بأن إرادة الله فوق كل إرادة.. وأن ابنته الغالية إنها رحلت إلى جوار ربها أولاً وأخيراً، لأن موعد رحيلها المكتوب في اللوح المسطور من قبل أن تولد قد آذن بالحلول، وصدق الله العظيم إذ يقول: «إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ».. أما الأسباب.. فليست سوى أسباب تبرر إصابة الأقدار وانتهاء الآجال، وتذكرت خلال حديثي إليه بيت شعر غريب لا أذكر من قائله ولا أين قرأته يقول:

والناس ينحون على الطبيب

وإنها غلط الطبيب إصابة الأقدار

ورويت له بيت الشعر هذا الذي يصور بصدق مأساته بكلمات قليلة، وهي أن هناك خطأ ما قد أدى إلى وفاة ابنته الغالية.. لكن هذا الخطأ نفسه هو «إصابة الأقدار» التي تترجم حلول الأجل.. وإلا فلماذا يدخل الآلاف كل يوم حجرة العمليات وتجرى لهم جراحات بسيطة أو خطيرة ويعودون للحياة من جديد، فإذا كان ثمة خطأ، فلابد من عقاب المسؤولين عنه.. لكن ذلك لم يكن ليغير من القدر شيئاً، ولابد أن نسلم بإرادة الله وقضائه وقدره.. خيره وشره، وشاركني صديقي الأديب في المواساة فروى قصته المحزنة من جديد مع ابنته وكيف خمد أوار حزنه عليها شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت أحزانه عليها لا تعوقه عن الحركة ولا تحول بينه وبين الاستمتاع بالحياة.. وتدخل رجل الأعمال مشاركاً في المهمة النبيلة فإذا به يروي للأب الحزين أن ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً مريض بالسكر، وتعاني الأسرة كلها معه الكثير حين تهاجمه نوبة برد فيستسلم للرقاد بسبب ضعف مقاومته لكل الأمراض أو حين يضيق بحقنة الأنسولين في الصباح، أو بقيود الطعام التي تفرض عليه الحرمان من معظم ما تهفو إليه نفوس الصغار من ألوان الحلوى الشهية، أو حين يسأل أبويه باحتجاج مؤلم للنفس: لماذا قدر لى أن أعيش مع هذه القيود وهذا الحرمان طوال العمر وحدي؟.. فيحاران ولا يعرفان كيف يخففان عنه أو يساعداه على تقبل أقداره لكن الأسرة رغم كل ذلك راضية بما اختارته لها الأقدار.. وتلتمس أسباب العزاء في أشياء كثيرة أخرى في حياتها، وتسلم بما أراده لها الله.. وتبتهج بما أسبغه عليها من نعم أخرى، وتوقف رجل الأعمال الناجح عن حديثه قليلا ثم أشار إلى شقيقه الجالس إلى جواره قائلاً: وهذا شقيقي الأصغر لقد عرف هو أيضا مرارة الثكل لابنه الطفل ذي الأربع سنوات في حادث مؤلم منذ فترة قصيرة، لكنه لا يحب أن يتحدث عن ذلك.. وقد توافق مع أقداره وتقبل ظروفه ووجد عزاءه في العمل.. وفى الأسباب الأخرى التي تزخر بها حياته، وانتبهت مشاعري بشدة لما قال وتأملت الشقيق الشاب الذي قدرت عمره حين استقبلته بأنه لا يزيد عن ثلاثين عاماً ولاحظت مسحة الأسى الخفيفة في وجهه فتصورتها من كدر العمل، ووجدته يغض البصر حانياً رأسه ليتجنب نظرات الإشفاق التي تركزت عليه وقدرت مشاعره، وأردت أن أصرف الاهتمام عنه فحولت مجرى الحديث إلى ناحية أخرى وقلت: ولماذا نذهب بعيدا.. لقد دخلتم مكتبي على غير موعد فوجدتم عندي الشاب الذي عاش ثلاثة أيام تحت أنقاض عمارة الموت في مصر الجديدة وفقد أمه وزوجته وطفلته تحت بصره وسمعه، خلال فترة القبر القاسية التي عاشها، وفقد أباه في نفس حادث الانهيار ولكن بعيداً عن بصره، ولم يبق له من الدنيا سوى شقيقته الصيدلانية «الشابة» وقد صافحتموهما جميعاً عند دخولكم وخاصة أكثم فهو مأساة تتحرك على الأقدام بكل المعايير.. ومع ذلك فلقد بدأ يتوافقان مع ظروفها.. وتقبلا منذ البداية ما جرت به المقادير ويتقدم كل منها بخطوات حثيثة في طريق الشفاء النفسي من المحنة المرعبة التي عاشاها، ولا سبيل أمامها سوى ذلك.. إذ هذا أو الجنون والاكتئاب المزمن والاختلال النفسي والعقلي، وهذا ما ينبغي أن يفعله كل إنسان مهما كان نصيبه من الأحزان.. لأنه لا مفر من «الاستمرار» في الحياة وتقبل كل ما تقذفنا به أمواجها.. والتكيف معها لأن «التوقف» أمام الأحزان بغير أي محاولة للتجلد

أمامها، والتخفف منها لن يورثنا إلا الجنون أو المرض، أو العجز النفسي والصحي عن احتمال الحياة واستكمال المشوار.. والشاعر الأمريكي يقول:

استمر.. استمر

واصل الطريق سواء أكان مفروشاً بالورود أو الأشواك

استمر فسوف تجد حلا لكل الصعاب

لكنك لن تجده إذا توقفت!

إذن فلابد من الحركة.. ولابد من الاستمرار والتشاغل عن الأحزان.. و «الحل» الوحيد الذي «يجده» الإنسان مع تصاريف القدر هو الرضا بها والامتثال لها وإعانة النفس على احتمالها.. وتخفيف لهيبها عليه، بالثقة بالله والنفس، ومحاولة نسيان التجارب المؤلمة والمشاركة في مباراة الحياة لكي تشغله عن أحزانه، وتحدثت طويلاً في هذا الاتجاه والتقت عيناي فجأة بعيني صديقي الفنان الكوميدي الذي يتابعني باهتمام، فتنبهت فجأة إلى أنه هو نفسه خير مثال على تقبل الأقدار والرضا بها، فأشرت إليه قائلاً: وهذا صديقي الضاحك دائماً الذي يضحك الثكالى كل ليلة في مسرحه، هل خلت حياته هو أيضاً من الأحزان؟ إن قصة حياته كلها رحلة من الآلام والشدائد فلقد واجه أقسى الظروف الاجتماعية ليتعلم ويصنع نجاحه واسمه، وشاركته رفيقة حياته الصابرة المخلصة رحلة الكفاح وتحملت كل تبعاتها، فما إن بدأ يقطف أولى ثار النجاح والشهرة.. حتى سقط مريضاً شبه عاجز عن الحركة، وعانى آلام المرض والخوف على أسرته وأولاده مما يحمله لها المستقبل المجهول إلى أن استطاع أن يجري جراحة خطرة لتغيير بعض شرايين قلبه، وسهرت على خدمته في فراش مرضه زوجته المخلصة، فما أن أذن الله له بالشفاء والحركة حتى سقطت زوجته، ورحلت عنه وهي صحيحة الجسم لم تشك ذات يوم مرضاً، وواجه الحياة مع أبنائه وحيداً عليلاً.. وأشرف على تربية أولاده وتحمل مسؤولية زواج ابنتيه وهو أرمل، وهو لا يعرف عن شؤون الفتيات والزواج شيئاً. ولم يتوقف يوماً عن العمل والكفاح وإضحاك الآخرين، والتقط الصديق الفنان خيط الحديث مني وواصله وروى قصصاً مؤلمة كثيرة عن معاناته الأولى مع مرضه وتربية أبنائه وحيداً، وانتهى وانتهينا جميعا إلى أنه لا تخلو حياة إنسان من أحزان، وأن المهم دائماً هو أن نعرف كيف نتعامل مع أحزاننا وكيف نصبر عليها ونستعين عليها بالصلاة والإيمان بالله، ونتصادق معها بحيث لا تعوق حركتنا ولا تعمى أبصارنا عما في جوانب حياتنا الأخرى من أسباب للبهجة أو العزاء والتعويض.

وطالت الجلسة الغريبة ونظرت لساعتي فوجدتها تقترب من الواحدة صباحاً، وأحس ضيوفي بأن الوقت قد تأخر بالجميع، فنهضوا للانصراف، ونهضت معهم مودعاً، وعدت إلى بيتي مرهقاً بعناء العمل طوال اليوم فقرأت قليلا ثم استسلمت للنوم مجهداً، وصحوت قبل السابعة صباحاً، فتناولت إفطاري.. وصنعت قهوتي ودخلت إلى مكتبي لأبدأ رحلة يوم جديد من القراءة والكتابة، ومضت ساعات استغرقت خلالها في العمل إلى أن أفقت على صوت زوجتي تحييني تحية

الصباح.. وتتحدث معي بعض الوقت، ثم غابت قليلا وعدت لأوراقي فعادت مرة أخرى بفنجان من القهوة وضعته أمامي ثم سألتني باهتمام ماذا بك؟ ورفعت رأسي مندهشا وسألتها عما تقصد فأجابتني: تبدو حزيناً.. هل ساءك شيء في العمل أو في الأهل؟..

ونفيت ذلك مؤكداً لها أني على خير ما يرام، وقد صحوت مبكراً وتناولت إفطاري واستفدت من ساعات الصباح في كتابة بعض الأعمال المتأخرة والقراءة.. وأنهيت حديثي بأن كل شيء على ما يرام والحمد لله.. فسكتت قليلاً وهي تسألني: هل أنت متأكد؟.. وأجبتها بإصرار: بكل التأكيد.. فغادرتني غير مطمئنة. وعدت لأوراقي بضع دقائق ثم توقفت من جديد وسألت نفسي.. هل أنا حقاً حزين؟ قد أكون واجماً بعض الشيء.. أو أشعر بعدم القابلية للابتهاج بسهولة لضغط العمل أو انعدام الترفيه.. أو الانحصار في دائرة العمل والأسرة الضيقة معظم الأيام.. لكن الوجوم أيضاً له أسبابه المباشرة..

فما هي هذه الأسباب؟ وراجعت ذاكرتي عسى أن أجد تفسيراً له فلم أعثر على سبب مباشر ثم تذكرت فجأة «مجمع الأحزان» الذي انعقد فجأة ليلة أمس لمدة ثلاث ساعات في مكتبي، والمجمع الآخر الدائم الذي ينعقد كثيراً في مكتبي بالأهرام كلما استقبلت قراء بريد الأهرام وبريد الجمعة المهمومين بكل أحزان الحياة الصغيرة والكبيرة.. وعرفت أو خيل إليّ أني قد عرفت السبب.. لقد كانت جرعة الليلة الماضية زائدة عن الحد وثقيلة بعض الشيء.. ففهمت سر وجوم الصباح واسترحت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نطـح الصخـور

اسمح لي أولا أن أناديك: زميلي العزيز، فأنا تجمعني بك زمالة جامعية، رغم أننا لسنا خريجي سنة واحدة وإنما تخرجت بعدك بعدة سنوات في نفس الكلية.. ونفس القسم الذي تخرجت منه.

ولعل هذا ما دعاني إلى طلب مقابلتك منذ ثلاث سنوات لأتحدث إليك عن مشكلتي.. وأستمع إلى رأيك وألتمس المشورة عندك.. ولن أذكرك الآن بقصتي أو مشكلتي لأنها انتهت، وإنما أكتب لك هذه الرسالة لأبلغك أنني قد استمعت إلى نصحيتك ونفذت كل ما طلبته مني حرفياً وكانت النتيجة.. أنه لا فائدة في زوجي العزيز!

زميلي العزيز.. رحمة بالزوجات المخدوعات مثلي، لماذا تطلب منا دائما احتمال الهوان من أجل الأولاد.. وأين نحن كزوجات وأين حقنا في الحياة.. ولماذا لا يهمك في ردودك ببريد الجمعة وبجريدة الأهرام سوى مصلحة الأولاد؟

بل لماذا تطلبون - أنتم الرجال - من كل زوجة أن تحتمل نزوات زوجها حتى يسير مركب الحياة.. وحتى لا تحرم أولادها من الاستقرار العائلي؟

وأين هو الاستقرار في حياة كلها منازعات وخلافات؟ ولماذا يكون مطلوبا منا نحن الأمهات دائماً أن نضحي ونضحي؟. وما هي نتيجة تضحياتنا؟.

إننى أذكر كلماتك لي في مكتبك منذ ثلاث سنوات ولا تزال ترن في أذني في كل لحظة من لحظات حياتي: اليأس إحدى الراحتين!.

ولحظتها سألتك باكية: وما هي الراحة الأولى هل هي الموت؟.

فأجبتنى بأنها.. بلوغ الأمل!.

ليست هناك فائدة الآن من أن أذكرك بحياتي أو مأساتي.. فما أنا إلا زوجة خانها زوجها لا مرة واحدة وإنما عدة مرات.. ومنذ العام الأول لزواجنا وفى كل مرة كنت أثور وأهيج.. ثم يعود نادماً مستغفراً باكياً بين يدي راجياً الصفح والغفران وتعود حياتنا إلى طبيعتها لفترة.. ثم ما يلبث أن يبدأ نزوة جديدة، وكانت النزوة الأخيرة هي التي حضرت إلى مكتبك وحكيتها لك وهي قصة طويلة استغرقت ثلاث سنوات عاشها في علاقة مع امرأة بدا وكأنه قد تزوجها ثم تبين لي أنها زوجة لرجل أجنبى يأتي إليها من بلده مرة كل عدة شهور، وجئت إليك ونصحتني بالصبر إلى أن يثوب إلى رشده وبألا أنطح الصخر بالصدام المستمر معه من أجل أولادي.. وحتها سوف تنتهي هذه النزوة وسيعود.

وقد حدث ما توقعته وعاد إلى نادماً فعلاً بعد ثلاث سنوات ضاعت من عمري في المعاناة.. ومضت حياتنا هادئة لفترة.. ثم فجأة جاءت النهاية التي لم تتوقعها أنت ولم أتوقعها أنا أيضا.. لقد تزوج يا سيدي هذه المرة زواجاً شرعياً! نعم تزوج ومن فتاة في عمر ابنته!.

وهكذا جاءت «جائزة» صبري واحتمالي له بعد كل هذه السنين فهل هذه هي النهاية التي تعد بها الزوجات الصابرات؟. ألم يكن من الأفضل لي أن أنفصل عنه في بداية الزواج وأعيش حياتي بعيدة عنه؟

إنني لست حزينة عليه الآن فهو لا يستحق مني دمعة واحدة لكني حزينة حزينة على عمري.. وحزينة على كل لحظة صدقت فيها دموع التماسيح وأكاذيب المخادعين ولن أحضر للقائك هذه المرة مع أنني أتمناه حتى لا تؤثر عليّ بكلماتك الطيبة.. المريحة.. ووعودك المتفائلة للمهمومين والحائرين بجنة الصابرين المضحين من أجل سعادة أبنائهم، وإنا سأجاهد بكل ما أستطيع من قوة ليكون انفصالي عنه رسميا ونهائيا حتى ولو حصلت على الانفصال في آخر يوم من عمري.. وهذا طبعا ضد كل آرائك.. وضد ما تقوله لنا كثيراً: لا تخربن بيوتكن ولا تشردن أطفالكن من أجل زوج خائن، إذا كان الزوج لا يستحق التضحية من أجله فأطفالكن يستحقونها وبقدر التضحية والصبر تكون جوائز السماء.

وأنا لا أريد هذه الجوائز الآن.. وإنما أريد الانفصال عن زوجي الخائن.. لم أعد أحتمل سماع صوته.. ولم أصبر على نزواته بسبب احتياجي إليه ماديا.. فأنا أشغل وظيفة محترمة ذات دخل عال ولي شقتي الجميلة التي لا ينقصها شيء.. وإنما احتملته فقط لأننا تزوجنا بعد قصة حب قتلها هو بخياناته المستمرة لي واحتملته من أجل أولادي ومن أجل الاستقرار الذي كنت أحلم ومن أجل «نهاية» حلمت بأن تكون أجمل من البداية.. إنه يتصور في غروره أنني لازلت أحبه وأفتقده والحقيقة.. أني أحتقره..

والسلام!.

قرأت هذه الرسالة فقفزت على الفور صورة صاحبتها إلى مخيلتي إنها سيدة لعلها في الثانية أو الثالثة والأربعين من العمر.. رشيقة.. أنيقة.. جميلة تعمل عملاً مرموقا.. وتسافر بحكم عملها إلى مدن وعواصم وقد استقبلتها في مكتبي وروت لي نفس القصة المألوفة عن الحب الذي تقتله خيانة الزوج ونزواته المتكررة.. وموقف الاختيار الذي تجد الزوجة المحبة المخلصة نفسها أمامه بعد سنوات من زواج الحب والإنجاب هل تثور لكرامتها وتهدم المعبد فوق رءوس أطفالها الصغار.. وتنفصل عن زوجها الذي أحبته وتزوجته عن حب واختيار وكان الأمل أن يغرد طائر الحب في عشها طوال عشر سنوات، فإذا بالزوج تفتر عاطفته تجاهها بعد فترة قصيرة من الزواج وينحرف وراء أهوائه فيقع في نزوة بعد أخرى، وبعد كل نزوة يعود إليها نادماً وباكياً بين يديها فيغلبها الحب القديم على أمرها أو الأمل في إصلاحه والخوف على الأبناء فتصفح عنه.. وتتواصل الحياة بينهما من جديد، وربما تعود إلى سابق لمساتها العاطفية حتى تصبح الخيانة مجرد ذكرى وتطمئن الزوجة إلى أن السحابة التي حجبت لفترة شمس الحب الدافئة قد عبرت سماءها بسلام.. فلا تمضي أعوام وأحياناً شهور حتى تترامى إلى أسماعها من جديد أنباء نزوة أخرى تلمس علاماتها المألوفة في علاقتها به،.. فلقد حل الفتور العاطفي من جديد في علاقته بها.. وكثر غيابه عن البيت.. وكثرت أعذاره للابتعاد عنها وعن أسرته ونشطت «أسفاره» فجأة وتعددت مهام

عمله التي تقتضي ابتعاده عن البيت والأسرة كأنما قد عين فجأة في منصب السكرتير العام للأمم المتحدة، وأصبح مسؤولاً عن سلام العالم واستقرار أحواله.

وتستغرق المهمة «الدولية الجديدة» بضع سنوات أو شهور حسب الظروف.

ثم تتكرر العودة النادمة.. والصفح والأمل في أن تكون النزوة الأخيرة.. آخر النزوات.. ثم تتكرر القصة بتفاصيلها إلى ما لا نهاية.

والزوجة التي تواجه هذه المحنة يكون الاختيار أمامها دائما بين ثلاثة أساليب لا رابع لها للتعامل معها: إما أن تطلب الانفصال عن زوجها وتحصل عليه ثأرا لكرامتها وحبها الجريح دون النظر لأي اعتبار آخر ومضحية باستقرار أطفالها وسعادتهم التي ستتأثر حتما بانفصال الأبوين وتمزقهم بينهما.

وإما أن «تصارع» ظروفها.. وتصر على استعادة زوجها وإصلاحه عن طريق الصدام والمواجهة.. والمطاردة والهجوم على الأخرى لردعها عن الاستمرار في علاقتها بزوجها وهو ما تفعله معظم الزوجات اللاتي يواجهن هذه المحنة فتتحول حياتها إلى جحيم.. وتصبح مشكلتها مع زوجها فضيحة علنية أبدية في مجتمع أسرتها وأسرة زوجها.. وبلا أمل كبير في نجاح هذا الأسلوب في ردع زوجها عن ضعفه وطبيعته العابثة وبنتيجة واحدة مؤكدة هي معاناة الزوجة النفسية والصحية وقد ينتهي الأمر بطلاقها على غير رغبتها وتعرض أبنائها للخطر.

وإما أن تيأس من تغير أحوال زوجها بعد أكثر من تجربة إذا تأكدت من أنه لا شفاء له من ضعفه وعبثه ونزواته فتنفض يدها من أي محاولة لمواجهته.. وتنصرف إلى رعاية أطفالها نائية بنفسها وصحتها وأعصابها عن «نطح الصخر» مفضلة احترامها لنفسها وتقديم نموذج الأم المضحية التي لا ترد على عبث زوجها الماجن.. بعبث مماثل ولا بتحويل قصتها معه إلى فضيحة عائلية تتلذذ بعض الألسن بترديد أحداث تطوراتها كل يوم.... مسلمة في كل ذلك أمر زوجها إلى ربه وآملة في جوائز السماء عن تضحيتها بسعادتها الشخصية طلبا لسعادة الأبناء الذين يشقيهم دائما انفصال الأبوين مهما كان الأب عابثاً أو ماجناً.

وقد تكون الجائزة هي أن تنزل الهداية من السماء على الزوج بعد فترة طويلة أو قصيرة فيندم على العبث والمغامرة ويزداد تقديراً لجوهر زوجته الأصيل الذي رجح الأمل فيه على كل الشواهد وفضل سعادة الأبناء على الثأر للكرامة فيسكن إلى جوارها بقية العمر نادماً على ما كان.. وساعياً بكل السبل لتعويضها عن الأيام الضائعة من عمر الوفاء، وقد تكون «جائزتها» أن يعرف لها أبناؤها حجم تضحيتها لهم فيعوضونها بنجاحهم في الحياة ووفائهم لها عن بعض ما عانته مع أبيهم الجاحد من أجلهم.

وحين زارتني كاتبة الرسالة وروت لي قصتها عرضت عليها هذه الأساليب الثلاثة.. وقلت لها: إن لكل منها ثمناً واجب السداد وعائداً لا مفر منه فالتي تختار سعادتها الشخصية على حساب كل الاعتبارات الأخرى أملا في أن تبدأ حياتها من جديد مع آخر تجد معه ما حرمت منه من وفاء وأمان مع زوجها السابق لابد أن

تكون على استعداد لأن تتحمل أيضا ضريبة ذلك من معاناة أطفالها في حياتهم ومن تمزقهم بين أبويهم، وربما أيضا من لومهم لها حين يكبرون ويجيء وقت الحساب ويسألونها لماذا لم تتحملي من أجلنا لكي نعيش حياة أفضل مما عشنا ممزقين بين بيتك وبيت أبينا وبيوت الأهل. ولماذا لم تفكري في اليوم الذي سوف يتقدم فيه خاطب لأختنا فتتمنى ككل فتاة لو أنه قد جاء إليها وهي تعيش في أسرة مستقرة بين أبوين طبيعيين مما يرفع من أسهمها عند خطيبها ويزيده ثقة في جدارة أسرتها بالمصاهرة وبقيمها العائلية؟. أو لماذا يا أمي لم تفكري في اليوم الذي سيتقدم فيه شاب منا إلى أسرة فتاته فيضطر لأن يعتذر عن ظروفه العائلية الممزقة.. ويجد نفسه مطالباً بأن يرفع عن نفسه هاجس الشك الذي يهجس لكثيرين بأن من نشأ في أسرة ممزقة أو لأب أو لأم سهل عليها الطلاق.. كان هو أيضا أكثر جرأة على الإقدام عليه وكلها «ضرائب» لابد أن توضع في الحسبان عند الاختيار.

ومن تختار نطح الصخر جرياً وراء الأمل الخادع في ردع الزوج العابث عن مغامراته ونزواته عن طريق الصدام والمواجهة، لابد أن تكون على استعداد أيضا لأن تدفع الثمن الغالي من سلام بيتها وصحتها ونفسيتها وأرقها واضطراب نومها فضلا عن تحول قصتها مع زوجها إلى «فضيحة عائلية» مستمرة قد تؤثر سلبيا على عمل الزوج، وقد تنال كذلك من احترام الآخرين للزوجة رغم نفورهم من تصرف الزوج وتعاطفهم معها.

وهذا ما عنيته حين نصحت كاتبة الرسالة بأن تكف عن نطح الصخر، وبأن تختار إذا كان لها أن تختار الطريق الثالث وهو أن تنفض يدها من زوجها وتعيش حياتها لأبنائها مادامت غير مستعدة نفسياً لمخاطرة الانفصال وبدء حياة جديدة مع آخر ولا لدفع ثمنها الغالي من سعادة أطفالها

فهل تراني أخطأت حين نصحتها بذلك؟.

إنني أقول دائما للزوجات اللاتي يستشرنني حين يعتبن على تفضيلي دائما استبعاد خيار الانفصال أنني لا ألزم أحداً برأيي لكني أستشار.. وما دمت قد استشرت فلابد لي أن أعبر عما أؤمن به من مبادىء وأفكار ولمن يستشيرني كل الحق في أن يقتنع أو لا يقتنع بها كما يشاء، فلست ضد مبدأ الطلاق على إطلاقه لأن هناك فعلا حالات لا علاج لها إلا الطلاق رغم كوارثه وآلامه، لكنه لابد دائما أن تضع الزوجة التي تفكر في الطلاق مصلحة أبنائها دائما في الاعتبار وألا تبنى كل حساباتها على أساس اعتباراتها الشخصية وحدها، فالآباء والأمهات ليسوا مسؤولين فقط عن إعالة الأبناء وتربيتهم وتعليمهم وإنا أيضاً عن سعادتهم الشخصية، فإذا كان الطلاق لن يخدم هدف إسعادهم، فمن الظلم لهم أن نضطرهم إلى دفع ثمن سوء اختيارنا نحن أو تقلبات أهوائنا دون أن نراجع أنفسنا مرات ومرات قبل الإقدام على الطلاق.

ولست أمانع لحظة واحدة في أن تختار الزوجة الطلاق وتصر عليه إذا اكتشفت عبث زوجها مبكراً وقبل إنجاب الأطفال، أما وبعد أن جاءت بهم إلى الحياة، فلا بد

أن تضع مصلحتهم في اعتبارها الأول في كل ما يتعلق بقراراتها المصيرية وحين تسألني زوجة ولماذا لم يضع أبوهم مصلحتهم في اعتباره وهو يخون زوجته أو يعبث مع الأخريات أو يتزوج غير أمهم؟ أجيبها دائماً بأن الأب إذا كان أنانياً ولم يطلب سوى سعادته.. فإن ذلك يلقي على الأم مسؤولية مضاعفة ولا يعفيها من مسؤوليتها تجاههم.. فليس من العدل أن يتخلى الاثنان معا عن الأبناء.. ذلك أن حاجة الأبناء إلى الأم تزداد كلما كان الأب ذاتيا أو عابثاً أو ماجنا لأنها وحدها التي تستطيع أن تعوضهم عن ضعف إحساسه بالمسؤولية عنهم.

كما لا أمانع أيضا في الطلاق إذا استحالت الحياة نهائيا بين الزوجين.. وكان الأبناء قد كبروا وتشكلت شخصياتهم ونجوا من نسبة كبيرة من الآثار النفسية الضارة للانفصال على الأطفال الصغار الذين يتعذر عليهم فهم أو قبول أى سبب مهما كان قويا لحرمانهم من حقهم في الحياة بين أبويهم معاً.

والمشكلة هي أن من يستسهل التفكير في الطلاق يحاول دائما إقناع نفسه بمنطقية الفكرة وعدالتها بدعوى واحدة لا تتغير هي أن الاستقرار الأسري ليس قائما بالفعل في الأسرة، وأنه من الأفضل أن ينفصل الزوجان حتى لا ينشأ الأطفال في بيت تسوده الخلافات والشجار والنزاعات الزوجية التي تجري أمامهم. وهي دعوى مضللة للأسف لأنه إذا كان الوضع الأمثل دائما هو أن يسود السلام حياة الأسرة وألا يشهد الأطفال أبدأ نزاعات الأبوين ومشاجراتهم الصاخبة إلا أنه قد ثبت في دراسات علم النفس الحديثة وبما لا يدع مجالا للشك أن نشأة الأطفال تحت مظلة بيت واحد مع أبوين غير متوافقين أفضل نسبيا من تمزقهم بين أبوين منفصلين أو بين أبوين تزوج كل منها غير الآخر.

إنه اختيار بين أهون الضررين.. أما أن يستسهل الأب أو الأم الطلاق عند أول أزمة وبلا اعتبار لآثاره الضارة على الأبناء بدعوى أن ذلك «أفضل» لهم من تأثرهم بالمنازعات الزوجية فليس أمراً صحيحاً ولا عادلاً، ولا يعدو أن يكون نوعاً من خداع النفس لتقليل إحساسها بالذنب.

ولم يزد ما قلته في السطور السابقة على ما قلته للسيدة كاتبة الرسالة حين استشارتني في أمرها. وربها أضيف إليه الآن أن مشكلتنا هي أننا قد نستطيع أن نغير من أنفسنا فنتوقف عن سلوك يغضب منا الآخرين لكننا لا نستطيع للأسف أن نغير الآخرين كثيراً أو نجبرهم على أن يغيروا من أنفسهم بما يرضينا ويسعدنا ما لم يبدأ التغيير ذاتيا ومن داخلهم.

واستمرار محاولتنا لأن نغير الآخرين بما يرضينا هو بالضبط ما عنيته بالكلام عن نطح الصخور الذي يوهن الرءوس ولا يغير من حالها شيئا.

وقد استجابت كاتبة الرسالة مشكورة لما نصحتها به من عدم الاستمرار في نطح ظروفها وتوقفت عن صدامها اليومي مع زوجها

العابث.. ومعاناتها النفسية والانفعالية كل يوم رحمة بصحتها وتمسكاً بمصلحة أطفالها وتفضيلاً «لراحة اليأس» وكانت الراحة الوحيدة المتاحة لها وقتها

فاستنفدت قصة زوجها مع المرأة المتزوجة أغراضها وانتهت.. وفاز الأطفال بثلاث سنوات أخرى من الحياة العائلية بين أبوين طبيعيين ورجع الزوج كالعادة عن نزوته نادماً وباكياً.. وصفحت عنه الزوجة وعاشت معه عاما في سلام.. لعلها خلاله كانت تراني مصيبا فيها نصحتها به. فإذا بزوجها العابث يقوم بأخطر مغامراته ونزواته ويتزوج بفتاة في سن ابنته!

فما ذنبي إذن في مثل هذا الزوج الذي لا يهده الزمن؟.

يا سيدتي افعلي بحياتك ما تشائين.. فأنت وحدك التي ستتحملين تبعة الاختيار.. وأطفالك معك.

أما أنا فلن أغير من أفكاري ومبادئي وسأظل أنصح الأزواج والزوجات بالاحتمال إلى آخر قطرة في قدرتهم عليه.. قبل أن يقدموا على خيار الطلاق الكريه من أجل أطفالهم ومن أجل معان وقيم أخرى عديدة جديرة بكل الاعتبار.. وشكراً

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السهم الأخير!

متى بدأت هذه القصة.. وكيف أصبحت طرفاً فيها من حيث لا أدري؟.

لا أعرف على وجه التحديد فكل ما أعرفه هو أن بعض قراء بريد الجمعة بالأهرام يؤثرونني - فضلا منهم وكرما - بثقتهم ويطلبون مني أحياناً أن أتدخل شخصيا في بعض مشاكلهم الشخصية، لا بالرأي والمشورة كما أفعل في بريد الجمعة، وإنها أيضاً بالاتصال الشخصي والمساعي الحميدة بينهم.

ومع أن ظروف عملي وضيق وقتي لا يسمحان لي بأن أضيف إلى أعبائي هذا العبء الجديد إلا أني أضعف في بعض الحالات فأخجل من أن أبخل على أصحابها بجهدي المحدود في الإسهام في حل مشاكلهم.

وكانت هذه «الحالة» هي إحدى الحالات التي لم أتردد كثيراً في الاستجابة لمن طلب مني التدخل الشخصي فيها.. ولم أندم على تدخلي فيها رغم تطوراتها الدرامية الغريبة.. وإن كنت قد تعجبت ولا أزال أتعجب لها حتى الآن.

ففي أواخر العام الماضي اتصلت بي فتاة ورجتني بإلحاح واستعطاف أن أتوسط لدى أبيها لكي يقبل زواجها من فتى القلب الذي تحبه منذ أحد عشر عاما والذي يحبها ولا يزال يأمل فيها رغم رفض أبيها له عدة مرات وطرده له من بيته في آخر مرة تقدم فيها لخطبتها، فاستوقفني «عمر» الحب الذي تحمله لفتاها وسألتها مندهشاً: وكم عمرك يا آنستي؟ فأجابتني ببساطة أربع وعشرون سنة!.

أربع وعشرون سنة.. إذن فقد بدأ حبها له وهي صبية في الثالثة عشرة من عمرها فكيف بدأ هذا «الحب الطفولي» الغريب وكيف استمر وصمد لتغيرات الشخصية من مرحلة إلى أخرى من العمر؟. وسألتها عن ذلك فأجابتني بأن فتى القلب يسكن «أمامها» وأن نافذة غرفة نومها تطل على نافذة غرفته وأنه شاب يكبرها بأربعة أعوام، يقيم مع أمه بعد زواج أشقائه واستقلالهم بحياتهم، ومن النافذة بدأت الإشارات في سن المراهقة ثم التعارف ثم الارتباط العاطفي، فبدأت القصة المألوفة وتواصلت مع السنين وازدادت عمقاً حتى تخرجت من كليتها.. وبدأ الخطاب يطرقون بابها، ففوجىء الأبوان بوحيدتهما ترفض الجميع وتصارحهما برغبتها في فتى القلب الذي يسكن في الجوار.. من؟

فلان؟.. إنه ولد ضائع.. لم يكمل تعليمه العالي، ولا يملك شيئاً

ولن يستطيع أن يوفر لك الحياة التي تعيشينها في بيت أبيك، ولن تكون لك شقة مناسبة كبنات أعمامك وأخوالك، ولن، يكون له مركز أزواجهن ولن.. ولن.. ولن، فأنسي هذا الموضوع تماماً.. فلن نقبل به أبداً ولو قدم إليك قلبه على صينية من ذهب.. فالحب وحده لا يكفي لكي تقوم البيوت وإنا لابد من أشياء اخرى جوهرية. ومع علم الفتى برفض أبويها له فقد تقدم لأبيها طالباً يدها فرفضه بجفاء ولم ييأس الفتى فعاد بعد شهور وتقدم للأب مرة أخرى مؤكداً له أن

أحواله المادية قد تحسنت وأنه يعمل في شركة في الصباح وفى أخرى في المساء وسوف يكرس عمره وحياته لتوفير الحياة الكريمة لابنته...

فرفضه مرة أخرى وبجفاء أشد، فحدثه الفتى عن «الحب» وحقوقه والتزاماته.. فكاد الأب وهو كما عرفت إنسان عنيف قوي الجسم يشغل مركزاً كبيراً في إحدى الهيئات، كاد يضربه وسحبه من قميصه وساقه أمامه إلى الباب الخارجي وهو يتوعده بالأذى إن رجع مرة أخرى.

وطلبت مني الفتاة بعد كل ذلك أن أتصل بأبيها وأحادثه في هذا الأمر الذي فشل فيه كل الأقارب لأنه من المواظبين على قراءة بريد الجمعة وسوف يتقبل كلامي أكثر من أي إنسان آخر.. واستشعرت الحرج الذي تعرضني له هذه الفتاة برجائها.. واستثقلته.

فمع اعتزازي بما يبديه نحوي بعض القراء من ثقة وود إلا أني أستشعر دائما حرجاً بالغاً في أن أرجو أحداً في شأن من شؤونه الخاصة أعلم مسبقاً أنه قد اتخذ فيه موقفاً قاطعاً لا رجعة فيه، إذ ما أسهل أن يرفض رجائي ويخيب مسعاي مرداداً الديباجة المألوفة من أنه كان يتمنى ألا يخذلني فيها رجوته فيه تقديراً لمسعاي الحميد لكنه كذا.. وكذا، ثم يواجهني بالرفض والاعتذار. وشرحت للفتاة مخاوفي.. فبكت طويلاً ورجتني ألا أخذلها وأن أبذل جهدي مع أبيها.. لأن هذه المحاولة التي سأقوم بها ستكون السهم الأخير لها في قصتها وبعده لا تعرف ماذا ستفعل في أمرها.

ففكرت في الأمر قليلاً وطلبت منها أن تدعو فتاها لمقابلتي.. فإذا جاء وتحدثت إليه واستشعرت جديته وجدارته بالوفاء بوعوده لأبيها فسوف أتجاوز حرجي الشخصي وأتصل بأبيها وأبذل معه كل جهدي لإقناعه بقبول هذا الفتى.

وجاءني الفتى بعد يومين فوجدته شاباً.. هادئاً خجولا وتحدث إليّ طويلاً عن رغبته في الارتباط بمن أحبها، وعزمه على أن يعرق ويكدح ليوفر لها الحياة الكريمة بعد الزواج.. فتسلل الإشفاق إلى قلبي وأنا أسمع حديثه عن فتاته ووجدتنى أسأله رغما عني: أتحبها إلى هذا الحد؟

فأجابني بصدق: وأكثر من هذا الحد.. فهي عمري كله منذ وعيت للدنيا.

وأطمأن ضميري إلى جدية الفتى فغالبت ترددي وأتصلت بالأب وقلت له إننى أسمح لنفسي بالتدخل في شؤونه الشخصية استجابة لرجاء شخص عزيز عليه هو ابنته الوحيدة ثم حدثته في أمرها فتلقى حديثي بسماحة وحدثني طويلاً عن رغبته في الاطمئنان إلى حسن اختيار ابنته الوحيدة ثم شرح لي أسباب اعتراضه على الفتى وكلها من وجهة نظره أسباب موضوعية مقنعة. وحين قاطعته متسائلاً: ولكن ماذا إذا لم يقتنع أبناونا بأسبابنا الموضوعية لرفضنا اختياراتهم.. هل نرغمهم على ما لا يقبلون.. أم نتمسك بالرفض للنهاية إلى أن نفأجأ بأنهم قد شقوا عصا الطاعة علينا.. وخرجوا على إرادتنا؟

فأجابني بثقة بأن الأمر لن يصل إلى هذا الحد مع ابنته لأنها مهذبة ومطيعة ومتدينة.. ولأنه لا يثق في ثبات مشاعرها تجاه هذا الفتى فقد استشعر من كلامها أن هذا الفتى هو مجرد خيار مطروح أمامها من بين خيارات أخرى.. وبالتالي فلا معنى لأن تختار أسوأها وتعزف عن الاختيارات الممتازة الأخرى!.

وأحسست على الفور بأن الأب ليس على علم كاف بأبعاد القصة وقدرت أن «الأم» لابد أن تقوم بدور هام في إقناع الأب بأن «الفتى» ليس اقتراحاً عابراً في حياة ابنته كالخطاب الآخرين وإنما هو قصة حبها التي استغرقت نصف عمرها، ولن تتنازل عنها بهذه البساطة

واتصلت بي الفتاة تسألني عما انتهى إليه مسعاي فأبلغتها بفشلي في إقناع أبيها ونصحتها بأن تركز كل جهدها على أمها لأنها كامرأة أقدر على تفهم حقيقة مشاعرها، وعلى إقناع الأب با غاب عنه تقديره من ظروف القصة كلها، فأجابتني قانطة بأن أمها لن تؤدي للأسف هذا الدور لأنها أكثر تصمياً من أبيها على رفض الفتى لنفس الأسباب التي أبداها الأب، ولأنها تنكر عليها هذا الحب وترفض الاعتراف به.

فرفعت يدي يائساً ورجوت الفتاة أن تصبر فترة أخرى ثم تعيد الضغط على أمها وأبيها لإقناعها بفتاها مؤكداً لها أن الأهل يسلمون دائما برغبة الأبناء في النهاية حين يستشعرون وبعد مقاومة طويلة صدق تمسكهم بمن يحبون، لأنهم لا يستهدفون أولاً وأخيراً سوى سعادة أبنائهم كما يتصورونها.

ووضعت سماعة التليفون وانصرفت إلى أعمالي.. ونسيت الفتى والفتاة وسط مشاغل الحياة وعشرات القصص المشابهة التي يرويها لي قراء

البريد.. شيء واحد فقط رن في أذني في مكالمة الفتاة الأخيرة لي وتذكرته ممتعضا بعدها لعدة أيام هو ما قالته لي من أنها لو خيرت بين هذا الفتى وأبويها فسوف تختاره لأن أبويها يظلانها برفضها زواجه منها!.

وأذكر أنني قد عاتبتها على هذه العبارة القاسية وذكرتها بأن أبويها لا يعارضان في زواجها إلا طلباً لمصلحتها كما يتصورانها، فإذا كان ذلك سوف يشقيها فعليها أن تقنعها بأن سعادتها في هذا الزواج وليست في أي شيء آخر، وبغير أن تضع نفسها أبدا في موقف الاختيار بين أبويها وفتاها أو بين أي شيء آخر في الحياة، لأنه اختيار خاطىء من الأصل، ولا يجوز أن يكون مجالاً للمناقشة أو التفكير.

ومضت شهور بعد ذلك ثم فوجئت منذ أسابيع بشخص يلح في طلب مقابلتي مؤكداً أنها مسألة حياة أو موت بالنسبة له، وأنني على علم بتفاصيلها، فحددت له موعداً وجاء في موعده، فدخل إلى مكتبي رجل عملاق متين البنيان كالمصارعين يعطيك الإحساس بأنه رجل قوي لا يهتز أمام شدائد الحياة.. فما إن جلس واطمأن إلى أن باب المكتب قد أغلق حتى فوجئت بهذا «الجبل» ينهار أمامي فجأة بلا مقدمات، وينخرط في بكاء مرير مؤلم أثار انزعاجي وحيرتي.. ومددت إليه يدي بعلبة المناديل فمد إليها يدا مرتعشة وراح يجفف دموعه.. ويحاول أن يتمالك

نفسه بصعوبة حتى استطاع الكلام أخيرا فقال لي بصوت متهدج: ألا تذكرني إنني الأب الذي توسطت لديه منذ حوالي سنة ليقبل زواج ابنته من جارها.

وتذكرته على الفور وسألته عما أستطيع أن أقدمه له فإذا به ينخرط مرة أخرى في البكاء ويقول لي من بين شهقاته المؤلمة: إن ابنته قد تسللت من البيت إلى جهة غير معلومة منذ أيام.. وأن «الفتى» قد اختفى في نفس التوقيت أيضا من بيته.. وأنه بحث عنها وعنه في كل مكان طوال الأيام الماضية فلم يعثر لها على أثر.. ولم يجد لدى أهل الفتى أو أصدقائه أي معلومات عنهما.. وأنه لم ينم هو وزوجته ولا تتوقف دموعها منذ وقعت هذه الكارثة. وصدمت بما سمعت واسترجعت على الفور «العبارة القاسية» التي لمت ابنته عليها في المكالمة الأخيرة، وأدركت أنها قد وضعتها للأسف موضع التنفيذ واختارت فتاها مضحية بأبيها وأمها.. وبكل شيء!. وشعرت بالأسف للأب الحزين.. وكتمت لومي له لأنه دفع الأمور في هذا الاتجاه الخاطىء. بإصراره القاطع على عدم الاستجابة لرغبة ابنته، إشفاقاً عليه مما يعانيه من إحساس مؤلم بالهوان على ابنته.. واستمعت مشفقاً إلى كلماته الباكية وهو يقول لي: باعتني ابنتي وباعت أمها بعد أربعة وعشرين عاماً قدمنا لها فيها كل شيء، ولم نحرمها من أي شيء فباعتنا وباعت الأسرة من أجل هذا الولد، ووضعتني في موقف محرج أمام أهلي الذين يسألون عنها ولا أعرف كيف أجيبهم ولا كيف أواجه الناس.. وابنتي الوحيدة التي ربيتها ودللتها وأطعمتها بيدي قد هجرتني بلا كلمة وداع!.

وواسيت الأب بكل ما استطعت من جهد.. وسألته عما أستطيع أن أقدمه له في هذا الموقف المؤلم؟.. فرجاني أن أوجه نداء لابنته في بابي الأسبوعي بريد الجمعة بالأهرام.. أناشدها فيه العودة لأسرتها وأؤكد لها أن أهلها قد سلموا برغبتها.. ولن يعترضوا على شيء مما حدث ما دامت هذه رغبتها.. فسألته محاذراً: هل يعني ذلك أنك توافق على زواجها من فتاها؟

فأجابني بمرارة: أوافق أو لا أوافق.. ماذا سيغير ذلك من الأمر.. لقد تزوجا يا سيدي سراً منذ شهور وعقد عليها هذا الولد قرانه بعد آخر مقابلة معى اعتذرت له فيها وقد علمت ذلك منذ يومين فقط من أصدقائه الذين طفت عليهم جميعاً أسأل عنه وعنها فعرفت أنه بعد أن يئس من موافقتي عليه، اتفق مع ابنتي على الزواج سراً لكي يضعانا أمام الأمر الواقع، وخرجت ابنتي ذات يوم منذ 6 شهور كأنها في زيارة عادية وتوجهت معه إلى المأذون فعقد قرانهما وشهد على العقد اثنان من أصدقائه.. وعادت ابنتي الوحيدة التي كنت أتصور أنني أعرف كل دخائلها وكل شيء عنها إلى البيت وكأنها لم تفعل شيئاً يُستحق أن يروى وعاشت بيننا ستة شهور كاملة وهي متزوجة هذا الولد دون أن نعرف شيئا، والذي يثير جنوني أنها طوال هذه الشهور الستة لم تغادر البيت إلا معي أو مع أمها أو معنا معاً مما زاد من ثقتنا فيها واطمئناننا إلى أنها قد نسيت هذا الموضوع نهائيا.. ثم استأذنت أمها منذ أسبوع في الخروج لمدة ساعة لزيارة صديقة لها وخرجت ومضى اليوم دون أن تعود فبدأنا نبحث عنها في كل مكان والقلق يقتلنا فإذا بأحد أصدقاء الولد يريحنى من بعض العذاب ويقول لي: إنها قد هربت مع زوجها إلى مكان لا يعلمه

لكي يضعانا أمام الأمر الواقع.. ولن يظهرا إلا حين يحصلان على الأمان مني ومن أسرتي!.

وسكت الرجل قليلا ثم قال لي: إنها تثق فيك وتقرأ لك بانتظام فاكتب لها أنني قد تنازلت عن كل معارضة ولن أحاسبها على شيء فعلته رغم آلامي التي لا يتحملها بشر، وأريدها أن تعود لكي نستكمل الشكل الاجتماعي الضروري للزواج أمام أهلى وأهل زوجتي الذين لا يعلمون شيئاً مما حدث.. ولا أريدهم أن يعلموا. وتفكرت فيها يقول قليلاً ثم قلت له: أتعطيني العهد بألا تؤذيها أو تؤذي هذا الفتى إذا استجابا لندائي ورجعا؟ فأجابني بالإيجاب ومع أنني كنت قد اطمأننت إلى صدقه لما رأيته من انهياره أمام الكارثة إلا أنني استشعرت مسؤوليتي الأدبية بل «والجنائية» أيضا عن هذه الفتاة إذا استجابت لندائي ورجعت ثم تعرضت بعد عودتها لأذى من أبيها أو أسرته أو تعرض الفتى لعدوان منه.. ففتحت أحد أدراج مكتبي وأخرجت منه مصحفاً كريماً.. ووضعته أمام محدثي في هدوء وقلت له: عفوا لكنها مسألة حماية أرواح ومسؤولية ثقيلة أتحملها أمام الله وأمام ابنتك وفتاها وأسرته.. فهل تقسم لي على هذا المصحف الشريف بأنك لن تتعرض لابنتك أو لفتاها بأى أذى إذا استجابا لندائي ولن تقف في طريقها بعد العودة؟. فمد يده في استسلام ووضعها على المصحف وأقسم «بعهد الله» وبكتابه الكريم ألا يؤذي ابنته ولا فتاها وألا يقف في طريقهما إذا رجعا.

واطمأننت إلى ذلك وكتبت نداء حاراً إلى هذه الفتاة الهاربة في بريد الجمعة أقسمت لها فيه «بعهد الله» وذمة نبيه وذمتي أنني أضمن لها ولفتاها سلامتها وألا يعترض أحد طريقهما وطلبت منها العودة رحمة بأبيها الذي يبكي كالأطفال وأمها المريضة المنهارة.. لكي تستكمل أسرتها الشكل الاجتماعي الضروري لإعلان الزواج، بل وطلبت منها أن تتصل بي تليفونياً في مساء نفس اليوم وأن تلجأ هي وزوجها إلى بيتي لكي يشعرا بالأمان.. وليتم اللقاء بينها وبين أبيها وأمها في وجودي فلا تخشى شيئاً مما تخشاه، وقلت لها إننى سأترك في سويتش الاهرام رقم تليفون بيتي وعنواني لكي تحصل عليهما منه.

وصدر الأهرام يوم الجمعة.. وبدأ الأب يتصل بي منذ الصباح الباكر كل بضع دقائق يسألني بلهفة تمزق القلب. هل اتصلت بك؟. إلى أن جاء المساء.. وجاءني صوتها محاذراً خائفاً وعاتبتها عما فعلت بأبيها وأمها.. فلم تزد على أن قالت لى إنها آسفة لما فعلت لكنه لم يكن أمامها خيار سواه بعد أن سدا أمامها كل الأبواب الأخرى.. فقلت لها: إن أوان الحساب قد فات وإن المطلوب الآن هو عودتها إلى أسرتها لكي يتم إعلان الزواج قبل أن يكتشف الأهل اختفاءها وتنتشر الفضيحة ويزداد حرج أبيها وأمها، وإحساسها بالقهر وأكدت لها أن أباها قد سحب كل اعتراضاته على فتاها وسوف يقدم لها كل ما تريد.

فسألتني في شك: وهل أنت واثق من أنه لن يؤذيني ولن يؤذي زوجي إذا رجعنا.

فقلت لها متألماً: لو رأيت أباك وهو يبكي لما تشككت لحظة في نيته تجاهك. إنه يفتقدك يا ابنتي.. حتى ولو كان غاضباً منك.. وأنتم لا تعرفون حقيقة مشاعر

الآباء والأمهات تجاه أبنائهم، فنحن قد نغضب منهم أو عليهم لكننا أبدا لا نطيق أن نؤذيهم.. أو يؤذيهم أحد.. إنهم أبناؤنا مهما فعلوا ومهما أخطأوا.. وغاية ما نستطيعه تجاههم هو أن نحجب عنهم إذا خرجوا علينا بعض مساعدتنا لهم، لكننا أبداً لا نستطيع إيذاءهم. فرجعت الفتاة تسألني في خوف: إنني أصدقك.. وأثق في وعودك لكني أخشى إذا رجعت وهدأت العاصفة وتم احتواء الفضيحة قبل انتشارها أن يعود أبي وأمي إلى موقفها المتصلب مني ومن زوجي ويرغماني على ما لا أريد.. فهل تضمن لي ألا يؤذياني وألا يفرقا بيني وبين زوجي إذا رجعنا؟. وأكدت لها أنني أضمن لها ذلك على مسؤوليتي واستمهلتها لحظات وهي معى على التليفون.. وطلبت الأب في تليفون آخر وقلت له إن ابنته معي على التليفون وإنها آسفة لما اضطرت إليه وتريد العودة لأبيها وأمها اللذين تفتقدهما بشدة لكنها لاتزال متخوفة من أن يصيبها أو يصيب فتاها أذى منكما أو أن تضغطا عليها لتفعل ما لا تريد.

فقاطعني الأب باكياً بأنه يريد أن يرى ابنته ويتحدث إليها وهو كفيل بأن يزيل عنها كل مخاوفها فعدت إلى الفتاة وقلت لها إن أباها معي على التليفون الآخر وأريدها أن تسمع صوته وتأكيداته لها بألا تخشى شيئا ثم وضعت السماعتين فوق بعضهما وطلبت من الأب أن يكلم ابنته فسمعت صوته وهو يصرخ باكياً ومناشداً ابنته أن تعود إلى أحضانه ولها الأمان وكل ما تريد.. ثم يستسلم مرة أخرى للبكاء!. وأمسكت السماعة وقلت لابنته:

- هل سمعت صوت أبيك وهو يبكي حزناً عليك

فأجابتني واجمة: نعم وسأعود لكني أريدك أن تأتي لتأخذني من بيت أحد أصدقاء زوجي.. وهذا هو شرطي الوحيد أن تأتي مع أمي وأبي.. وأن تشهد على وعودهما لي.. وألا تتركنا إلا بعد الاتفاق على كل شيء.. وأجبتها إلى رغبتها فأعطتني العنوان الذي تقيم فيه واتصلت بالأب وأبلغته بأني أعرف أين تختفي ابنته لكنها تطلب أن أرافقك أنت وزوجتك إليها.. فتهلل لما أبلغته به وشكرني طويلا ثم التقينا في وسط المدينة وتوجهنا إلى العنوان.. ودخلنا مسكن الصديق وجلسنا في الصالون والأب واجم حزين والأم صامتة مكتبئة، وبعد لحظات أشار لي الصديق وقادني الى إحدى غرف المسكن الداخلية فوجدت فيها الفتاة الصغيرة ولم أكن قد التقيت بها من قبل ومعها زوجها الشاب الذي زراني منذ حوالي سنة، ومن جديد طالبتني الفتاة بأن أضمن لها سلامتها فأكدت مسؤوليتي عنها ودعوتها للدخول على والديها في الصالون فنهضت معي ودخلنا الصالون فاقتربت من أبيها خائفة مترددة خجلة فما إن رآها حتى نهض مجهشاً بالبكاء وهو يفتح ذراعيه ويحتويها في صدره وتشنجت ذراعاه حولها حتى كادا يسقطان معا على الأريكة عنف الانفعال.. ثم جلس في مكانه وهي في حضنه لا يريد أن يفك ذراعيه حولها ناسياً أنها لم تصافح أمها بعد، وظل يعتصر ابنته بذراعيه في حضنه ويبكي ولا يتكلم حتى انهمرت الدموع من أعين الموجودين جميعاً. وأخيراً أطلق سراح ابنته فاحتضنت أمها وجلست إلى جوار أبيها مطأطئة الرأس صامتة.

وتحدث الأب الى ابنته فطمأنها إلى أنه لن يقف في طريقها بعد ذلك وأنه قد سامحها من قلبه فيها فعلت رغم عتابه عليها ورغم ما عرضته له من محنة وآلام وإحساس مرير بالهوان.

وحاولت بقدر الإمكان التخفيف عنه.. وطلب الأب أن تعود ابنته معه إلى البيت لتظهر أمام الجيران والأهل الذين يتساءلون عن سر غيابها ثم يستكمل باقي الخطوات الضرورية لإعلان الزواج خلال أيام معدودة ووافقت الإبنة على العودة معه وترك زوجها بعد تردد قصير.

ورجعت الأسرة بابنتها إلى بيتها.. وبعد ثلاثة أيام اتصل بي الأب يدعوني لحضور «شبكة» ابنته في بيته بناء على طلبها فذهبت وحضرت حفل الشبكة ورأيت الفتاة سعيدة تتفجر مرحا وحيوية وسط الأهل والأقارب الذين يهنئونها «بخطبتها» المفاجئة ويعاتبونها على عدم إبلاغهم بهذا الأمر إلا قبل موعد الشبكة بيومين، وانتهى حفل الشبكة بسلام وغادرته سعيداً بما رأيت وإن كان الأب قد قال لي وهو يوصلني إلى المصعد إنه يضحك ويبتسم أمام الجميع حفاظا على الشكل الاجتماعي وتكتما للفضيحة.. لكن قلبه ينزف دماً لما فعلته به وبأمها ابنته سامحها الله فربت على كتفه مهوناً وانصرفت.

وبعد أسبوع آخر دعيت لحضور حفل «الزفاف» في أحد الفنادق وعلمت أنه قد سبقه في نفس اليوم حفل محدود في بيت الأسرة لعقد قران «صوري» أمام الأهل وذهبت إلى حفل الزفاف.. وهنأت الفتاة والفتى ورأيتهما يرقصان طوال الحفل طرباً وفرحاً وسعادة ورأيت الأب والأم يجلسان في ركن شبه منعزل من الصالة يبتسمان إذا التقت عيونها بأحد ويستسلمان للكآبة والأحزان إذا نظر كل منها للآخر أو أمنا العيون.. فصافحتهما مواسيا لا مهنئاً.. وجلست بينهما صامتاً لبعض الوقت ثم غادرت الحفل موزع المشاعر بين الابتهاج بسعادة الفتاة والفتى التي مكنتني الظروف الغريبة من الإسهام في تحقيقها، والاكتئاب لمشهد الأبوين اللذين يعانيان إحساساً مؤلماً ومريراً بأن كل ما قدماه من حب وعطف وحنان لابنتهما طوال أربعة وعشرين عاما لم يشفع لهما عندها في شيء عند الاختيار، ومع ذلك فهما مطالبان بقبول الأمر الواقع والتسليم به والابتهاج له أمام الآخرين والاستمرار في رعايتها وغمرها بالحب والعطف والمساعدة بعد الزواج رغم إقحامها عليهما شخصاً يرفضانه ولا يطيقان رؤيته.

سامح الله الأبناء الذين لا يعرفون كم هو مرير وقاس إحساس آبائهم وأمهاتهم بهوانهم عليهم حين يخرجون على طاعتهم ويفضلون عليهم غيرهم.

وسامح الله الآباء والأمهات الذين يضعون أبناءهم بقصر النظر والعناد.. أمام هذا الاختيار البشع!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقسى من الألم!

في قصة أمريكية قصيرة قالت الزوجة لزوجها المشغول عنها بعمله وطموحه حين سألها لماذا تنفقين وقتاً طويلاً كل مساء في كتابة «مذكراتك» فأجابته: حين تعجز الزوجة عن الكلام مع زوجها فإنها «تتكلم» مع الورق! وقد عجزت عن الكلام معك منذ فترة طويلة وافتقدت اهتمامك وعطفك ومشاركتك لي فى مشاعري وعواطفي.. فبدأت «أتكلم» مع الورق، وسأستمر في ذلك تجنبا للوحدة النفسية.. والجنون!.

وانتهت القصة في النهاية بوقوع الزوجة في حب أول فارس طرق باب قلبها الذي هيأه الزوج لاستقبال أول غاز جديد.. بانصرافه عن زوجته.. وتوقفه عن تلبية احتياجاتها العاطفية والنفسية، ولا غرابة في ذلك فالأرض العطشى تتلهف دائماً على قطرة الماء التي تخفف من جفافها وتحيي مواتها.

لكن هذه الزوجة الشابة لم تكتب مذكراتها كما فعلت الزوجة في القصة الأمريكية تجنبا للوحدة أو الجنون، وإنما كان ذلك دفاعاً عن حياتها وتمسكاً بزوجها الذي لم يكتف بانصرافه عنها.. وإنا همَّ أيضاً بأن يدمر حياتهما معاً. فكتبت في أوراقها «تحليلاً» محايداً للموقف الذي تواجهه بكل احتمالاته ونتائجه الإيجابية والسلبية وأطلعت زوجها على «مذكراتها» على أمل أن يتأثر بما كتبته فيها ويعود إلى رشده.. فلم يتغير شيء في موقفه.. وأرسلت إليّ «مذكراتها» طالبة مني قراءتها. ومحاولة التأثير على زوجها إذا اقتنعت بما كتبته فيها.

إنها سيدة في الثالثة والثلاثين من عمرها تعلمت تعليماً متوسطاً والتقى بها زوجها المهندس الشاب الذي يكبرها بتسع سنوات وأعجب بها فتقدم لخطبتها. وتم الزواج في بيت والدته. فهو أصغر إخوته. ولم يبق لأمه سواه لكي يعيش معها، كما أن إمكاناته المادية لا تمكنه من الحصول على شقة مستقلة.. وبدأت حياتها الزوجية معه سعيدة، وأنجبت له طفلتين جميلتين وتحملت متاعب الحياة بصبر وحكمة مع أم عنيدة مسيطرة تصر على أن تكون لها الصدارة والأولوية في كل شيء في حياة الأسرة، وعلى فرض إرادتها على الجميع.. ومع ذلك لم تضق بها كثيراً واعتبرتها أماً ثانية لها وهي التي افتقدت الاستقرار في طفولتها بعد انفصال أبويها، وتنقلت بين بيتيها طوال حياتها.. لكنه هو الذي لم يتحمل عناء الحياة في بيت تسيطر عليه أمه وتفرض فيه إرادتها عليه وعلى زوجته، وضاق بمشاكلها اليومية المستمرة معه وقرر أن يجد حلاً لحياته معها، فماذا كان الحل السعيد الذي توصل إليه؟. لقد عاد إلى زوجته الشابة ذات مساء وصارحها بأنه سيغادر جحيم بيت أمه.. ويتزوج! يا إلهي.. كيف.. وماذا عني وعن الطفلتين؟. وكيف يكون الزواج الجديد حلاً لمشاكلنا أمك؟. فأجابها بأنه من الأفضل أن تستمر هي والطفلتان في الحياة مع أمه.. وأن يتزوج هو زميلة قديمة له في الجامعة فرقت بينهما الأيام.. ثم عادت فجمعتهما معاً منذ فترة خاصة، وأنها تملك شقة مناسبة في حي راق وتقبل به زوجا على زوجته وطفلتيه.

وبذلك يستطيع أن يزورها أي زوجته وأم طفلتيه وهو أهدأ أعصابا وأكثر قدرة على الاحتمال!. وظنته زوجته في البداية يمزح معها مزاحاً ثقيلاً لكنها صعقت حين تبينت جديته وإصراره على تنفيذ مشروعه فحاولت إثناءه عن هذه الخطوة الحمقاء بكل وسيلة ممكنة وبكت كثيراً وتوسلت إليه أكثر وبلغ بها الحال أن هددته بأنه إذا فعل فإنها لن تحافظ على إخلاصها له وسوف تنحرف وتفتح أبوابها المغلقة في وجوه الجميع ولمن يروق لها منهم!. فلم تهتز شعرة واحدة في رأسه لتهديدها.. ربما لثقته في أنه تهديد أجوف لا تسمح طبيعتها المتدينة بتنفيذه.. وربما تظاهراً بالاستهانة بتهديدها لإقناعها بأنه لن يحول شيء دون استمراره في مشروعه الجديد.

واسودت الحياة في وجه الزوجة الشابة.. وكما فعلت تلك الزوجة الأخرى في القصة الأمريكية القصيرة فتحت دفترها الصغير وراحت تبثه كل مساء لواعجها وخواطرها الحزينة. ولم تكتف بتسجيل مشاعرها وانفعالاتها الغاضبة وإنها اتبعت منهجا موضوعياً غريباً على الموقف الذي تواجهه الزوجة عادة بالانفعال والصخب وليس بالتفكير الهادىء المرتب كما فعلت هذه الزوجة. والألم الزائد على حد الاحتمال يقهر فيما يبدو انفعال الإنسان في بعض الأحيان ويضطره للتعامل مع الموقف بحياد شبيه بحياد الباحثين أملاً في التماس أي وسيلة للتخلص من المحنة فراحت تحلل شخصية زوجها وشخصيتها وتضع مميزات وعيوب كل منها في الميزان وفي«جداول» متقابلة كما يفعل الباحثون فكتبت عن زوجها مثلا تقول:

مميزاته:

1- رجل ناضج عقلاني «مفكر»!.
2- عنده ضمير رغم شكوكي فيه حالياً!.
3- رحيم بأي إنسان في عمله.
4- مجامل جداً مع الآخرين.
5- جامعي مثقف جداً.

أما عيوبه: فقد أحصتها على الوجه التالي:

1- غير مرح ويفتقد الابتسامة.
2- لا يستطيع إسعاد نفسه ولا من حوله.
3- غير دبلوماسي في بيته!.
4- غير عاطفي وشرس في غضبه
5- لا يصلي!

وبنفس هذه الروح المحايدة كتبت عن نفسها فقالت: مميزاتها:

1- تفضل أن تكون ربة بيت لا موظفة
2- تحب أسرتها وطفلتيها
3- تعرف ربها وضميرها حي وصاحبة مبادىء

أما عيوبها: كما رصدتها بنفسها فهي كالتالي:

1- عصبية.. وغير منظمة في حياتها
2- حساسة جداً وعاطفية.
3- ساذجة وأقل كلمة ترضيها
4- فرطت في حقوقها وتهاونت في كرامتها منذ سنوات
5- تعليمها متوسط وليست جامعية.

ومع التجاوز عن أن بعض ما سجلته في خانة العيوب يعد من المزايا الأخلاقية على طريقة بعض الفنانات في الأحاديث الإذاعية حين يحصين «عيوبهن» فإذا بهن جميعاً ساذجات وطيبات وحسنات النية إلى حد العبط، فإن ما رصدته من عيوب العصبية وعدم التنظيم ونقص التعليم يكفي لإعجابي بموضوعيتها وصدقها. وبنفس هذا المنهج انتقلت لمناقشات أسباب تفكير زوجها في الزواج من أخرى وهجر البيت فرسمت جدولاً كبيراً من خانتين الأولى للأسباب والثانية للحلول المقترحة لكل سبب تفاديا للخراب فقالت في خانة الأسباب:

1-الشقة: والحل المقترح هو تجديدها تجديداً شاملاً ودهنها وتغيير ألوان الحائط بها يوحي بتغيير الجو والمكان! أو التفاوض مع والدته لترك الشقة مقابل خلو رجل معقول والانتقال إلى شقة أخرى
2-الوالدة: والحل المقترح هو أن يحاول زوجها الاقتراب منها أكثر وترضيتها بزيادة مساهمته في مصروف البيت وبعض الهدايا البسيطة التي يعجبه يكسب بها مودتها.. مع استخدام الدبلوماسية في التعامل معها!.
3-الطفلتان: والحل هو أن يحاول الزوج أن يكسب مشاعرهما بنزهة أسبوعية تعيد الابتسامة إليهما وتغرس إحساس الأمان في نفسيهما
4-الزوجة: والحل المقترح هو أن يحاول الزوج إصلاح ما لايعجبه في شخصيتها وهي مستعدة لكل ما يطلبه منها في هذا الصدد، وأن يحاول من جانبه أيضاً أن يكسب مشاعرها رغم أنها «تحبه والله العظيم» وذلك بكلمة حلوة.. وفسحة بسيطة من حين لآخر تعوضها عن جفاف حياتها وحرمانها من حنان الأب في طفولتها وصباها بسبب ظروفها العائلية السابقة.. وأيضاً لتعويض حرمانها من مباهج الحياة والنزهات حتى في شهر العسل بسبب تسلط الأم وتدخلها المستمر في حياتها!.

وكعادة الباحثين رفضت الزوجة ان تنهي بحثها الاجتماعي عن المشكلة بغير تسجيل «النتائج المتوقعة» لرفض هذه الحلول والمضي في الاتجاه الآخر الذي يفكر فيه الزوج، فسجلت في خانة النتائج السلبية هذه الحقائق المتوقعة:

1-البنات أي الطفلتان: ستعانيان من الحرمان لانشغال الأب عنهما بزوجته الجديدة واختفائه معظم الوقت من حياتها وسينعكس ذلك على شخصيتهما في حالة انطواء وعدم ثقة في النفس وفي كل الناس بعد انهيار المثل الأعلى للأب الذي تخلى عنهما، وسيترك الحرمان آثاره

النفسية الضارة عليهما حين تصلان إلى مرحلة الشباب، وربما يؤدي بهما ذلك إلى النفور من الزواج.. أو الانحراف!. وفي طفولة الزوجة نفسها من الحرمان وآثاره المريرة ما يرجح عندها هذه النتائج السلبية!

2-الزوجة: ستضيع في الحياة.. وستزداد حياتها تعاسة وقسوة وقد ينتهي بها الأمر إما إلى الجنون أو الانحراف!. أما لو استمع الزوج إلى نداء الحكمة والعقل والحب وتخلى عن مشروعه الأناني.. فستكون النتائج هكذا:

1-الزوجة: ستزداد حيوية وشباباً وجمالاً وسيعود إليها بريق عينيها ورقة صوتها وحنان قلبها وابتسامتها، وتعود لممارسة حياتها مع زوجها كأنها ولدت من جديد.

2-الزوج: سيستعيد ابتسامته بعد تحسن الأحوال بينه وبين والدته وتجديد الشقة.. وسيتفرغ أكثر لعمله ومستقبله.

3-الطفلتان: ستستعيدان اطمئنانهما وثقتهما في المستقبل بإذن الله

ثم عشر صفحات كاملة بعد ذلك في شرح وتأكيد وتأصيل هذه النتائج «العلمية» المؤكدة لالتزام الزوج بالنهج القويم!. وانتهيت من قراءة مذكرات الزوجة المدعمة بالجداول والمؤشرات البيانية وقلبي يزداد عطفاً وإعجاباً بكفاحها النبيل للحفاظ على زوجها واستقرار أسرتها الصغيرة.

وتعجبت كيف قرأ الزوج هذه المذكرات الأليمة ولم يرق قلبه لزوجته.. ولم يدرك عمق الألم الذي تحسه والذي دفعها لأن تتعامل مع مشكلتها الخاصة بهذه الروح الحيادية كما لو كانت مشكلة إنسانة أخرى سواها. وكيف لم يستشعر عمق تعاستها وهي تتجاوز عن آلامها لتجهد عقلها ومشاعرها في اقتراح الحلول والتماس كل الوسائل للخروج من محنتها بما يحقق للزوج ما ينشده منها ويصرف تفكيره عن هجر الزوجة والطفلتين.

إنه موقف مؤلم بكل ما تحمله الكلمة من معان.. وغصة في القلب لا يدرك عمقها إلا أصحاب القلوب والمشاعر الرقيقة، فأقسى من الألم هو أن تضطر للتجاوز عنه مرغما لتناقش مع صانع الألم بصبر وهدوء وحياد كيفية الخروج من المحنة التي وضعك فيها، كأن تناقش من غدر بك مثلا في أسباب غدره.. وكيفية العدول عنه بدلاً من أن تنشب أظافرك في عنقه عقاباً له على خيانة الحب والثقة. وما أكثر ما تضطرنا ظروف الحياة لأن نتجاوز أحيانا عن الألم لنبحث مع صانعيه أسبابه وظروفه.. وإمكانات التراجع عنه كما لو كنا نتناقش حول مشكلة صديق يهمنا أمره.. ولسنا نتحدث عن آلامنا الشخصية وتعاستنا الخاصة.

وهكذا فعلت هذه الزوجة فأفرغت على الورق كل مشاعرها ومخاوفها وتلهفها على الوصول إلى حل يحفظ لها زوجها وحياتها فكانت هذه المذكرات الصادقة الفريدة.

ولقد احترت ماذا أستطيع أن أفعل مع مثل هذا الزوج.. وكيف أستطيع إقناعه بالعدول عن فكرته الطائشة، وأخيراً استجمعت إرادتي واتصلت به في رقم التليفون الذي كتبته لي الزوجة ودعوته لتناول فنجان من القهوة في مكتبي على غير معرفة.. فجاءني مترددا ومتوجساً.

واستقبلته بحفاوة.. وتركته يلتقط أنفاسه بضع لحظات ثم مددت له يدي بمذكرات زوجته وقلت له أعرف أنك قد قرأت هذه المذكرات من قبل.. ولم تغير شيئاً من خطتك، لكني أريدك إكراماً لي أن تقرأها مرة أخرى أمامي الآن وسأتناقش معك مناقشة قصيرة بعد ذلك فأمسك بالمذكرات وراح يقرأها في صمت وتشاغلت عنه بإنهاء بعض أوراقي حتى انتهى منها ورفع رأسه إليّ محرجاً ومنتظراً تعليقي عليها فقلت له باختصار: لا تنتظر مني حديثاً طويلاً عن هذا الموضوع فكل ما أريد أن أقوله لك هو أن مكتبي هذا يشهد زيارات كثيرة لرجال كبار بعضهم من المشاهير وأصحاب المناصب الرفيعة والثراء العريض، ولكنهم من أصحاب الهموم والمشاكل الذين يبحثون عن سعادتهم، وأؤكد لك أن بعضهم إن لم يكن معظمهم مستعدون لأن يتنازلوا عن كل ما حققوه في حياتهم من نجاح وثراء أو شهرة مقابل أن يفوزوا من الحياة بزوجة محبة ومخلصة تقاتل للدفاع عنهم والتمسك بهم كما تفعل الآن زوجتك.. فلماذا تركل هذه الثروة الكبيرة بقدميك جرياً وراء «أخرى» لا تعرف هل ستحمل لك بعض هذه المشاعر المخلصة أم لا؟. وهل ستحرص عليك كل هذا الحرص كا تفعل زوجتك الآن أم أنها ستطردك من حياتها وشقتها عند أول خلاف وبلا ندم.. إنك ياصديقي تضحي بالموجود وهو ثمين وغال عند من يفهمون ويقدرون جرياً وراء المفقود وهو سراب غير مضمون ولا مؤكد.. فكيف تبيع حب زوجتك وطفلتيك.. بشقة مستقلة مع أخرى كانت زميلة لك في الجامعة وفرقت بينكما الأيام خمسة عشر عاماً طويلة لا تعرف ماذا تغير خلالها في شخصيتها ولست تضمن سعادتك معها..؟.. وكل ذلك لأنك تضيق بمتاعب الحياة في شقة والدتك.. وتعجز عن الصبر على ظروف حياتك التي قد تتغير إلى الأفضل بعد عام أو عامين أو في أي مرحلة من العمر.. ثم إنك تعاقب زوجتك وطفلتيك.. على جريمة لم يرتكبنها وهي عناد أمك وتسلطها وتدخلها في حياتك وعلى ظروف لم يصنعنها وهي عجزك عن توفير شقة مستقلة لهن بعيداً عن سيطرة والدتك.. إنك بذلك تظلم زوجتك وطفلتيك ومن يظلم الأبرياء.. لابد أن يظلمه الآخرون ذات يوم فالعدل مع الآخرين هو وسيلتنا الوحيدة لاتقاء ظلم الآخرين لنا وهو أيضاً دعاؤنا إلى الله بألا يختبرنا بما لا طاقة لنا على احتماله، فلماذا ترشح نفسك لشدائد الحياة وانتقام السماء بهذا التفكير الأناني؟!.

وانتهيت من حديثي إليه معتذراً عن قسوة عبارتي الأخيرة فأطرق برأسه مفكراً لفترة.. ثم رفعه أخيراً وقال لي مكتئباً: يبدو أن الحق معك.. سأعود إلى زوجتي.. وسأحاول احتمال متاعب الحياة مع أمي حتى النهاية.. شكراً لك.

وشكرته على ما قاله بحرارة وودعته حتى باب مكتبي باحترام وعدت إلى مقعدي مبتهجاً.. وهممت بأن أتصل بالزوجة لأبشرها بنجاح مسعاي مع زوجها.. لكني تذكرت ضعف الإنسان وتطلعه المحموم إلى ما يحقق له راحته وسعادته حتى ولو

كان ذلك على حساب سعادة الآخرين، وتذكرت قوة الإغراء الأخرى التي تمثلها تلك الزميلة القديمة والشقة المستقلة.. والأمل في التخلص من متاعب الحياة بلا عناء.. فتراجع ابتهاجي شيئا فشيئا.. وعدلت عن الاتصال بالزوجة مفضلاً ألا أسبق الأحداث بالتفاؤل، وفكرت قليلا فيما يمكن أن يفعله هذا الزوج بعد انصرافه من مكتبى.. فوجدت نفسي أزفر كأنها أغلق ملفاً مفتوحاً.. لكي أقرأ غيره وأقول:

- أفلح إن صدق!

ورددتها لنفسى مرة أخرى: نعم أفلح إن صدق وقاوم وغلب نداء الواجب الإنساني.. والعدل والرحمة والإيثار على نداء الأنانية وحب الذات والحلم الدائم با يحقق للإنسان راحته ولو على حساب الآخرين!.

ولم أسمع بعدها شيئاً عنه أو عن زوجته فلعله يكون قد اجتاز امتحان الأنانية بنجاح.. ولعل زوجته تكون قد تخلصت من آلامها وتعاستها فاستغنت بذلك عن كتابة المذكرات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دمـوع الأرملة!

ما هي؟ أغرب رسالة تلقيتها من قراء بريد الجمعة؟ هذا هو السؤال الذي أسمعه كثيراً في كل ندوة أشارك فيها وفي كل حوار إذاعي أو تليفزيوني أو صحفي يجريه معي أحد، ومع أن السؤال منطقي ومتوقع إلا أن ذاكرتي تخذلني غالباً كلما سمعته وتغيب عني كل الغرائب والعجائب التي شهدتها خلال اثني عشر عاماً منذ بدأت أكتب بابي الأسبوعي في الأهرام «بريد الجمعة» فأعتذر للسائل بضعف الذاكرة وربما أجبته أيضا بأنني من كثرة ما عايشت من غرائب الهموم والمشاكل لم أعد أستغرب لشيء أو أتعجب له، لكني ربما أتوقف أمام بعض الرسائل معترفاً لها بأنها قد نجحت في اختراق «حصانتي» ضد التعجب والاستغراب.

وإذا أردت الآن أن أحكي لك عن إحداها فسوف أرجع إلى بدايتها التي حركت كاتب الرسالة ودفعته لأن يروي لي قصته «المضادة».

أما البداية فقد كانت قصة حقيقية من غرائب الحياة حقاً نشرتها الصحف منذ سنوات عن الزوج الذي كان يعيش وحيداً مع زوجته في حي حدائق القبة بالقاهرة. ولم ينجبا أطفالاً، فامتزجت روحاهما وتشابكت خيوط حياتهما حتى تعذر على أحدهما أن يتخيل نفسه يعيش بعيداً عن الآخر، ثم ماتت الزوجة فجأة وبلا مرض سابق ولم يحتمل الزوج الحزين فكرة اختفاء زوجته من حياته أو ابتعادها عنه فأصيب باكتئاب حاد شل قدرته على التفكير والتصرف الصحيح.. ثم هداه تفكيره لأن يتكتم خبر وفاتها ثم يدفنها سراً في حديقة بيته ليطمئن إلى قرب جثمانها منه.

ونفذ ما أراده وعاش أيامه حزيناً لا يغادر بيته إلا إلى عمله.. وافتقد الأهل والأشقاء الزوجة التي لم تعد تزورهم كما كانت تفعل ولا يجدونها في بيتها حين يزورونها ويعتذر عنها الزوج دائما بأنها مسافرة.. مع أنها لم يسبق لها أن سافرت إلى مكان بغير زوجها.. وتصاعدت الشكوك في نفوس الأشقاء مع ما يلاحظونه على الزوج من أحوال مريبة.. فهو حزين حتى الموت وبلا سبب واضح، وقد فقد الكثير من وزنه خلال أيام قليلة وفقد شهيته للطعام وإقباله على الحياة، ولا يكاد يغادر البيت كأنما يحتمي بجدرانه من خطر مجهول.. ولم يصبر أحد أشقاء الزوجة على شكوكه فأبلغ الشرطة بارتيابه في اختفاء شقيقته وشكه في أن زوجها قد قتلها على الرغم مما يعرفه من أن شقيقته كانت دائماً على وفاق تام مع زوجها. وألقت الشرطة القبض على الزوج وكشفت تحرياتها عن وفاة الزوجة ودفنها في الحديقة، وواجهته النيابة بالاتهام بأنه قد قتل زوجته وإلا فلماذا لم يبلغ عن وفاتها.. ولماذا يدفنها في حديقة بيته؟ ولم يحتمل الزوج الاتهام الظالم واعترف بالحقيقة وهو أن زوجته قد ماتت ميتة طبيعية لكنه دفنها في الحديقة تنفيذاً لوصية كل منهما للآخر إذا سبق الأجل إليه حتى لا تنتهي عشرتهما بالموت!

وأكد تقرير الطبيب الشرعي صحة أقوال الزوج فسحبت النيابة اتهامها له بقتل زوجته واكتفت بأن حررت له مخالفة أو جنحة دفن في غير الأماكن المخصصة

لذلك، ولم يخف وكيل النيابة الذي حقق في القضية تعاطفه مع الزوج بل ورثاءه له ونصحه بالتماس العلاج النفسي ليخفف عنه آثار الاكتئاب الشديد الذي يعاني منه بعد فقده لشريكة العمر. ولا أعرف هل استجاب له الزوج أم لا، لكن القصة أثارت حين نشرتها الصحف منذ سنوات اهتمام القراء.. وتعليقات عديدة عن وفاء الزوج وإخلاصه لزوجته التي كره أن يبتعد عنه جثمانها.. وضرب بها كثيرون المثل على أن الرومانسية لم تختف بعد من حياة البشر ولا الحب الصادق أيضا ولا الوفاء لكن قارئاً مجهولاً قرأ القصة في الصحف واهتم بها كما فعل الآخرون فكان تأثيرها عليه مختلفاً تمام الاختلاف وكتب إليّ رسالة يقول لي فيها:

لقد دفعتني قصة هذا الزوج مع زوجته الصالحة لأن أروي لك قصتي وأهديها للأزواج السعداء الذين أنعم الله عليهم بالزوجة الصالحة حتى يحافظوا عليها ويعرفوا لها فضلها، فقد ماتت زوجتي أنا أيضا منذ فترة غير مأسوف عليها بعد حياة زوجية تعيسة! فلم أصل على جثمانها وفاء لنذر نذرته على نفسي ألا أفعل ذلك حين يوافيها الأجل، بل رحت أردد هذا الدعاء منذ خروج روحها حتى دفنها وهو: اللهم ضيق عليها قبرها اللهم احشرها في زمرة امرأة أبي لهب حمالة الحطب!

كما أنني كثيراً ما أزور قبرها وأناجيها بهذا «الدعاء» الذي يريحني وأراها تستحقه بجدارة، لقد حرمتني - لا غفر الله لها من ثلاث وأهدتني ثلاثا. حرمتني من المودة والرحمة والسكن وأهدتني: الكراهية والنفور والبرود. وقد ترتب على ذلك التالي:

حرماني من حقوقى الشرعية كزوج منذ ليلة الزفاف حتى يوم وفاتها! إنها كانت عونا للدهر عليّ ولم تكن عونا لي على الدهر!

إني لم أجد عندها الصدر الحنون بل كان صدرها شوكا وقنفذا!

إنها أنكرت خيري ولم تعترف لي بجميل قط طوال عشرتنا معا.

إنها كانت تمطرني دائما بوابل من قذائف لسانها وكان لسانها أحد من السيف وأشد مرارة من الحنظل كما كانت تستخدم أحيانا قبضة يدها كعامل مساعد للسان!

وكنت معها الزوج الأعزب رغم أني كنت أعيش معها تحت سقف واحد ونتقاسم معا فراشا واحدا، لكن جسدها كان محرما عليّ وجسدي محرما عليها فلا ملاطفة ولا كلمة طيبة ولم أر وجهها أبدا بل رأيت دائما في الفراش قفاها حتى يوم الرحيل!

وأعترف أني لم أتمالك نفسي من الضحك في البداية حين قرأت هذه الرسالة لأول وهلة.. ذلك لغرابة الصورة التي يرسمها كاتبها لزوج يسير في وداع زوجته فلا يستمطر عليها الرحمات وإنما يستنزل عليها اللعنات ويدعو لها ربه أن يضيق الله عليها قبرها، ثم يزور قبرها بعد ذلك ليردد أمامه نفس الدعاء البشع.. نعم ضحكت في البداية وكدت لا أصدق وقائعها لكني رأيت من ناحية أخرى أنه يتعذر على خيال أي مؤلف كوميدي أن ينسج مثل هذه الصورة من غرائب الحياة.

وأحسست بوهج الصدق في كلمات الرسالة الممرورة، فاضطررت لتصديقها راغما ونشرتها بعنوان الدعاء، واستبشعت تصرف الزوج ونفرت منه ورددت عليه ردا قاسيا سألته فيه: ولماذا قبل على نفسه الاستمرار في عشرتها وهي تحرمه من نفسها وتنكر عليه كل فضل، ولا تعينه على الدهر، وتستخدم اللسان وقبضة اليد الثقيلة في التفاهم. ولماذا لم يسرحها بإحسان ويتزوج غيرها وهو الذي لم ينجب منها كما فهمت من رسالته، وليس هناك ما يدعوه لاحتمال عشرة حياة بشعة إلى هذا الحد؟ والهجر في الفراش من أول الأسباب الشرعية التي تبيح للزوج استخدامه كرخصة من رخص الطلاق حماية لنفسه من الفتنة، بل وحتى لو كان قد أنجب منها فما الذي دعاه لاحتمال الحياة معها واختزان كل هذا الحقد والكراهية تجاهها حتى إذا ماتت عبر عنه بهذه الطريقة اللاإنسانية؟ وتذكرت حين نشرت الرسالة المسرحية الإنجليزية التي يروي فيها كاتبها عن زوج مات فبكته أرملته الشابة طويلا وبحرارة ولوعة حتى احتقنت عيناها من البكاء.. وواظبت بعد رحيله على زيارة قبره تحمل إليه كل يوم الورود، وتنساب دموعها في صمت حزين إلى أن رآها ضابط شاب جاء إلى المقابر مهموما بتنفيذ مهمة دفن عدد من الجنود الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية، ودار بينها حوار طويل عرف خلاله سبب حزنها وعرفت هي سبب همه وأنه قد فقد جثة أحد الجنود خلال عملية النقل مما سوف يعرضه للمحاكمة العسكرية، وبعد تطورات وأحداث أخرى دار بينها حديث طويل فعرضت عليه الأرملة الحزينة فجأة اقتراحا يمكن أن يخلصه من المسؤولية عن فقد جثة الجندي وهو أن يستخرج من قبر زوجها جثمانه ويسلمه كأنه جثة الجندي المفقودة، ويقوم بمراسم الدفن له مع باقي الجنود، ولم يتحمس الضابط الشاب للاقتراح لسبب هام هو أن الجندي القتيل كان مبتور الساق وجثمان زوجها لن يفيد في حبك الخدعة وإنقاذه من المسؤولية، وأطرقت الأرملة برأسها لبعض الوقت ثم غالبت ترددها طويلا قبل أن تعرض عليه أن يكسر ساق زوجها الراحل لتنجح الحيلة وينجو من المحاكمة، وأكدت له أنها تفعل ذلك لأنها قد تعاطفت معه وبدأت تحبه لأنه قد أخرجها من أحزانها.. وجدد أملها في الحياة، وقبل الضابط الشاب اقتراحها شاكرا، ونفذ ما أشارت عليه واستخرج جثمان زوجها من صندوقه ليلا وبتر ساقه، وأعاد الصندوق إلى مكانه وسلم الجثمان في الصباح التالي ونفذ المهمة المكلف بها على خير وجه واستراح.

وانتظرت الأرملة الشابة بعد ذلك أن يزداد ارتباطا بها فيعرض عليها الزواج، لكن الضابط الشاب ابتعد عنها ورفض الارتباط بها قائلا لها في صراحة قاسية: إنه لا أمان لامرأة قد فعلت بزوجها الراحل ما فعلته حتى.. ولو كان ذلك بدافع الحب!

ونزل ستار المسرحية على الزوجة وهي تبكي بحرقة أمام قبر زوجها لا تدري هل تبكي غدر الضابط الشاب بها.. أم تبكي وفاءها لشريك حياتها الذي لم يصمد طويلا أمام أول اختبار.

ورغم بشاعة الفكرة وخياليتها، فإن الزوج كاتب رسالة «الدعاء» قد فعل ما هو أبشع منها.. إذ لم يكتف بكسر «ساقها» بعد وفاتها كما فعلت الأرملة في

المسرحية وإنها مزق جثمانها كله قطعة قطعة بكلماته القاسية.. ودعائه الظالم عليها حتى ولو كانت تستحقه.

لهذا لم أعجب لحظة واحدة حين لم أتلق عقب نشر رسالته رسالة واحدة من أرملة أو مطلقة تعرض فيها الزواج من كاتبها. كما يحدث معي كثيرا عقب نشر كل رسالة لأرمل حزين ينعى زوجته أو لمطلق يشكو وحدته وسوء حظه في تجربة زواجه السابق، وإنما انهالت عليّ رسائل القارئات والقراء تعلق على الرسالة وتنتقد كاتبها انتقادات لاذعة، عملا بمبدأ «اذكروا محاسن موتاكم»!

نعم لم أعجب لإحجام القارئات عن التفكير في الزواج من مثل هذا الأرمل حتى ولو كانت زوجته تستحق كل ما وصفها به في رسالته أو حتى لو كانت معاناته معها صادقة.. إذ لا أمان حقا لأرمل يكسر ساق زوجته بعد رحيلها حتى ولو فعل ذلك بدافع الحب لغيرها.. فما بالك إذا لم يكن له من دافع لذلك سوى اجترار الحقد والمرارة على راحلة أصبحت بين يدي خالقها ولم يعد يجوز له إلا أن يطلب لها الرحمة أو يترك حسابها عما جنته عليه لخالقها.

وفى المقابل فكم من زوجة تمنت أن يكون زوجها في وفاء الأرمل الحزين الذي كاد يعرض نفسه لدخول السجن بإقدامه على دفن زوجته في حديقة بيته لكي يضع على قبرها كل يوم وردة وكم من أرملة أو مطلقة تمنت لو جمعت الأقدار بينها وبين هذا الأرمل الحزين لتنسيه آلامه وتجدد رغبته في الحياة وأن تقترن به فيمسح بوفائه لها أحزان تجربتها السابقة.

بل كم من زوج وزوجة احترموا هذا الأرمل على البعد والتمسوا له العذر فيها خالف فيه القانون وتمنوا لو أعفته السلطات المختصة من العقاب تقديراً لظروفه، وأظنها قد فعلت ذلك فعلاً، ولم يتجاوز عقابه أخف درجاته وهو الغرامة المالية أو الحبس مع إيقاف التنفيذ. وكم من زوج وزوجة على الناحية الأخرى قد سخطوا على الأرمل الذي يدعو على زوجته بعد أن ضحكوا كثيرا في البداية لغرابة موقفه وتصويره الساخر لعشرته مع زوجته الراحلة.

إننا قد نضحك أحياناً للأشياء.. لكن ذلك لا يعني أبدأ موافقتنا عليها أو إقرارنا لها.. وقد نبكي أيضا للأشياء.. لكن ذلك لا يعني أبدأ إنكارنا لعدالتها.

وهكذا فعل قراء بريد الجمعة مع كاتب رسالة «الدعاء» ومع بطل قصة الوفاء النادرة الأخرى في نهاية القرن العشرين.

وما أكثر الغرائب التي قرأتها ولمستها في رسائل قراء بريد الجمعة وما أعجب ذاكرتي «الخائنة» التي تخذلني في كل مرة حين يسألني أحد عن غرائبها وعجائبها!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكنها أبدا.. لم تحبه!

كانت صغيرة متفتحة للحياة تحلم بالحب والعش الجميل الهادىء مع فتى الأحلام. ورآها هو مرارا في النادي.. فخفق قلبه بشدة وتقدم منها ذات مرة يعرفها بنفسه.. ويسألها عن عنوان أسرتها فدهشت كثيرا.. وارتبكت قليلا، ثم تمالكت نفسها وأعطته العنوان!

لماذا أعطته العنوان؟.. هل أعجبها كشاب وتمنته زوجاً لها؟ لم تستطع أن تجزم بذلك لنفسها. أما هو فقد اعتبر إجابتها لطلبه تجاوبا مبدئيا وسعد به كثيرا.. وطار إلى أمه يزف إليها الخبر. أخيرا.

ابتسمت له الفتاة الجميلة الوديعة المهذبة التي يراها كثيرا في النادي وصرحت له بعنوانها. لم يبق إلا السؤال عن أسرتها ثم يسكن القلب إلى من اختاره.

وجاءت التحريات كلها في صالحها.. فالأب مهندس استشاري جاد في حياته ومعروف بحسن الخلق.. والأم ربة بيت فاضلة ترعى أولادها ولا تكاد تغادر بيتها إلا في المناسبات. أما أميرة الأحلام فطالبة جامعية متزنة ووادعة وسمعتها طيبة. وتقدم المهندس الشاب مع أسرته إلى أبيها يطلب يدها.. ورحب به الأب مبدئيا.. وسأل ابنته فترددت.. ألا يعجبك؟ لا أعرف. ألديك اعتراض عليه؟ لست متأكدة إذن فلنرجيء الأمر كله إلى أن تحددي موقفك.. وتم إبلاغ الشاب بالرفض، فصدم لكنه لم ييأس ولم تيأس أمه من محاولة إقناعها.. فلقد أعجبتها أيضاً شخصية الفتاة وهدوؤها ورزانتها وتمنتها زوجة لابنها.

وتكررت الزيارة وتكرر التهرب من الموافقة.. وسألت الأم ابنتها لماذا ترفضينه؟ إنه شاب وسيم وناجح ومهذب تنطق عيناه بحبك فلا تجد الفتاة إجابة مقنعة.. هل تحبين أحدا غيره؟.. لم أعرف الحب بعد إذن لماذا لا تقبلين به وتعطين لنفسك الفرصة لحبه؟ سأجرب، وارتاحت الأم أخيراً. وتمت الخطبة وسعد المهندس الشاب بفتاته سعادة طاغية.. وقبل يدها بامتنان في حفل الخطبة.. وبدأ الاستعداد للزواج.. وغمرها بحبه وعطفه وكرمه.. وفى غمار استعداداتها للزفاف سألت نفسها.. هل أحبته؟ فجاءها الجواب كالصدمة!

إذن لماذا ارتبطت به؟ لماذا تسيرين معه كالمنومة في طريق لا تريدين السير فيه إلى نهايته. قالت تحاول تفسير موقفها لنفسها بأنها تحس أنها قد تورطت في ارتباط لم تشعر بالحب فيه.. ولم تستطع التراجع عنه.

وكالسائرين نياماً مضت في الطريق إلى نهايته.. وطار الشاب فرحاً بزوجته الملائكية الجميلة، وعاهدت هي نفسها رغم جفاف منابع الحب في قلبها ألا يلمسها إنسان سواه.. ليس حباً له وإنما احتراماً لنفسها وأنجبت طفلين جميلين سعدت بهما واكتملت بهما أركان عش الأسرة الصغيرة. وبعد سنوات توقفت في منتصف الطريق تسأل نفسها: هل أحبت زوجها؟ وجاءها الجواب مرة أخرى كالصفعة. هل تريدين استكمال المشوار معه؟ لا. هل تريدين الطلاق؟ لا أقدر على مواجهة أهلي ونفسي والمجتمع به؟ إذن ما المخرج من هذه الورطة؟ وتردد

الجواب في سمعها قاسيا، فأنكرته في البداية وهزت رأسها بعنف لتطرده منها لكنه بقي يدوي بإصرار في أذنيها؟ المخرج هو أن يأتي الحل من السماء! أن يحين أجل زوجها فجأة.. ويحم عليه القضاء فتتحرر من قيده.. وتبرىء نفسها أمام ضميرها من أي إحساس بالذنب تجاهه.. ثم تبدأ حياتها من جديد؟

إلى هذا الحد كرهته؟.. لم تكرهه وهذه هي الحقيقة العجيبة، لكنها أبداً لم تحبه ولم توقظ لمساته عملاق الحب النائم في قلبها. لم يكن بشعاً في معاملته لها.. بل كان محباً رقيقاً يتفانى في حبها وإرضائها ولا يفوت فرصة بغير أن ينتهزها لتقبيل يدها بل وأحيانا قدمها.. ليعبر لها عن امتنانه لها ولا يدع مناسبة بغير أن يفخر في مجتمعه الصغير بهذه الزوجة المثالية.. التي يقول للجميع إنه يخاف أحيانا عليها من الوقوف في النافذة خشية أن ينبت لها فجأة جناحان فتحلق بها كالملائكة في الفضاء السحيق.. ولا تعود إلى عشها الجميل!

لماذا إذن لم تحاول أن تغير من مشاعرها نحوه؟ لقد حاولت أو هكذا قالت.. لكن مشاعرها لم تتغير تجاهه.. وأبدا لم تتولد شرارة حبه في قلبها. حاولت أن تتشاغل عن جفاف الحب في قلبها بكل ما هو مفيد لشخصيتها وأسرتها.. فأكملت دراستها العليا وعملت وحصلت على الماجستير.. وانشغلت بابنها وابنتها وأنشأت معهما علاقة حميمة مثالية ونسيت حكاية الحب في حياتها.. لكنه لم ينسها. فلقد اندلعت

شرارة الحب التي انتظرتها طوال خمسة عشر عاما فجأة.. ولكن في الاتجاه البعيد!

فقد أحبت زميلا لها في العمل.. وأحبها.. واندفعا معا بعد مقاومة يائسة إلى المياه العميقة!

خيانة؟ نعم.. لكنها حاولت أن تدافع عن نفسها بأن ضميرها مستيقظ دوما وأنها عاهدته ألا يلمسها أحد سوى زوجها الذي لا تحبه لكن الخيانة بالقلب.. خيانة أيضا وإثم كبير.. فلماذا؟ وتجيب على صوت ضميرها قائلة: رباه ما حيلتي.. وأنا لم أحس بنفسي صادقة.. ولم أتصرف بفطرتي وروحي البدائية إلاَّ معه، إنني معه لا أختار كلامي.. وأفكر معه ويفكر معي وإذا طرحت أمامنا مشكلة عرف كل منا بغير كلام ماذا سيكون رأي الآخر فيها.. إنه حب وحشي غير قابل للترويض. عرفت معه كيف تمر ساعات العمل في لمح البصر.. وتذوقت فيه لأول مرة أغاني الحب والحنين التي كنت أسخر منها.. وصرخت لنفسي وأنا على حافة الأربعين من العمر: يا إلهي إنني أحب.. فأعنّي على أمري!

وفكرت طويلاً.. وقررت أن تطلب الطلاق من زوجها لأنها لا تحتمل خيانة القلب لمن مازالت تحمل اسمه.. وطلبت الطلاق ففوجئت «بكونصلتو» من الأطباء يجتمع حول فراشها.. وكلام يقال في هيئة الحكماء عن الأعصاب المتعبة... وحاجتها إلى الراحة من العمل ومسؤولية البيت لفترة مناسبة.. ثم أنواع عديدة من المهدئات.

وضاقت بكل شيء فقالت لزوجها: لا أحبك ولم أحبك يوما واحدا منذ عرفتك.. فأجابها بعطف: إنها أزمة تمر بها معظم الزوجات في منتصف العمر.. وسوف تمضي بسلام إن شاء الله.

وقالت له: طول عمري أتمنى موتك لأتخلص من حياتي معك فأجابها «بفهم» هذا لأن ضميرك حى يرفض الحلول الأخرى التي لا يرضاها لك! أخيرا قالت له بصراحة قاسية: أحب رجلا غيرك.. ولم أحب في حياتي سواه ولن أحب غيره إلى نهاية العمر، صحيح أنني لا أسمح لنفسي بأكثر من الحب الصامت، لكنه خيانة لا أتحملها أيضا، فحررني من قيدي لأريح ضميري من أثقاله وسوف أتحمل تبعات الانفصال والحرمان من أولادي ثمنا لهذا الحب الطاغي، فأجابها «بصبر» بأنها أزمة عابرة سوف تتغلب عليها وتبرأ منها.. وأنه يثق في أن ضميرها وأخلاقها سوف يساعدانها على اجتيازها بأمان!

ويئست من فكرة الطلاق ومن حل مشكلتها ونهضت من فراشها بعد أسابيع وعادت إلى عملها.. وواصلت حياتها تتفرج على الحياة من حولها في فتور وتنام بالأقراص المنومة.. وتتعامل مع الجميع برفق ولكن بلا حماس.. ولا إقبال، وقالت كأنها تجيب على سؤال لم يوجهه لها أحد: أعرفتم الآن من أين تنبت فكرة أكياس البلاستيك التي عبأت بعض الزوجات أزواجهن فيها بعد قتلهم.

قد يعتبرني البعض إنسانة خاطئة شريرة ناقصة التربية لكني أقولها بشجاعة أنني غير ذلك تماما.. فأنا سيدة طيبة وجميلة وضميري يزن الكرة الأرضية كلها. ولست أريد سوى أن تسعدني الحياة كما أسعدت أنا طوال السنوات الماضية زوجي وأولادي وأسرتي.. أريد من يسعدني كما أسعدت أنا غيري ولا سعادة لي إلا مع من أحببت وكان لسوء حظي شخصا آخر غير زوجي.. وفى غمار أزمتها كتبت إليّ تعلق على رسالة نشرتها في بريد الجمعة بالأهرام لزوجة تواجه موقفا مشابها فروت لي قصتها ، ثم قالت: قرأت ردك على الزوجة التي تشكو لك من تعاستها مع زوجها الذي تكرهه منذ عرفته، ويظنها زوجها كما يفعل زوجي ملاكا مثالياً، لكنها خائفة من أن تتخلص من حياتها التعسة إشفاقاً على نفسها من كلمة «مطلقة» وخوفا من المجهول، وقد نصحتها يا سيدي بأن تراجع نفسها لمدة عام آخر لا تنجب خلاله فإن ظلت مشاعرها ثابتة على كراهيته طلبت الطلاق وتمسكت به حتى تناله، ثم بدأت حياة جديدة لكيلا تظلم معها زوجها الذي تحمل له كل هذه الكراهية بلا ذنب جناه وحتى لا تخونه بقلبها وفكرها كما قد تفعل في أية لحظة.

أما أنا فإني أقول لها عن تجربة شخصية إن من «واجبها» أن تحصل على الطلاق منه الآن وليس بعد عام آخر بغير أن تخشى لقب المطلقة أوتفزع منه لأن مشاعرها لن تتغير حيال زوجها لسبب جوهري هو أنهما لا يتراسلان على نفس الموجة كما هو الحال معى وزوجي، وأريدها أن تفعل ذلك الآن بلا تردد حتى لا تتعذب كما أتعذب أنا الآن.. فهي ليست ملاكا.. ولا أنا أيضا ملاك من السماء.. وإنما كل منا امرأة لها مطالبها فإن لم تتحقق لها في أول فرصة زواج.. فلماذا لا تجرب مرة أخرى.. وربما مرة ثالثة؟ إن عمر الأرض سبعة عشر مليار سنة

شمسية وقد مضى من عمرها الكثير ولم يبق إلا القليل.. فكيف نضن على أنفسنا بالسعادة في هذا الوقت القصير الباقى من عمرها وعمرنا؟

ووقعت رسالتها في نهايتها بهذا التوقيع: صديقتك الملاك المثالي!

وقرأت الرسالة وتوقفت طويلا أمام بعض عباراتها.. وأمام حرارة كلماتها بغض النظر عن اتفاقي أو اختلافي مع صاحبتها المثقفة في الرأي.. ثم أودعت الرسالة ملف الرسائل الممنوعة من النشر في بريد الجمعة ليس لتفاهة المشكلة فالحق أنها مشكلة حقيقية وإنها خوفا من الوقوع في مصيدة «تجميل الخطأ» أو تبريره.. أو التماس الأعذار له بما يغري الآخرين بالإقدام عليه مدفوعين بإحساس الارتياح الآثم الذي يحس به المرء أحيانا حين يعرف أنه ليس وحده من يرتكب نفس الخطأ.. وأن هناك من هم مثله في نفس السفينة بل ويجدون أيضا في أنفسهم الشجاعة لتبرير ما فعلوا أو للدفاع عنه بمنطق قد يبدو خلابا أو مقنعا فيستهوي بعض المترددين ويدفعهم إلى نفس الطريق!

نعم.. حجبت الرسالة عن النشر واحتفظت بها في ملف الرسائل الممنوعة الذي يحوي الكثير والكثير من غرائب الحياة وعجائب النفس البشرية التي لم يكشف العلم بعد كل أسرارها.

أما القضية التي تثيرها الرسالة فلقد حسمتها منذ زمن طويل بعد تفكير عميق وتوصلت إلى رأي محدد فيها أصارح به كل من تلجأ إليّ في مشكلة مشابهة، وهي أن الناس ينقسمون أمام طلب السعادة الشخصية إلى موقفين: الأول هو موقف من لا يستطيع أن يستشعر السعادة الحقيقية إذا ترتب عليها إشقاء أعزائه أو تعاستهم، فيضحي بسعادته الشخصية لحساب سعادة أبنائه ويحتفظ بمشاعره في مكان من القلب ويتعزى بها عما يعانيه في حياته الخاصة ثم يمضي في الحياة حاملا صليبه على كتفه إلى أن يصل أبناؤه إلى بر الأمان، أو ترق له الحياة فتهبه السعادة ذات يوم بغير إشقاء الآخرين.

أما الثاني فهو موقف من لا يحتملون التضحية بسعادتهم الشخصية لحساب أحد ولو كانوا أبناءهم.. ويؤمنون بمنطق الممثلة جولييت التي أحبت الأديب الفرنسي العظيم فيكتور هيجو ووهبت له حياتها وهو زوج لأخرى وأب لأبناء كثيرين وكتبت له ذات مرة: «لو كان للإنسان أن يشتري سعادته بحياته لأنفقت حياتي منذ زمن طويل»!

وهؤلاء يطلبون سعادتهم الشخصية مهما ترتب على نيلها من تبعات يدفع أعزاؤهم ثمنها. ولسنا هنا بصدد محاسبتهم على ذلك، لكني أطالب دائما كل زوجة تروي لي قصة مشابهة بأن تحاول دائما تغليب سعادة الأبناء خاصة إذا كانوا صغارا على سعادتها الشخصية، فإن لم تطق صبرا على ذلك فإني أرى أن انفصالها عن زوجها وتحمل كل تبعاته أكرم لها من الاستمرار في الخطأ دون محاولة للتوقف عنه.. أو الخروج من دائرته. اختيار صعب؟ نعم.. لكن لابد من حسمه والانحياز لأحد الموقفين بوضوح وتحمل تبعات كل اختيار.

أما بطلة القصة المثقفة التي تتحدث عما بقي من عمر الأرض.. السعادة فقد ذكرتني نصيحتها للزوجة الأخرى بأن تنفصل عن زوجها وألا تخشى مواجهة التجربة أو الخوف من كلمة مطلقة، بقصة الحمامة والثعلب والطائر المعروف باسم مالك الحزين التي جاءت في «كليلة ودمنة».. فلقد اعتاد الثعلب أن ينتظر حتى تبيض الحمامة في عشها بأعلى الشجرة ثم يأتي إليها ويطلب منها أن تلقى إليه بيضها وإلا صعد إليها وقتلها فتلقى إليه بيضها باكية إلى أن شكت لمالك الحزين حالها، فطلب منها إذا جاءها الثعلب في المرة القادمة وتوعدها نفس الوعيد أن تطلب منه أن يصعد إلى الشجرة لينال ما يريد، لأنه لا يستطيع ارتقاء جذع الشجرة، وجاء الثعلب وتوعدها فأجابته بما علمها مالك الحزين، وفهم الثعلب أن هناك من نصحها وسألها من نصحها وسألها عنه، وتوجه إلى مالك الحزين وأبدى له إعجابه بحكمته وسأله أين تجعل رأسك إذا جاءتك الريح من شمالك فأجابه: أجعله عن يميني فطرب للإجابة الذكية وسأله وأين تجعله إذا جاءتك من يمينك فأجاب: أجعله عن شمالي فتأوه إعجابا بهذه الفطنة ثم سأله وأين تجعله إذا جاءتك من كل ناحية.. فأجابه: أجعله تحت جناحي.. وطلب منه الثعلب أن يريه كيف يفعل ليتعلم منه حسن التصرف فأدخل مالك الحزين رأسه تحت جناحيه، وانقض عليه الثعلب في لحظة وتمكن منه ثم قال له قبل أن يلتهمه:

يا عدو نفسه.. ترى الرأي لغيرك.. وتعلمه الحيلة.. وتعجز عن ذلك لنفسك؟!

وهكذا نفعل جميعا.. في بعض الأحيان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفراح.. محزنة!

سألتني المذيعة الشابة: هل تتأثر بمآسي بريد الجمعة التي تكتبها كما نتأثر بها نحن.. وهل تبكي مع سطور بعضها.. كا نبكي نحن مع كثير منها؟ فأجبت: من لا يتأثر.. لا يؤثر! فإذا كانت بعض رسائل بريد الجمعة تؤثر في قرائه وتستدر دموعهم.. فلابد أنها قد أثرت فيّ قبل أن تؤثر فيهم.. ولو لم تفعل ذلك لما أهاجت مشاعري ودفعتني لأن أكتبها وأعرضها على القراء وأشركهم مع صاحبها في أشجانه وآلامه، بل إني لاحظت من خبرة السنين في التعامل مع هموم الآخرين، أن ما أتوقف عنده متأملا ومتأسيا وأحيانا دامعا في قصص هؤلاء المهمومين، يكون هو نفسه ما أسمع من القراء فيها بعد أنهم قد بكوا عنده أو تألموا له، فكأنني بذلك قد اكتسبت خبرة التنبؤ بمواطن البكاء في رسائل من أنشر قصصهم ببريد الجمعة، لكنها خبرة بدائية لا تعتمد على أجهزة حديثة ولا تكنولوجيا متقدمة، وإنها تعتمد فقط على الغدد الدمعية وعلى ضيق الصدر أو انفراجه تأثرا بما أقرأ.

فإن كان للخبرة دور في ذلك.. فهو دور نسبي يقلل من المعاناة أحيانا بسبب الاعتياد وعامل التكرار لكنه لا يحول دونها.

عادت المذيعة الشابة تسألني: لكن لماذا تؤثر فينا معظم رسائل بريد الجمعة وتستدر دموعنا أكثر مما تفعل أحيانا بعض الأفلام الميلودرامية في كثير من الأحيان.. هل عندك تفسير لذلك؟

فأجبت: نعم.. لأن النائحة الثكلى ليست كالمستأجرة! ففي الأفلام والقصص نقرأ تجارب إنسانية وفنية قيمة تؤثر فينا.. وقد تستدر أحيانا دموعنا.. لكن عقلنا يعي طوال الوقت أننا نقرأ أعمالا فنية مؤلفة، أما في أبواب البريد بصفة عامة فنحن نقرأ قصصا نعرف أن أصحابها أشخاص حقيقيون يعيشون بيننا وينزفون آلامهم على الورق أمامنا. وحيث أنه «لا يعرف الشوق إلا من يكابده» فإن كلماتهم تلقى صدى أعمق لدينا لأنهم «ينوحون» بالأصالة عن أنفسهم وليس بالوكالة عن أحد آخر كما تفعل النائحة المستأجرة!

رجعت المذيعة الشابة تسأل: ما هي أكثر المواقف الإنسانية التي تأثرت بها أنت شخصيا في رسائل بريد الجمعة خلال السنوات الماضية؟

فكرت قليلا ثم قلت: تمس قلبي المواقف الإنسانية البسيطة أكثر مما تؤثر في المواقف الميلودرامية الصاخبة. وتبكيني عبرة الرجل الصامتة أكثر مما يؤثر في عويله، وتهزني الدموع الحبيسة في عيني المرأة وهي تقاوم النزول أكثر مما تهزني دموعها المدرارة كفيضان النهر.. ويؤلمني إحساس الإنسان بالقهر والعجز أمام أقدار لا حيلة له فيها ولا طاقة له بها أكثر مما تؤلمني بعض فواجع القدر نفسها. ويرق قلبي لمن يشكو لي همومه الإنسانية كوحدته أو افتقاده للأهل والرفيق.. أو مرضه.. أو تعاسته الخاصة أو انقطاع صلة رحمه أو غدر الأحباء به أو جحود الأبناء له، أكثر مما يرق لمن يشكو لي هموماً تجارية أو مالية أو

هموما تتعلق بالنزاعات بين الأفراد أو الطموح لتحقيق حياة أرقى. وتدمع عيني في بعض مواقف السرور كما تدمع في مواقف الألم.. ومازلت حتى الآن وقد بلغت من العمر ما بلغته أختنق أحيانا بدمع حبيس كلما شاهدت زفة فرح لعروسين من البسطاء كل ما حولها بسيط ورخيص وبائس فأتردد بين الابتهاج بها والرثاء لها ويتغلب الرثاء في الغالب فأكتئب لها بدلا من أن أبتهج! وهذه طبيعة «اكتئابية» يبدو أنني قد اكتسبتها من طول معاصرة الهموم والتعامل معها.

قالت المذيعة الشابة: ما هي أكثر الرسائل التي أثرت فيك خلال السنوات الماضية؟

أجبت: كل الرسائل الحزينة.. وكل الرسائل التي تشكو من تصاريف القدر وفقد الأعزاء.. وانهزام الإنسان أمام المرض.. وانهزام الحب أمام الظروف المادية.. أو الغدر وانعدام الوفاء.. لكن بعض مواقفها أثرت فيّ أكثر من غيرها، فإذا استرجعت ذاكرتي وجدتني أتوقف أمام مواقف مثيرة للتأمل لا تتكرر كثيرا في الحياة.. وحين تقع تترك في نفوسنا أثراً مبهما كالحزن البنفسجي الشفيف.. مثل موقف الشاب المكافح الذي كان يدرس بكلية طب الاسكندرية ويواجه ظروفا اجتماعية قاسية.. ولا يجد قوت يومه ولا تكاليف دراسته فعمل في أعمال عديدة بعيدا عن منطقة كليته ليوفر لنفسه الحد الأدنى من نفقات الحياة، وقد عمل في البداية كبائع سمك فترة، فكان يخرج في الفجر ويشتري السمك من الصيادين ويطوف به الشوارع ليبيعه ويكسب قروشا قليلة ثم يعود إلى بيته ويغير ملابسه ويذهب إلى كليته، ثم أعجبت به زميلة له لاحظت عليه إرهاقه الدائم وجديته واستقامته فاقتربت منه.. واقترب منها. وأتاحت له الظروف أن يعمل عاملا لتوزيع البوتاجاز، فكان يبدأ يومه بالذهاب إلى المستودع ويحمل على عربة يد صغيرة ٢٠ أنبوبة بوتاجاز يطوف بها الشوارع في الصباح الباكر، ويحمل الأنابيب الممتلئة على ظهره إلى الشقق وينهي عمله قبل العاشرة صباحاً، فيغير ملابسه ويذهب إلى الكلية. واستمر يمارس هذا العمل عامين تعمقت خلالها المشاعر بينه وبين زميلته، إلى أن مرض زميل له فأضاف صاحب المستودع إليه مهمة التوزيع في منطقة الزميل المريض وأدى عمله في سلام، ثم طلب منه ذات يوم بواب إحدى العمارات بالمنطقة الجديدة أن يحمل أنبوبه إلى إحدى شقق العمارة ففعل.. ودخل إلى المطبخ وقام بتركيب الأنبوبة واختبارها ثم حمل الأنبوبة الفارغة على ظهره وغادر المطبخ إلى باب الشقة، واستدار ليتقاضى أجره ففوجىء بزميلته تقف وراء ربة البيت تتأمله صامتة ومذهولة، فتجمد في موقفه لحظات ثم أحنى رأسه خجلا وتسلم أجره.. وهرول على السلم وهو في قمة الحرج والألم. ورغم أن الفتاة حاولت بعد ذلك أن تقنعه بأنها معجبة به وبكفاحه. إلا أن واقعه الاجتماعي قد حال بينه وبين الارتباط بها بعد التخرج فقد رفضته أسرتها.. ولم تكافح فتاته طويلا لإقناع أهلها به، واستسلمت بعد مقاومة قصيرة لرغبة الأسرة في أن تتزوج من عريس مناسب اجتماعيا وماديا.. وتزوجته فلم تسعد به ولم تستقر معه أكثر أكثر من ثلاثة أعوام ذاقت خلالها أهوالا من التعاسة والمرارة وعادت الى بيت أسرتها مطلقة حزينة تحس بأنها قد أخطأت في حق نفسها وحق شريك أحلامها السابق حين لم تتمسك به إلى النهاية، وبعد فترة من

التفكير ومراجعة النفس قررت أن تصلح خطأها، وبحثت عن الفتى المكافح القديم وركبت القطار إليه في أقصى الصعيد حيث هاجر إلى هناك هاربا من تعاسته. ورفع الطبيب الشاب رأسه وهو جالس إلى مكتبه في عيادته البسيطة فوجدها أمامه فجأة.. تنظر إليه في خجل.. وتوجس وتنتظر كلمته.. في مصيرها.. هل يعفو عنها. ويستكمل معها القصة الناقصة أم يستسلم للمرارة القديمة ويرفضها؟ فلم تمض ساعتان حتى كان المأذون يعقد قرانها في شقة صاحب البيت الذي تقع فيه العيادة، وكان صاحب البيت الشهم يحتفل بزواجهما ويتصل بأهلها في الاسكندرية ليبلغهم الخبر. ورغم أن القصة قد انتهت نهاية سعيدة، فلقد تأثرت بأحد مواقفها أبلغ التأثر وهو اللحظة التي التقت فيها عين طالب الطب المكافح وهو يرتدي ملابس العمال ويحمل أنبوبة البوتاجاز على ظهره.. بعيني فتاة القلب الذاهلة التي تنظر إليه في دهشة.. وانزعاج! وقد تأثرت بها لأنها «لحظة انكسار» إنسان أمام واقعه الأليم أحس فيها بالحرج والألم.. والعجز والهوان، ولا شيء يمس قلبي كما يمسه انكسار الإنسان الذي كرمه ربه ورفعه فوق كل الكائنات، أمام ظروف أقوى منه.. أو واقع يخجل منه.. كما تأثرت أيضا باللحظة التي رفع فيها هذا الطبيب الشاب رأسه في عيادته على بعد 600 كيلو متر من المدينة التي شهدت هزيمة حبه، فرأى أمامه فتاة القلب التي لم ينسها لحظة واحدة خلال السنوات الماضية تنظر إليه متوجسة من أن يكون رد فعله للقائها مخيبا للآمال. إنها لحظة انكسار أخرى لكنها تختلف عن الأولى لأن صاحبتها تحسه بدافع الندم على ما فات. وليس بدافع العجز أمام الظروف القاهرة.

باختصار قلت للمذيعة الشابة كل ما يشعر الإنسان بالهوان والعجز وضآلة الشأن.. والمرارة.. يؤلمني ويثير مواجعي.

قالت المذيعة الشابة: هل يرتبط التأثير عندك بالمواقف الحزينة أو المؤلمة فقط؟

أجبت: ليس دائما.. فهناك بعض المواقف «البهيجة» التي تثير من الألم أحيانا أكثر مما تثيره بعض المواقف الحزينة، بل إن هناك من البشر من قد يبكيني فرحهم بأكثر أحيانا مما قد يبكيني حزنهم، وهؤلاء هم الأشخاص الذين نستطيع أن نقول عنهم: إن أحزانهم كثيرة وأفراحهم قليلة، فإذا رقت الحياة لهم ووهبتهم لحظة فرح طاغ مباغت استدروا بفرحهم الصادق من الدموع أكثر مما استدروا من قبل بآلامهم. إن فرحة «قليل البخت» تبكيني ولا حيلة لي في ذلك ولا تفسير له منطقيا أو علميا عندي!! وإذا سألتيني عن مثال لذلك فسأحكي لك موقف الشاب الذي نشرت رسالته منذ 7 سنوات أو أكثر بعنوان «الفصل الأخير» في زفاف شقيقته الوحيدة، فقد نشأ يتيمين في رعاية أبيهما وتوفى الأب وهما في المرحلة الثانوية فتساندا في الحياة شقيقين يتيمين لا خال ولا عم ولا قريب واضح القرابة لها، كأنهما مهاجران إلى مصر من قارة بعيدة، يعيشان على معاش الأب وكلما اشتدت عليهما ضغوط الحياة بكت الشقيقة فواساها الشقيق وهو يجفف دموعه!.

ومضت بهما الحياة حتى تخرجا وعمل الشقيق وعملت الشقيقة، ثم تقدم لها شاب أحبها فقدم لها شقيقها كل ما يملكه من إمكانات وباع حلى أمها واستدان من عمله لكي يزفها إلى زوجها بشكل كريم يعوضها عن يتمها وانعدام الأهل، وجاء حفل

الزفاف فسعد الشقيق بفرحة شقيقته سعادة طاغية، وغلبته مشاعره فأمسك بالعصا ورقص مبتهجا بين يدي شقيقته وعريسها.. ثم التقت عينه صدفة بعيني شقيقته فوجدها تصفق له ضاحكة ودموعها تسيل كالنهر، فعز عليه ألا يشاركها دموعها فجاوبتها دموعه وهو يرقص طربا ووصف لي هذا المشهد معلقا عليه بعبارة لم أنسها حتى الآن «وكأننا لا نعرف في حياتنا إلا البكاء»! وفى القصة تطورات أخرى مؤلمة.. لكني لا أتوقف دائما إلا أمام هذا المشهد الفريد. إنها فرحة ذوي الأفراح القليلة والأحزان الكثيرة التي تثير التأمل.. وتوجع القلب! ومن أمثلتها أيضا فرحة الشقيق الأصغر في رسالة «أوراق الشجرة» وقصته أنه الإبن الأصغر لطبيب كبير شهير.. أراد أن يكون كل أبنائه من الناجحين مثله فحققت البنت الكبرى والإبنان الأولان آماله وتخرجوا في كليات مرموقة وتعثر الإبن الأصغر سيىء الحظ الذي رحلت عنه أمه وهو صغير وفشل في الحصول على الثانوية العامة وهال الطبيب الكبير الذي تزوج بعد وفاة زوجته أن يكون له ولد «فاسد» لم يكمل تعليمه فطرده من بيته وقاطعه نهائيا وحرمه من جنته لرفضه أن يبدأ من جديد، ويدرس الثانوية العامة بنظام المنازل. وفشل الشاب في استرضاء أبيه وإقناعه أن هذه هي قدراته التي تختلف عن قدرات أشقائه وأنه لا يريد منه شيئا سوى ألا يحرمه من أبوته، لكن قلب الأب أوصد في وجهه رغم تعاطف أشقائه معه، فخرج الشاب إلى الحياة يكسب رزقه بأعمال صغيرة.. وعمل بائعا في محل أحذية ورضي عنه صاحب المحل لأمانته وأخلاقه لكنه فوجيء به ذات يوم يستدعيه ويعطيه أجره مضاعفا ويصرفه فوقف الشاب مبهوتا ومختنقا بالدمع وسأله بصوت خفيض: لماذا تقطع رزقي يا سيدي.. هل رابك مني شيء؟ فيجيبه صاحب المحل متألماً: لا والله لم ألمس منك إلا كل خير وجد وأمانة وأخلاق كريمة.. ولكن! ويسكت صاحب المحل.. ويفهم الشاب أن أباه قد «وصل» إليه وأرغمه بنفوذه على طرده ليجبره على تحقيق حلمه المستحيل في إعادة الثانوية العامة، ويظل الشاب ينتقل من عمل إلى عمل ويحرص على صلته بأشقائه الذين هاجر أحدهم إلى أمريكا ليحصل على الدكتوراه وتزوجت الكبرى وهاجرت إلى أوروبا مع زوجها إلى أن جمع الله الله بينه وبين فتاة مكافحة من أسرة صغيرة فتزوجا وساندته أسرتها البسيطة وأعانته على فتح محل صغير لبيع السجائر والحلوى في أسفل بيتها، ويحرص الأشقاء المرموقون على صلتهم الأخوية بشقيقهم ضئيل الشأن أبيض القلب الذي يحمل لهم في قلبه أعمق مشاعر الحب والعرفان، في حين يواصل الأب القاسي رفضه له ومقاطعته حتى النهاية، ثم يكون الشاب المكافح واقفا في محله الصغير ذات يوم فتتوقف سيارة أجرة أمامه ويفاجأ بشقيقه الدكتور المهندس الغائب في أمريكا منذ سنوات ينزل منها ومعه زوجته الأمريكية وابنه الطفل الوليد فتنتابه فرحة هستيرية برؤية شقيقه وحضوره مع أسرته لزيارته، فيعانقه مرات ومرات ويرحب بزوجته بحراره طاغية.. ثم يحمل طفل شقيقه الذي لم يره من قبل فوق رأسه وتغلبه مشاعره فلا يدري إلا وهو يرقص به في الشارع سعيداً.. والطفل آمن باسم مستسلم له كأنه كما قال لي في رسالته «يعرف أنني عمه»! ثم يصطحب الجميع إلى شقته البسيطة فوق المحل.. ويمضي الجميع معا وقتا سعيدا صافيا ويكتب الشقيق

لشقيقه بعد عودته إلى أمريكا أنه قد زار في مصر أماكن فخيمة كثيرة، وأقام في أفخر الفنادق، وتناول طعامه في أغلى المطاعم «فوالله إني لم أشعر في مكان منها بمثل ما شعرت به من أمان وسلام وصفاء وأنا في بيتك الجميل الصغير ولم أستطب طعاما كما استطبت طعام زوجتك المهذبة الودودة، فحتى الماء كان له في بيتك طعم خاص لا مثيل له.. وزوجتي تشاركني في هذا الرأي» ولقد أوجعت هذه القصة قلبي بأحزانها وأفراحها معا.. فتوقفت أمام اللحظة التي يسأل فيها الشاب المكافح صاحب محل الأحذية بانكسار عن سبب قطع رزقه.. وتوقفت أطول أمام فرحته «المؤلمة» بمجيء شقيقه المرموق مع زوجته الأمريكية وطفلها ليزوروه في عمله الصغير وسكنه المتواضع، وكان أكثر ما ألمني فيه هو إحساسي بأن جزءا كبيرا من أسباب هذه الفرحة الطاغية يرجع إلى سبب مؤلم إنسانيا، هو استشعار الشاب البسيط «للتكريم» الإنساني له من جانب شقيقه اللامع باصطحاب زوجته وطفله إليه كأنما يقول له إنك شقيقي مهما اختلفت حظوظنا في الحياة.. لقد كانت فرحة «عرفان» إلى جانب كونها فرحة الشقيق برؤية شقيقه الغائب.. وقديما قالوا: إن من «يعرف» أكثر «يحزن» أكثر لأنه يفهم أكثر الأبعاد المؤلمة لبعض تصرفات الإنسان المعذب بالبحث عن سعادته منذ الأزل..

وأخيرا قلت للمذيعة الشابة: إني قد تعبت من الاجترار واستعادة المشاهد المؤلمة، ورجوتها أن يتوقف الحديث عند هذا الحد، فقالت: سؤال أخير.. لمن تكتب باب بريد الجمعة في «الأهرام» بأحزانه ومآسيه هذه؟ تفكرت في سؤالها طويلا ثم قلت: عندي جوابان كلاهما يكمل الآخر الأول من إنشائي وهو أني أكتبه لمن يريدون أن يشاركوا الآخرين أحزانهم ويخففوها عنهم ولو بالتعاطف والمشاركة الإنسانية معهم.. وأكتبه أيضا لمن يريدون أن يثروا خبراتهم بالحياة بتجارب الآخرين وخبرة الآلام الثمينة في حياتهم.. وأيضا لأصحاب المشاكل والهموم أنفسهم الذين قد يؤدي جهدي المحدود إلى إضاءة بعض الطريق لهم أو إلى إعانتهم على تقبل أقدارهم.. والتواؤم معها أو إلى تفادي بعض أشواك الحياة وبعض عثرات الطريق. أما الجواب الآخر فلقد قاله الأديب السويسري العظيم فردريش دورنات لمن سألوه نفس السؤال وهو: إنني أكتب دائما للذين إذا استمعوا إلى محاضرات في الفلسفة أغرقوا في النوم، كما أكتب لهؤلاء الذين يشاركونني الاعتقاد أننا نستطيع أحيانا أن ننقذ الإنسان.. من مخالب الإنسان!

وما أطول مخالب الإنسان في بعض الأحيان وما أطول شقاء الآخرين بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وضع التفاهم المريح!

كثيرون يعرفون أن هناك علماً حديثاً اسمه علم السلامة يستهدف حماية الإنسان من مخاطر استعمال الآلات في المصانع وحماية الأرواح من احتمالات الحريق وغيرها، لكن قليلين حقا من يعرفون أن هناك علماً أكثر حداثة منه اسمه علم «السلامة الزوجية» وأن لهذا العلم الجديد خبراء ومتخصصين مهمتهم حماية الحياة الزوجية من مخاطر الصراع بين الأزواج.. واحتمالات نشوب «حريق» يدمر العلاقة بينهم في أية لحظة.

والعلم الجديد موطنه كالعادة أمريكا التي تنتشر فيها معاهد خاصة من كل نوع تهتم بتعليم الإنسان فن التفاهم مع البشر.. وفن التحدث والإقناع.. وفن التأثير في الآخرين.. وفن مغالبة الوحدة.. إلخ

وقد انضمت إلى هذه المعاهد مؤخراً معاهد جديدة تدرب من يلتحق بها من الأزواج والزوجات على كيفية تفادي الصراع بينهم وعلى بث الحرارة والانسجام في علاقاتهم!.

ومع أن ذلك قد يبدو ترفاً يتفق مع أسلوب الحياة في أمريكا حيث تنتشر عيادات الطب النفسي.. وتنتشر عادة أو سلوك الاتجاه إلى الطبيب النفسي وطلب مشورته في أبسط المواقف التي تعترض حياة الإنسان.. إلا أن الاهتمام بتحسين قدرات الإنسان على التفاهم مع الآخرين ليس ترفاً في واقع الأمر.. وإنا احتياج إنساني قديم يؤكد لنا أن الإنسان قد يحتاج لأن يعيش حياته عدة مرات لكي يستطيع أن يتفادى أخطاءه التي حالت دون التواصل بينه وبين أشخاص فقد حبهم أو صداقتهم خلال رحلة حياته.

ألسنا نقول لأنفسنا كثيراً.. لو رجعت بنا الأيام إلى الوراء بضع سنوات لما تصرفنا على النحو الذي تصرفنا به مع بعض الأعزاء والأصدقاء.. ولما فقدناهم.

ماذا حدث لنا إذن حتى نقول ذلك الآن؟. لقد تغيرت أفكارنا التي أملت علينا تصرفاتنا الخاطئة السابقة وازددنا فهما للحياة وللبشر فازددنا تقديراً لما لم نستطع فهمه أو تقدير دوافعه في الماضي.. وازددنا التاسماً للأعذار للآخرين.. فصفحنا عما بدا لنا وقتها مثيراً للغضب أو غير قابل للتسامح معه أو ربما ازددنا ثقة في أنفسنا فرأينا فيما أغضبنا قديماً مجرد سفاسف لا تستحق منا أن نفقد صديقاً بسببها.

أو ربما ازددنا فها للطبيعة البشرية.. فازددنا استعداداً للتجاوز عن بعض هناتها وصغائرها.. ألم تقل لنا الأديبة الفرنسية مدام دى ستايل أن فهم كل شيء يؤدي إلى العفو عن كل شيء؟. إذن لابد أننا قد فهمنا فصفحنا وتجاوزنا عما لم نكن نتسامح معه من قبل.

فسوء التفاهم هو مشكلة الإنسان منذ فجر البشرية وبالتحديد منذ عجز هابيل عن إقناع أخيه قابيل بأنه لا ذنب له في أن الله قد تقبل قربانه ولم يتقبل منه هو.

ومن نقطة تحسين التفاهم بين البشر يبدأ مجال علم السلامة الزوجية الجديد فهو يؤمن بأن كثيرين من الأزواج والزوجات يعيشون تحت سقف واحد وينامون في فراش واحد، ويتناولون طعامهم على مائدة واحدة.. ومع ذلك؛ فهم لا يتواصلون تواصلاً إنسانياً صحيحاً.. ولا يجمع بينهم شيء في «العمق».. على كثرة الأشياء العديدة التي تجمع بينهم فوق السطح، هناك الأبناء وهناك التعود على شكل الحياة والتسليم بها وهناك الرغبة المشتركة في استمرار الحياة اختياراً.. أوعجزاً عن تحمل مخاطر التغيير.

أما «في العمق».. فقد لا يكون هناك الكثير مما يجمعهم معاً فلا حب ولا تفاهم مشترك ولا تقدير متبادل.. ولا اعتزاز خاص بشخص شريك العمر بعيداً عن الروابط العائلية والأبناء والاعتبارات الاجتماعية.

والعلاقات الزوجية بل والعلاقات الإنسانية بوجه عام التي تفتقد الأشياء المشتركة.. «في العمق» هي دائما العلاقات المرشحة «للانفجار» من الداخل انفجاراً قد يطيح بها في أي مرحلة من العمر.

لهذا فإن خبراء هذا العلم الجديد يحاولون أن يعلمونا كيف نتواصل مع شركاء الحياة على مستوى العمق وليس على مستوى السطح تفادياً لمخاطر الصراع ومخاطر الانفجار المفاجيء. وقد اكتشفوا أن كثيرين من الأزواج والزوجات حتى الذين جمعهم الحب في بداية الزواج، قد يمضون سنوات دون أن يتحدث أحدهم إلى الآخر «عن قرب»!.

أما الحديث عن قرب في عرفهم فهو الحديث الذي يتناول المشاعر الشخصية.. ويفصح عن الحب.. ويكشف عن الاعتزاز بشخص شريك العمر.. لشخصه وليس لأنه أبو الأولاد أو أمهم.. وهو أيضاً الحديث الذي يشعر الطرف الآخر بأنه شديد الأهمية له ولا يزال يرغبه ويسعد بقربه ويفتقده إذا غاب.

أما الحديث عن بعد فهو الحديث حول شؤون الحياة اليومية ومشاكل الأولاد.. ومصروف البيت.. وفاتورة الكهرباء.. وحكايات الجيران. الخ.

وهم يقولون إن استمرار حبل الحديث بين الزوجين حول كل الأشياء الصغيرة مفيد ومطلوب لأنه نوع من التواصل الإنساني إلا أنه من الضروري حرصاً على الصحة النفسية والسلامة الزوجية أن يكون هناك إلى جواره حديث آخر «عن قرب» يعمق الروابط ويجمل الحياة ويهون متاعبها ويجدد الشباب. ولأن الأمريكيين يحبون دائماً «القوالب الجاهزة» فإن خبراء هذه المعاهد الجديدة يقدمون لهم بعض «النماذج» العملية لفن الحديث عن قرب بين الأزواج والزوجات!

وفي أحد البرامج التليفزيونية الأمريكية شاهدت منذ فترة قصيرة تطبيقا عملياً للفكرة!. ورأيت خبيراً ينفذ التجربة على زوجين حقيقيين التحقا بمعهده لتحسين التفاهم بينها وراقبته باهتمام ودهشة وهو يطلب من الزوجين أن يجلسا على أريكة مريحة وأن يضع الزوج ذراعه على كتف زوجته بحنان وتريح الزوجة

رأسها على كتف زوجها برقة ثم يطلب منها بعد ذلك أن يناقشا ما أرادا مناقشته من أمور حياتها العاجلة، وهما على هذا الوضع مؤكداً لها أن النتائج ستكون مختلفة تماماً عنها لو كانا قد تناقشا وهما في وضع المواجهة الذي يتحفز فيه كل طرف لإثبات صحة رأيه وخطأ رأي الآخر!.

ومن وضع التفاهم المريح هذا ينصح الخبراء الأزواج والزوجات أن يناقشوا كل مشاكلهم وخلافاتهم وبرامجهم للمستقبل

ولتحسين التفاهم بينهم يقولون لنا ولهم: إن معظم المشاكل قد تنشب أحياناً لأننا لا نستوعب جيداً ما قاله الطرف الآخر فغضبنا منه قبل أن نسمعه كاملاً أو واضحاً ويقولون لكل طرف: اسمع أولا قبل أن تتكلم، فقد تكتشف أنك غضبت لأنك قد أخطأت سماع بعض التفاصيل أو لم تصبر لكي تسمع باقي الكلام!.

أما حين تتكلم فاجعل نفسك واضحاً تماماً للطرف الآخر وتأكد من أنه سمع قد جيداً ما أردت أن تقوله له وليس شيئاً آخر.. فكثير من المشاكل الزوجية ومشاكل البشر قد تنشب أحياناً لأن كل طرف يحاسب الآخر على ما لم يقله بالضبط ويلومه على ما لم يسمعه منه بوضوح.

والحق أنه ليست هناك وجهة نظر ليست قابلة للمناقشة باحترام حتى لو رفضناها في النهاية، وأحق الناس بأن نطبق عليهم هذا المبدأ من مبادىء التفكير هم شركاء الحياة، لكننا للأسف لا نفعل ذلك في كثير من الأحيان ونجرح مشاعر الآخرين ليس برفضنا الاقتناع بوجهة نظرهم.. وإنما بازدرائنا لآرائهم.. ومبادرتنا برفضها قبل المناقشة!

والذين يريدون أن يتفاهموا أفضل مع البشر عليهم أن يشعروا الآخرين بأنهم قد أبدوا وجهة نظر جديرة بالاحترام ولا تخلو من وجاهة.. قبل أن يختلفوا معها ويشرحوا أسباب هذا الاختلاف.

وكالعادة يسعف خبراء هذه المعاهد الأزواج والزوجات بعبارات جاهزة صالحة للاستخدام في مثل هذا الموقف منها:

- ما تقول يبدو وجيها للغاية لكني أختلف معك ليس لتفاهة الرأي كما قد تظن، ولكن لأنني أرى الأمور من زواية أخرى!. أما حين يشكو لك شريك العمر من تصرف من تصرفاتك أو يلومك عليه فلا تثر عليه من البداية ولا تصرخ فيه قائلا: إذا كان عاجبك.. أو هكذا خلقت ولن أتغير.. أو: اضرب رأسك في الحائط!.. الخ.

وإنما ينصحك «عقلاء» هذه المعاهد بأن تتمثل أولاً مشاعر شريكك التي دفعته للومك أو الشكوى منك وسيدفعك هذا التمثل لتقدير معاناته والإشفاق عليه منها ثم تجيبه: إنني أفهم مشاعرك جيداً وهذا يثير تعاطفي معك ولك! ثم «دِش» بعد ذلك كما تشاء دفاعاً عن نفسك فلقد نزعت معظم أشواكه.. وتجنبت أظافره قبل بداية المناقشة!.

فالإنسان ضعيف - صدقني - أمام من يشعره بتعاطفه معه وفهمه لدوافعه. وهو أكثر ضعفاً مع من يشعره بأنه إنسان «خاص ومتميز» بالنسبة له.. ويحلق في

السماء إذا أشعره شريك عمره بأنه يحب كل شيء فيه من روحه إلى شخصيته إلى صوته إلى عينيه إلى أصابع يديه!

وأيضا إذا لم يبخل عليه بالتعبير عن هذا الحب في كل مناسبة وفي كل وقت.

لهذا يقول لك خبراء هذه المعاهد: أنقذ زواجك من الدمار بكلمة إعجاب تذكر بها شريك حياتك بأنه يعني لك الكثير.. وأنك لا تستطيع أن تعيش بدونه... وينصحون كل زوج بألا يخجل من أن يقول لزوجته: إنه يشعر معها بأنه «رجل حقيقي» ولا تستطيع امرأة أخرى في العالم أن تشعره بذلك، ويناشدون كل زوجة أن تقول لزوجها بلا خجل إنه الرجل الوحيد في العالم الذي يشعرها بأنها امرأة.. ومن رابع المستحيلات أن تحس بهذا الشعور مع رجل غيره.

وهي نفسها فلسفة «جبر الخواطر» التي يعرفها البسطاء بغير معاهد أمريكية.. ولا خبراء متخصصين أو بتعبير آخر هي فلسفة اللسان الحلو الذي يذيب الصخر ويفتح الأبواب المغلقة.. فالإنسان «غلبان» في النهاية مهما بدا للآخرين قوياً ووحيد نفسيا مهما كثر حوله الأصدقاء وهو في حاجة دائماً لأن يشعره شريك حياته بأنه يحبه ويرغبه ويعتبره صديقه الأوحد في الحياة.

فنابليون العظيم الذي ركعت أمامه قارة أوروبا ذات يوم قال لزوجته الامبراطورة جوزيفين: لقد نلت من المجد والسطوة ما لم ينله أحد قط وبرغم ذلك فهأنذا لا أجد حولي صديقاً مخلصاً أستطيع الاعتماد عليه سواك!

ونحن لسنا كنابليون في عظمته ولا حتى في انكساره ولم ننل بعض ما ناله من المجد والسطوة، ولذلك فإن حاجتنا إلى صداقة شريك العمر.. وإلى قربه منا أكثر كثيراً من حاجة أمثاله من العظماء.

وليست هناك في النهاية وسيلة لأن تحصل على صديق مخلص أفضل من أن تكون أنت أولاً صديقاً مخلصاً له.

لهذا فنحن في حاجة ملحة ومستمرة لأن نحسن أسلوب التفاهم مع شريك العمر.. ومع كل من نتعامل معهم أو نلتقي بهم. ولهذا أيضا استمعت باهتمام شديد لحديث «خبير التفاهم الإنساني» في ذلك البرنامج التليفزيوني الأمريكي وحاولت أن أستوعبه جيداً وأستفيد منه لكنني صعقت في نهايته حين سألته مذيعة البرنامج عن حالته الاجتماعية فأجابها الخبير بثقة بأنه: مطلق!.

إذن ففيم كان كل هذا «الإبداع» الذي أتحفنا به عن كيفية التفاهم مع شريك العمر.. والحديث معه عن قرب.. ومن وضع التفاهم المريح؟!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أكـرهـه.. أحبـه!

لفتت رسالتها انتباهي بشدة فتوقفت أمامها. متأملا ومفكرا، إنها فتاة في السابعة والعشرين من عمرها جميلة.. جذابة.. تخرجت في الجامعة وتعمل.. أما «أزمتها» فإني أدع كلماتها أو «اعترافاتها» الصريحة إلى حد مصادمة المشاعر في بعض الأحيان تحكيها تقول لي هذه الفتاة في رسالتها:

منذ فترة طويلة وأنا أقاوم الرغبة في أن أجلس على كرسي الاعتراف أمامك.. وأبوح لك بكل ما أكتمه عن الآخرين. رغم علمي من متابعتي لآرائك في بريد الجمعة بالأهرام أنك سوف تستاء مني ولن أكون موضع إشفاقك أو تعاطفك. وأبدأ قصتي من البداية البعيدة فأقول لك إنني ولدت لأبوين أنجبا قبلي ثلاث بنات، وتركز أملهما في أن يجيء المولود الرابع ولدا ليحقق أملهما الأخير في إنجابه.. فلما جئت إلى الحياة بنتا قوبلت بالوجوم وخيبة الأمل.. ونشأت طفلة رابعة سبقتها ثلاث بنات، فحرمت من حنان الأبوين واحتفالهما بي. ودرجت في بيت يكثر

فيه الحديث عن عبء البنات والتحسر على افتقاد الولد الذي يشارك أباه المسؤولية ويحمي أخواته البنات من غوائل الحياة.

فأدركت منذ صغري أهمية «الولد» وتميزه عن البنت، وأحسست دائما بأنه «كائن خطير» تعتمد عليه الشقيقات في حياتهن ويصارع الحياة دفاعا عن الفتاة الضعيفة. وبدأت في طفولتي أقص شعري كالأولاد وأرتدى البنطلون مثلهم وأتسلق معهم الأشجار وأتشاجر كما يتشاجرون وحين بلغت سن الصبا وبدأت أنوثتي تتفتح لاحظت بسعادة كبيرة تأثيري على الأولاد من حولي ومحاولاتهم للتقرب مني واسترضائي ووجدت في ذلك متعة كبيرة. وحاولت دائما إيهام كل منهم بأنه موضع اهتمامي الوحيد.

أما حين التحقت بالكلية فقد اتسع المجال أمامي لاجتذاب اهتمام الشباب من زملائي.. والاستمتاع بتقريبهم منى حتى يحس كل منهم أنني أحبه وأنه فتى أحلامي. وأدعم اعتقاده هذا بإهدائه الهدايا الصغيرة في المناسبات المختلفة ويتيه فخرا بذلك ويتجرأ ويطلب مقابلتي خارج الكلية أو يخطو خطوة أبعد ويمسك يدي فيفاجأ بانقضاضي عليه وتقريعي له بقسوة شديدة ثم ابتعادي عنه إلى غيره.. فيقف حائرا متعجبا شاعرا بالخجل.. والغيظ!

وتكررت اللعبة مرارا خلال دراستي بالكلية حتى عرفها عنى زملائي واجتنبوني، ثم تخرجت وعملت وانتقلت إلى مجتمع العمل وبدأت أمارس اللعبة على نطاق أوسع فيه كما بدأت أتردد على النادي كثيرا وأمارس فيه هوايتي. واستكمالا لمظهر الفتاة المتحررة الذي يغري الرجل بالاقتراب منها و«المحاولة»معها اعتقاداً بأنها أيسر منالا. تعلمت تدخين السجائر ونفث الدخان بعمق في وجوه الشباب. وأجدت لعبة «الولاعة» كوسيلة لاجتذاب من أريد إلى شباكي. وتفاصيلها أني إذا لفت نظري شاب في النادي استخدمت معه أولا لغة العيون. وتبادلت معه

النظرات والابتسامات الخفية وأرقب حيرته وتردده في الاقتراب مني ومحاولة خلق أي مناسبة للتعرف على بمتعة كبيرة. وحين أقرر أخيرا أن أتعرف عليه أجلس إلى مائدة قريبة منه وأتبادل معه النظرات لبعض الوقت ثم أخرج سيجارة وأضعها في فمي.. وأخرج من حقيبتي ولاعة قديمة نفد الغاز منها منذ فترة طويلة.. وأحاول إشعال السيجارة بها وتفشل المحاولة بالطبع رغم تكرارها فأتلفت حولي حائرة كأني أبحث عن عود كبريت أو ولاعة.. فلا تمضي لحظات حتى أجد هذا الشاب أمامي يشعل لي سيجارتي بولاعته، وتمضى الخطة إلى غايتها:

-ميرسي

- العفو.. خلي الولاعة معاك

-لا.. مرسي

-على إيه.. خليها معاك النهارده.. وأخدها في أي يوم

- اسمك إيه؟

- أنت لطيف قوي

- مرسي

فتبدأ القصة. وتتكرر الرواية القصيرة بكل تفاصيلها.. تعارف ثم اهتمام من جانبي ومقابلات.. ثم يقع الشاب في غرامي ويتطلع إلى إتمام القصة ويبدأ يفكر في المستقبل.. فيفاجأ بي وقد لفظته بقسوة وعنف وسددت أمامه كل الأبواب إلى أن ييأس منى تماما وينصرف عني حزينا متألما.

وقبل أن تسيء بي الظن وتتهمني بأنني فتاة مستهترة منحلة سأقول لك إن واحدا من هؤلاء الشباب أو الرجال.. لم يستطع أن يلمسني أو يخرج معي على الحدود التي أرسمها له. تسألني لماذا إذن أفعل ذلك؟.. وأجيبك بأني أكاد أجن بالرجال وأبحث عندهم عن الحنان الذي حرمت منه في طفولتي وأتقزز منهم حين يقدمون أجسامهم بدلا من حنانهم. ومشاعري تجاههم متناقضة متشابكة فأنا أحب «الرجل» وأحترمه، وأخاف منه وأحقد عليه وأراه في نظري صاحب السيادة والسلطان بالنسبة للمرأة.. فهو الكائن الأقوى الذي ينتدب للمهام الجليلة في الحياة، في حين تترك المهام التافهة والصغيرة للمرأة وأرى أن المرأة هي الكائن الضعيف، وأنها قد تأخرت ولم تتقدم كما تعتقد النساء، فالمرأة في الحياة البدائية كانت تشارك الرجل في السعي إلى الرزق بالصيد وجمع الوقود واستنبات الطعام من الأرض، وكانت هي التي تتزوج الرجل وهي التي تطلقه، أما الآن في المدنية الحديثة فقد حبسوها في المطبخ تطهو وتغسل وتلد الأطفال وتخدم الرجل، وتنحصر كل أمانيها في الزواج، والزواج يعني باختصار ودون فلسفة سيطرة الرجل. وأنا كغيري من النساء أحب أن أخضع للرجل وأرى أنه الجنس القوي المسيطر الجدير بالإعجاب والخضوع له، ومع ذلك فإني ما إن أشعر أني قد بدأت أحب رجلا ما وأنه في سبيله إلى أن يتملكني بالحب فإني ألفظه بلا رحمة،

وأواصل حياتي التي أتحكم فيها في الآخرين، ولا أسمح لأحد بأن يسيطر عليّ بالحب ويتفرعن! إنني أنفق كثيرا في بعض الأحيان على من أعرفهم وأحس حين أفعل ذلك بأني قد انتصرت على الرجل وانتزعت منه السيادة ودوره التقليدي.. والغريب أنه يسعد بذلك ويعتبره دليلا على حبي الطاغي له.. ولو أدرك ما في قرارة نفسي لصدم بأني أحتقره.. وأنظر إليه كما ينظر الرجل إلى «الحيوان الأليف» الذي يقتنيه وينفق عليه من ماله!.. وتبلغ صدمته الذروة حين يفاجأ بي وقد لفظته من حياتي بسهولة في نفس الوقت الذي تأكد فيه من أنني قد أصبحت أسيرة هواه!

إنني حائرة مع نفسي.. فإنك إذا نظرت إلى وجهي الرقيق وعيني البريئتين أحسست في البراءة والطهر وبأنك أمام «قديسة» لا تنقصها إلا هالة من نور فوق رأسها الجميل، وإذا استمعت إلى اعترافاتي هذه أحسست أنك أمام شيطانة تريد أن تعبث وتهزأ بكل القيم، كما أني في بعض الأحيان أحس بأننى «عبقرية» وفي أحيان أخرى أشعر بأنني مجنونة، ويبدو أن هناك خيطا رفيعا بين العبقرية.. والجنون، وبين الملائكية.. والشيطنة أتجاوزه في أحيان وأرجع عنه في أحيان، ورغم كل ذلك فلست سعيدة بحياتي ولا حيرتي.. ولم أعترف لأحد من قبل بما اعترفت به لك الآن لثقتي فيك وفي آرائك فهل عندك ما تخرجني به من حيرتي؟

هذه هي الرسالة التي استوقفتني وأذهلتني على كثرة ما أتلقى من رسائل واعترافات تتضمن الكثير من غرائب النفس البشرية، وأزمة هذه الفتاة الحقيقية هي أنها تريد أن تنتقم من طبيعتها كأنثى احتجاجا على مجيئها للحياة كفتاة بدلا من أن تكون ولدا كما كان يتمنى أبواها، لهذا فهي فتاة جميلة.. وأنثى مكتملة جسديا، لكن في داخلها روح رجل أو شاب عابث يريد أن يتمتع بالتنقل بين الفتيات والسيطرة عليهن ويريد أن يكون الطرف الأقوى دائما في علاقته بهن.

لقد حرمت من حنان الأبوين لأنها الإبنة الرابعة بعد ثلاث فتيات وهي تعتقد في عقلها الباطن أن سبب حرمانها منه هو أنها لم تكن ولدا وأن الولد جنس مميز قوي مسيطر يملك أمره ويستطيع أن يتزوج وأن يطلق بغير قيود المجتمع التي تكبل المرأة في نظرها، إذن فتلكن ولدا بالروح وليس بالجسد، ولتفعل كما يفعل الرجال العابثون فتنتقل بين الرجال.. تقربهم وتبعدهم حين يتصورون أنهم قد امتلكوها

وتستخدم «وسيلة الرجل» في تعبيره عن الإحساس بالمسؤولية عن أو زوجته، فتنفق عليه لتكون الأقوى والأرفع شأنا. وهي تحب الرجال وتكرههم. وتعجب بهم وتحقد عليهم، وكل ذلك من رواسب إحساسها الذي ترسب في أعماقها منذ الطفولة بالسخط على جنسها كفتاة، واعتباره المسؤول عن عدم احتفال أبويها بها كطفلة وحرمانها من حنانها. إنها لا تبحث عن الحنان الذي حرمت منه في طفولتها لدى الرجال كما تتصور، لكنها «تفتش» فيهم عن هذه المميزات الخفية لجنس الرجل الذي أعطاه أبواها كل هذه الأهمية في طفولتها وصباها.

وكلما فشلت في اكتشافها في رجل تركته وانتقلت إلى آخر لتبحث فيه عنها. كما يفعل الباحث الذي يكرر تجاربه على الحيوانات الصغيرة في المعمل كلما فشلت النتائج.

يا آنستي إنك تظلمين نفسك كثيراً أو تظلمين النساء جميعا بأفكارك وتصوراتك الخائطة عنهن.. فلا المرأة الجانب الضعيف المقهور في كل الأحوال ولا الرجل هو الجانب القوي المسيطر على الدوام. وليس للرجل من «ميزة» على المرأة إلا في تحمله المسؤولية عنها واستعداده للقتال دفاعا عنها وحماية لها فإذا كنت تعتبرين ذلك «ميزة» فتفضلي خذيها لنفسك على الرحب والسعة، وقديها قال أحد المفكرين: «لم تخلق المرأة من رأس الرجل فتتفوق عليه ولا من قدمه فتتخلف عنه إنها من ضلعه لتتساوى معه في الحقوق والواجبات». ولهذا فإني أشفق عليك من عدم توافقك مع جنسك ورفضك واحتقارك له.. لأن احتقارك للرجال الذين يخضعون لك يعكس احتقارك لجنسك الذي ترين أنه الأضعف.. لهذا يفقد الرجل مميزاته في نظرك حين يتنازل عن قوته ويخضع لك.. وكل ذلك من آثار عدم توافقك مع جنسك وهو مرض نفسي خطير يتطلب علاجا نفسيا منتظما. فاطلبيه بلا تردد وغيري من مفاهيمك عن الحياة والمرأة والرجل.. وكفي عن العبث والتنقل بين الرجال لأنه عمل لا أخلاقي بكل المقاييس حتى ولو كان بلا تلامس فعزة المرأة في أن تكون لرجل واحد. والحب الحقيقي الذي لم تعرفيه بعد كالإيمان فيه وحدانية، وأحد كبار المفكرين كان يقول أحب التوحيد في ثلاثة: العقيدة والمبدأ.. والحب!

كما أن أحد الفروق الراقية بين الإنسان والحيوان.. هو أن الإنسان لا يستطيع حين يحب حبا صادقا أن يلامس إلا من يحب وحده، أما الحيوان فقد يلامس كل من تقع في طريقه من الإناث. وأنت للأسف تعكسين الآية بتخبطك وإدمانك للعبة الاقتراب والابتعاد.. ولعبة أحب الرجل وأكرهه هذه.

إن الحب الحقيقي هو أن تهربي مع إنسان واحد من تفاهة الآخرين.

أما العبث والاستهتار والحيوانية ومخالفة الطبيعة البشرية فهو أن تقولي مع الشاعر الإنجليزي لورد بايرون: ليت للنساء جميعا فماً واحدا إذن لقبلته واسترحت!

مع استبدال الرجال بالنساء في حالتك!

والانسان السوي هو من يحب امرأة بعينها وليس كل النساء. والفتاة الطبيعية السوية هي من تحب رجلا بعينه وليس كل الرجال.

أما حب الصنف» كله هذا فليس حبا ولا شيئا شبيها بالحب إنها شذوذ عن الطبيعة.. وانحراف.. ومرض يتطلب تدخل الطبيب النفسي في أقرب وقت.. وقبل أن تتفاقم الأخطار والنتائج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علاقة شائكة

لي صديقان - رجل وامرأة - الزوجة فنانة مسرحية والزوج مهندس عرفتهما منذ أكثر من عشرين سنة وراقبت علاقتهما عن قرب، فلاحظت حرصهما المشترك على حياتهما العائلية.. رغم شطحات الزوج ومغامراته أحيانا، وكان دافعهما الأقوى لاستمرار الحياة بينهما رغبتهما الصادقة في توفير الاستقرار لوحيدتهما الجميلة ثم باعدت ظروف العمل والحياة بيني وبينهما، فلم أعد التقى بهما إلا لماما، وغالبا في فصل الصيف في الاسكندرية حين أذهب إليها ويتصادف وجود الفرقة المسرحية الحكومية التي تعمل بها الزوجة فأشاهد العرض.. وأدخل إلى الكواليس بين الفصول وألتقي بالزوجين وأستعيد معها للحظات ذكرياتنا القديمة..

ثم مضت عدة سنوات لم ألتق بها خلالها، وفي الصيف الأخير قضيت في الاسكندرية بضعة أيام.. فذهبت إلى المسرح لأشاهد مسرحية مقتبسة عن الإنجليزية سبق أن شاهدت أصلها الإنجليزي في لندن في مسارح «الوست إند» بعنوان (الإباحية ممنوعة من فضلك فنحن بريطانيون!) وهي مسرحية كوميدية تحكى قصة زوجة شابة ضاقت بالفراغ والملل وقررت أن تشغل فراغها بأى عمل وقرأت في الصحف إعلانا عن شركة سويدية تطلب موزعين «لإنتاجها المحترم» في لندن فراسلت الشركة دون أن تعرف طبيعة عملها وطلبت اعتمادها موزعة لها وأرسلت إليها التأمين المالي المطلوب، وبعد أيام أرسلت إليها الشركة على عنوان بيتها أول دفعة من إنتاجها «المتميز» لتوزيعها على المعارف والأصدقاء فإذا به مجموعة من المجلات والصور الفاضحة الممنوعة، وإذا بالشركة شركة لإنتاج الأفلام والمجلات والصور الممنوعة، وتوالت المفارقات المضحكة مع رعب. الزوجة حين اكتشفت الحقيقة وخوفها من انفضاح الأمر أمام والدة زوجها الإنجليزية الأرستقراطية المحافظة، ومحاولات الزوج المضنية لإخفاء هذه الكارثة عنها وعن الأقارب، مع استمرار الشركة في إرسال «إنتاجها» إليها بالبريد.. وتطوره من المجلات.. إلى الأفلام إلى أن تبلغ الكوميديا قمتها بإرسال الشركة بعض «فتياتها» للموزعة الجديدة لكي تقوم بتسويق هذا «الإنتاج البشري» بمعرفتها! وقد توجهت للمسرح في الإسكندرية ملهوفا على أن أعرف كيف تم تمصير هذه المسرحية واقتباسها بما يتناسب مع ظروفنا وتقاليدنا، وعقب العرض دخلت إلى الكواليس لأحيي مخرجها وممثليها ومعظمهم من أصدقائي ومعارفي فإذابي أمام هذه الفنانة التي لم ألتق بها منذ سنوات، ومعها شخص لا أعرفه خمنت أنه أحد أقاربها أو أقارب زوجها جاء ليصحبها إلى بيتها وتهللنا للقاء.. وقدمت لي الشخص المرافق لها فاذا بها تقول لي عنه:

- فلان.. زوجي!..

يا إلهي زوجها.. أين ذهب إذن صديقى المهندس؟

وكتمت دهشتي واستغرابي وصافحت الزوج الجديد باحترام وودعتها بعد أن تبادلنا أرقام التليفون، وفي اليوم التالي جاءني صوتها في فندقي يفسر لي الموقف المثير فروت لي أن زوجها - صديقي القديم - قد بلغ الستين منذ عامين

وأحيل إلى المعاش فتقاضي مكافأة نهاية الخدمة الكبيرة وبدلا من أن يؤمن بالمكافأة مستقبل ابنته الوحيدة التي تستعد للزواج أو يسهم بها في جهازها، فوجئت به يعود إليها ذات يوم ويقول لها إنه «يحب» فتاة عمرها أربع وعشرون سنة وأنها تحبه، وتريد أن تتزوجه لكنها تشترط عليه لكي توافق على زواجها منه، أن يطلق زوجته أولا ولهذا فهو «يستأذنها» في أن يطلقها ليتزوج هذه الفتاة التي «ستنتحر» إن لم يتزوجها! وحاولت معه زوجته المستحيل لكي يرجع عن جنونه بلا فائدة.. فيئست منه واستسلمت لأقدارها.. وطلقت منه.. وبعد شهور من طلاقها تقدم لها أرمل متوسط العمر يعيش وحيدا فارتبطت به وتزوجته ووجدت فيه عزاء لها عن صدمتها في رفيق العمر وقد عوضها بحق عما لقيته من عناء وحرمان مع زوجها الأول، فعامل ابنتها بحنان وبإحساس أمين بالمسؤولية عنها كأب وعاملها هي بحب واحترام. أما الزوج الأول فلم يتزوج فتاته التي طلقها من أجلها وإنما راوغته طويلا حتى تسربت المكافأة من بين يديه وانصرفت عنه.. فعاد يلاحق مطلقته وأم ابنته ويعنفها على زواجها وهي أم لفتاة في سن الزواج.. والأغرب من ذلك أنه يفرض «صداقته» على زوجها الجديد ويزورهما في بيتهما الجديد بانتظام ويحضركل مناسباتهما بلا دعوة!

ويصاحبهما في سيارة الزوج إلى المسرح ويتصرف معهما كصديق قديم يتمتع «بروح رياضية» لا نظير لها! والزوج الجديد محرج منه ولا يستطيع أن يغلق بابه في وجهه.. وهي لا تستطيع له دفعا!.

وفى نهاية حديثها لي سألتني: هل أخطأت فيما فعلت؟ إنني لم أتزوج شابا أصغر مني.. ولا رجلا عابثا.. وإنما تزوجت رجلا محترما يكبرني في السن ويتحمل مسؤوليتي ومسؤولية ابنتي بجدية ورجولة بعد أن طلقني زوجي جريا وراء فتاة أصغر من ابنته.. فهل أخطأت فيما فعلت؟!

وأجبتها صادقا بالنفي وتمنيت لها مخلصا السعادة والاستقرار في حياتها الجديدة فإذا بها تقول لي عاتبة: إذن لماذا هاجمتني في بابك بالأهرام «بريد الجمعة» ولمتني على زواجي منه؟!

وأجبتها مندهشا؛ أنا هاجمتك؟

فروت لي أنه بعد زواجها بشهور جاءها زوجها وقدم لها «الأهرام» وأشار إلى قصة بريد الجمعة التي أكتبها فيه، وقال لها إن هذه هي قصتك وروى

لها أنه قابلني وشكا لى من تسرعها بالزواج بعد طلاقها وعدم انتظار عودته إليها حرصا على صالح ابنتها، فوعدته بأن أكتب قصتها في بريد الجمعة وألومها على تصرفها وأنصحها بالعودة لزوجها الأول! وسمعت ذلك مصعوقا ومندهشا وأكدت لها أني لم ألتق بزوجها السابق منذ 6 سنوات ولم أسمع شيئا عنه منذ ذلك الحين ولم أعرف أنها قد طلقت منه أو تزوجت بغيره إلا (مساء أمس) حين قدمت لي الشخص المرافق لها على أنه زوجها، وقد كان ذلك واضحا على أسارير وجهي حين عرفته، أما القصة التي عرضها عليها فهي ليست بالتأكيد قصتها ولابد أنها قصة مشابهة أراد استغلالها بهذه الطريقة غير الأمينة ليدعم بها حجته عليها.

وصدقتني الصديقة القديمة ولم تتعجب من تصرفات زوجها السابق.. لكني أنا الذي تعجبت منه.. ومن «روحه الرياضية» التي يفرض بها نفسه على الزوجين في حياتها الجديدة.. وتعجبت أكثر مما تصنعه الأيام من قصص وحكايات لا يصدقها العقل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شريط من ورق!

منذ أيام كنت ساهرا في بيتي وسط أكوام رسائل البريد أحاول اختيار رسالة الأسبوع فمددت يدي إلى هذه الرسائل واخترت بعضها عشوائيا ولصقتها ببعضها بالدبابيس فصنعت شريطا طويلا من الورق.. ثم قررت أن أقرأها دفعة واحدة لأرى الأثر الذي ستحدثه في نفسي حين أتنقل بينها.. فكانت النتيجة غريبة فعلا!

لقد كانت البداية هكذا:

مر عامان على تطليقي لها، فقد تزوجتها منذ خمسة عشر عاما، وأنجبنا طفلة وطفلا، ولم أعمل منذ إحالتي إلى التقاعد، فلدي ما يكفينا والحمد الله، كما كنت ملتصقا بابنتي ثم بابني ولم أتصور البعد عنهما وانشغالي عن تربيتهما يوما بيوم فقد شاء ربي أن يغرس فيّ الأبوة الراعية والصبر والاحتمال بعكس أمهما التي خرجت بعد ذلك إلى الحياة العملية وكانت لديها طاقة هائلة في العمل الحر وجنت من ورائه الأموال الكثيرة. وكنا كلنا نساعدها في فترات عملها الموسمية.. فأصبح المال يسيطر على تفكيرها كله.

وكنت أنا الراعي لأولادي منذ طفولتهم وحتى التحاقهم بالمدارس من إيقاظهم وارتدائهم ملابسهم وهم صغار وإعداد طعامهم وإيصالهم وإحضارهم وإطعامهم والاستذكار لهم حتى ساعة نومهم. واستمر الحال هكذا حتى اليوم والحمد لله.

ولما حدث الانفصال استمر الحال كما هو وخرجت هي من البيت في هدوء. لقد كان خروجها للعمل في السوق وتعرفها بالأوساط المختلفة وحصولها على الأموال هو بداية المشكلة، فقد أعماها ذلك عن واجباتها البسيطة وبهرها المال والمظاهر مما جعلها تلجأ إلى الكذب والغش، وأصبحت تريد العيش معنا فقط لتستغل البيت كفندق ومطعم ومخزن ومكتب لها وتريد أيضا العيش خارج المنزل في أوساط أخرى براقة وأصبحت أنا حائرا بسبب أولادي الذين أحرص على راحتهم، ولم أكن أتصور يوما أن يعيشوا بلا أم وهي على قيد الحياة، ولكن كان حتما عليّ أن أحسم الموقف وأحرمها من اسمي، وأحرمها من الحياة المستقرة التي كنت أوفرها لها وغادرت هي البيت إلى إحدى شققها التي أصبحت تملكها.

ومرت الفترة الأولى بعد ذلك في شجون بسبب تفكيري في الصغار ولكن الله أنزل الصبر للإنسان ليستعين به في ملأته بجانب الإيمان به.

إن الزوجة إذا فقدت الوفاء وحب الأسرة والإخلاص فلا بد لها من البتر. وهي لم تتعظ، فقد كانت متزوجة قبل ذلك ولها طفلان هجرتها أيضا، إني يا سيدي أجدني دائما أدعو الله أن يعينني على خدمة أولادي وحسن تربيتهم، وأن ينتقم لنا منها لأنها ظلمتهم فهل أخطىء حين أطلب من الله الانتقام ممن ظلمنا؟

وهل من الصواب أن يتزوج المرء في مثل حالتي (60 سنة) وهل يمكن أن ترعى هذه الزوجة الجديدة الأولاد ومن قلبها تحبهم؟ وأين هذه الإنسانة كريمة الأصل؟

هل أتركها للقدر ليضعها في طريقي؟ وهل من فترة للتعارف وللتقرب إلى الاولاد؟ هل فعلا يستطيع الإنسان أن يبدأ حياته من جديد في مثل عمري؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعرفت عليه منذ ثلاثة أعوام.. إنه مهندس زراعي زميل لي في العمل في أول الأمر لم أعره أي اهتمام ولكنه قام بلفت نظري إليه بجميع الوسائل من مطاردة إلى انتظاري أثناء وصولي لعملي وخروجي منه إلى محاصرتي عن طريق زميلاتي ورشوتهن حتى أكلمه.. وأخيرا قررت وضع حد لهذه المطاردة فركبت معه سيارته لتوصيلي إلى منزلي ومعرفة ماذا يريد مني؟! فشرح لي أنه معجب بي وبأخلاقي ويريد الارتباط بي وروى ل يقصة حياته وهي أنه متزوج من قريبة له وعنده طفلة منها عمرها الآن أربع سنوات وأنه لا يحس مع زوجته بأي عاطفة، فأوضحت له أنه من المستحيل الارتباط به لعدة أسباب منها أنه متزوج وله طفلة ولن أبني سعادتي على تعاسة الآخرين، كما أن الأهل سيعارضون ذلك وطلبت منه الكف عن المطاردة وشرحت له أنه تسبب لي في كثير من المشاكل إلا أن المطاردة زادت، وفي مرة مرضت، فسأل عني في العمل وأحضر زوجته لزيارتي في المنزل، ومن يومها وطد صداقته بالأسرة بتأدية بعض الخدمات والمشاركة في المناسبات المختلفة.. وما زال يلح في الارتباط بي خصوصا وأنه حصل على عقد عمل في إحدى الدول العربية ويريد أصطحابي إليها كزوجة وطلب موعدا من أبي.. وعرض أبي الأمرعليّ بطريقة كريمة جدا وأقنعني بعدم الموافقة.. وأبلغته بذلك إلا أنه صمم على المطاردة ليلا ونهارا فاضطررت إلى معاملته معاملة غير كريمة.

وأخيرا قرر السفر بعد يأسه من موافقة أسرتي وطلب مقابلتى قبل سفره فرفضت بطريقة جافة ثم أحسست بوخز الضمير وقررت في آخر لحظة وقبل قيام الطائرة بساعة الذهاب إلى المطار لوادعه وأخذت معي بعض الزملاء.. ولا تتصور مدى سعادته وسعادتي حين التقينا رغم وجود زوجته وأفراد أسرته.. فهل أخطأت بالذهاب إلى المطار رغم أن ذلك أراحني بعض الشيء وكفر عن إحساسي بالذنب للإساءة إليه؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا شاب في أواخر العشرينات من عمري وحيد الأب وأم عظيمين رعياني أفضل رعاية.. أمي سيدة حنون تترفق بي وتدللني وتتابعني أثناء فراغي وفترة دراستي، أما أبي فبحكم أشغاله العملية كانت متابعته لي أقل لكنه وفر لي أسباب التربية الصالحة، فقد أدخلني أحسن المدارس وخصص لي مدرسا للقرآن الكريم ومدرسا للموسيقى ومدرسا للغة الإنجليزية.

أما بالنسبة لحياتي العاطفية فكانت دائما مستقرة ولا تخلو بالطبع من بعض التجارب التي لم تترك أثرا في حياتي، وبعد تخرجي في الجامعة بدأ والدي في

الإلحاح عليّ بالزواج، لكني أرفض الزواج التقليدي وأومن بالحب والالتقاء الروحي والعاطفي بين الفردين، وساعدني على تأجيل الزواج أني افتتحت لي مشروعا صغيرا فانشغلت به بشكل جنوني ونجح عملي خلال عدة سنوات وأصبحت فجأة رجل أعمال ناجحا، وبعد ثلاث سنين من العمل خفق قلبي أخيرا، ولكنه للأسف خفق في الاتجاه الخاطىء.. فلدي في عملي موظف قريب إلى قلبي وهو إنسان بسيط لا يهمه في عمله إلا مرتب آخر الشهر وأن يؤدي عمله بإتقان وهو غير اجتماعي بالمرة، وقد اضطررت ذات يوم لأن أذهب إليه في بيته لاستدعائه في أمر هام فرأيت زوجته.. نعم زوجته وأرجوك يا سيدي ألا تلقي بورقتي هذه بالأرض وتقول عني إني إنسان حقير لا أستحق أن تقرأ مشكلتي فأنا إنسان طيب وأكره الخيانة كرها عظيما، لكني لا أعرف ماذا جرى لى حين رأيت زوجته وإن كنت حاولت إخفاء مشاعري.

لقد حاولت أن أسرى عن نفسي بأنها مجرد نزوة تزول مع زوال مسبباتها لكن صورتها لم تغب عن مخيلتي بعد ذلك، مما جعلني أقبل دعوة للعشاء عنده وما إن رأيتها مرة أخرى حتى عاد لي نفس الشعور السابق ومضت الأيام، وأصبحت أختلق الأسباب لأزوره في البيت لكي أراها، وخلال هذه الزيارات لم أحاول أن يصدر عني أي شيء يخل بالأصول، ولم أكتف بذلك فقد سلطت امرأة لا تعرفها هي لكي تعرف عنها كل شيء فعرفت - وهنا كانت المفاجأة التي زادت من معاناتي- عرفت أنها غير سعيدة مع زوجها وأنها لا تحبه وأنها أصبحت تحب رئيس زوجها بالعمل الذي زارهم بالبيت أكثر من مرة وأعجبتها شخصيته وثقافته وذكاؤه ووسامته بالإضافة إلى أن نظراته لها فيها شيء من الغموض!

أنا فعلا أحبها بجنون عارم ودون أن تتردد كلمة حب واحدة بيننا، وأرجو ألا تسيء الحكم عليّ فلو كنت إنسانا سيئا لما كتبت لك ولكنت اتصلت بالمرأة وأعلمتها بحبي لها بأسلوب أخاذ، وضغطت على زوجها إلى أن يطلقها لكنى حتى الآن لم أجرؤ على فعل ذلك واخترت أن ألجأ إليك فبماذا تنصحني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ أن قرأت رسالة «الملابس الملونة» التي تحكي قصة زوجة عاشت مع السعادة عاما واحدا فقط بعدها أصبحت أرملة ولها طفلة لم أتمالك نفسي فأنا فتاة في الرابعة والعشرين من عمري نشأت في أسرة كريمة طيبة مكونة من أبي وأمي وأخي الذي يصغرني بعامين، وقد نشأت على طاعة الله والخوف منه وعشت حياتي وليس لي اهتمام سوى الانتهاء من دراستي والمحافظة على الصلاة وصيام الاثنين والخميس ولم أفكر قط في مسألة الحب لأني كنت أخشى دائما مشاكله، فعشت بعقلي فقط وألغيت عاطفتي، وظل الحال هكذا حتى وصلت إلى سن الواحدة والعشرين وتوفى والدي رحمه الله وعملت في شركة خاصة ومن خلال عملي بها تعرفت على شاب يعمل معي وهو شاب ساحر وممتاز وعلى خلق نادر.. ومنذ أن عرفته أحسست بشعور غريب يتملكني وظللت أكتم هذا الإحساس بداخلي حتى يخمد ثم فوجئت به في يوم أعتبره أسعد أيام حياتي يعترف

لي بحبه وبأنه يبادلني نفس الشعور منذ رآني، وطلبت منه التقدم لأسرتي الصغيرة وتمت خطبتي له وسعدت به سعادة لا توصف، وذات يوم كان خطيبي يزورنا وأثناء الحديث معى روى لي نادرة «لطيفة» هي أنه كان جالسا أمس مع بعض الأصدقاء وإذا برجل يقرأ الكف يمر عليهم فطلب منه خطيبي قراءة الكف له فأمسك بيده واستغرق في قراءة كفه حتى وصل إلى العمر وقال له بعد إجراء عمليات حسابية من طرح وجمع وغيرها إنه سوف يموت في الثلاثين من عمره!

وضحك خطيبي وهو يقول: إن عمره أكثر من الثلاثين ببضعة أشهر وأنه كشف بذلك جهل هذا القارىء واستغرق في الضحك مرة أخرى.. لكنني لم أضحك وانقبض صدري ولم تفارق خاطري هذه القصة رغم إيماني العميق بالله وبأنه لا يعرف الغيب غيره.. إن هذه القصة السخيفة تفسد عليّ حياتي وسعادتي وكل ما أفعله الآن هو الصلاة ودعائي الله سبحانه وتعالى أن يجعل يومي قبل يومه، وكلما سألت أحدا عن قراءة الكف يقول لي: إنها علم له أصوله وقواعده.. ومع أنه لم يحدث أي شيء من كل ما قاله قارىء الكف لخطيبي إلا أن القلق يفتك بي.

إننى لست نادمة لأني أحببت خطيبي فهو يستحق حبي.. لكني نادمة لأني أحببت من الأصل. لأن هذا هو ثمن الحب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنت الجميلة.. فأين الوحش؟

لم أشهد عرض الجميلة والوحش لوالت ديزني حين قدم في القاهرة منذ شهور. لكني قرأت قصته وأعجبت بها، ووجدت فيها فهما راقيا لإحدى حقائق الحياة التي أومن بها، وأدعو لها كثيرا في كتاباتي. وهي أن الجمال الحقيقي هو جمال الروح وليس جمال البدن. وأن الجمال المادي ليس سوى بطاقة تعارف تجذب الغرباء فيتعارفون ويلتقون لكن صحبتهم لا تنجح ولا تدوم بهذه البطاقة وحدها.. إن لم تتكشف بعد حين عن نوع أهم من الجمال هو جمال الروح، وطيبة القلب، وحسن المعاشرة.. والفهم العطوف المتبادل بين الطرفين.

والقصة عن أسطورة قديمة كتبها الإيطالي جيوفانب استرابالو عام1755 وتحكى عن فتاة جميلة حالمة يتنافس أفضل الشبان في بلدتها على طلب يدها للزواج.. لكنها ترفضهم جميعا ولا ترى فيهم فتى أحلامها المنشود وترفض أيضا أكثرهم وسامة وثراء، لأنه مغرور بوسامته وثرائه ومتغطرس.. فينفجر سخطا وكبرياء حين ترفضه الفتاة الجميلة كما رفضت غيره وهي الفتاة رقيقة الحال التي تعيش وحيدة مع أبيها.. وهو الفتى الوسيم الثري الذي تتمناه أي فتاة.. ثم يذهب أبوها إلى الغابة المجاورة لبلدتها ذات يوم ليصيد فيها فيضل طريقه ويعجز عن العودة إلى بيته ويحل الظلام ويخشى على نفسه من حيوانات الغابة المفترسة، ويبحث عن مأوى يحتمي به حتى الصباح فيجد قصرا مهجورا يدخله ويتبين له بعد قليل أن القصر لوحش قبيح الوجه، وكثيف الشعر يعيش فيه منعزلا عن الجميع، لبشاعة منظره، فيرتعب حين يكتشف ويهم بالفرار منه، لكن الوحش يعثر عليه فيسجنه في القصر عقابا له على اجترائه على بيته. وتفتقد الفتاة الجميلة الحالمة أباها الطيب فتخرج للبحث عنه.. ويشاركها شباب البلدة في البحث عنه آملين أن ينجحوا في إنقاذه، فتزيد فرصهم في نيل إعجاب الفتاة الجميلة.

ويعرفوا في النهاية أنه سجين في قصر الوحش فيرجعوا عنه متخاذلين وينسحبوا جميعا من المهمة، وتقرر الفتاة أن تنقذ أباها بنفسها مهما كانت الأخطار.. وتذهب إلى الوحش في قصره المهجور، وتطلب منه أن يطلق سراح أبيها.. ويزمجر الوحش غضبا من اجترائها على هذا الطلب، لكن عينه ترى جمالها الآسر.. ووداعتها.. فيرق لها ويقبل الإفراج عن أبيها ولكن مقابل أن تبقى هي بدلا منه في القصر!

ويرفض الأب مشفقا على ابنته من صحبة هذا الوحش كريه المنظر لكنها تطمئنه على نفسها.. وتطلب منه العودة إلى بيته أمنا. وينصرف الأب مهموما بأمر ابنته التي قبلت التضحية بنفسها من أجله، وتمضي الأيام بالجميلة في قصر الوحش.. وتتحمل في البداية بصعوبة منظره الكريه.. لكنها مع الأيام تنجح في ترويضه تدريجيا.. وتكتشف يوما بعد يوم أن وراء منظره القبيح هذا نفسا طيبة تطلب الخير للآخرين.

وتؤمن بالإخلاص والوفاء لمن تحب، وأن في صدره كثيف الشعر هذا قلبا حنونا يرق لأي لمسة حنان، ويتجاوب معها، فتقبل الزواج منه وهي التي رفضت من

قبل أكثر الشبان وسامة وثراء، وتعيش معه بإرادتها سعيدة راضية، وقد تعلمت درسا غاليا في حياتها هو ألا تحكم على البشر بمظهرهم الخارجي وإنما بأخلاقهم وطباعهم وجوهرهم الحقيقي.

وهذا درس ينبغي أن يتعلمه أيضا كل إنسان.. فالوجوه الجميلة للأسف قد لا تعكس قبح السرائر، فتظلم من ينبهرون بحسنها وتصدمهم بسوء أخلاقها وعشرتها.. والوجوه العاطلة عن الجمال قد لا تعكس أيضا جمال السرائر وحسن الطباع، فتظلم أصحابها وتحرم الآخرين من اكتشاف مزاياهم.

لكن هذا الخداع لا يستمر إلى النهاية.. فلقد ثبت من دراسات علم النفس الجسمي أن الحقد والكراهية ينطبعان مع طول الانطواء عليها على وجوه أصحابها فيدمغانها بطابع شيطاني الملامح حتى ولو كانت ملامحهم وسيمة، وأن صفاء النفس وطيبتها أيضا ينعكسان مع طول الزمن على وجوه أصحابها فتطبعها بطابع سمح مريح للآخرين.

وطابع الشر وطابع السماحة والصفاء كلاهما كالعلامة المائية في أوراق النقد لا ترى إلا إذا عرضتها للضوء. والضوء هنا هو الاختبار والعشرة.. والمواقف التي تتبدى فيها معادن البشر، فعندها تظهر الوجوه الجميلة قبيحة كسرائر أصحابها.. والوجوه العاطلة عن الجمال جميلة وأصيلة كنفوس أصحابها.

ولا أحد يعرف لماذا نلتقي ببعض الأشخاص لأول مرة فنحس بالارتياح لهم حين نراهم ونتحدث إليهم، ولماذا نلتقي بآخرين لأول مرة فنحس وكأننا نجلس على الشوك معهم ونتعجل إنهاء اللقاء والابتعاد عنهم.

لكن شعور الارتياح هذا هو في تفسيري جائزة أصحاب النفوس الطيبة الخيرة من الحياة ومن الآخرين.

وشعور النفور والضيق هو عقاب أصحاب النفوس الحاقدة الموتورة من الحياة ومن الآخرين جزاء وفاقا، لما يحمله أصحابها من مشاعر كريهة تكدر صفاءهم.. وتنعكس على وجوههم.

وفي أحيان كثيرة أتمنى لو كان لكل إنسان صورة زيتية كبيرة كتلك الصورة التي كانت لسير دوريان جراى في المسرحية الشهيرة التي تحمل لأوسكار وايلد هذا الاسم، لكي يرى فيها ما يصنعه الحقد الذي يحمله الإنسان والشر الذي يرتكبه ضد الآخرين في صورته، فلقد كان دوريان جراى شابا وسيما صمدت ملامحه للزمن فظل متألقا بالشباب وبراءة الوجه حتى منتصف العمر، وكانت له صورة زيتية رسمها له أحد الرسامين في شبابة قبل أن تلوثه الشرور والأحقاد، فبدت ملامحه فيها بريئة جميلة ثم انغمس في الشر والأنانية فدمر حياة أكثر من فتاة وارتكب أفعالا دنيئة عديدة، فكان يلاحظ أنه كلما ارتكب فعلة جديدة.. بقي وجهه في المرأة بريئا كما هو، لكن صورته الزيتية هي التي تتغير وتنطبع عليها آثار شروره وجرائمه حتى تحولت في النهاية إلى صورة شيطان بشع واضطر لإخفائها في بدروم بيته بعيدا عن العيون!

والفكرة خيالية بالطبع لكنها جميلة وبها جانب ضئيل من الحقيقة العلمية والنفسية.. ولو كانت قابلة للتنفيذ في الحياة كما جاءت في العمل الأدبي لرأينا في المكاتب وفي البيوت وفى الحياة رجالا ونساء وقد نبتت لهم في رؤوسهم قرون الشياطين، ووسمت وجوههم بعلامات الشر وإيذاء الآخرين، كا حدث لصورة دوريان جراى في رواية أوسكار وايلد، أما الجانب الضئيل من الحقيقة العلمية فيها، فهو أن إضمار الشر والحقد لفترة طويلة يفسد السلام النفسي للإنسان فينعكس ذلك تدريجيا على ملامح وجهه، لهذا فهناك وجوه محبة للآخرين ووجوه كارهة لهم.. وهناك وجوه سمحة متواضعة ووجوه متغطرسة ممتعضة من كل شيء، وأذكر أنني رأيت منذ فترة شخصا في سرادق عزاء لم أكن قد قابلته منذ عدة سنوات ففوجئت بما ناله من تغيرات في ملامح وجهه، رأيته معها إنسانا دميما بكل معنى الكلمة أنه كان حتى سنوات قليلة مقبول الشكل والملامح.. فملت إلى صديقي الذي يجلس إلى جواري وهمست له: يا إلهي ماذا حدث لفلان حتى بدا بهذا الشكل البشع؟ فأجابني هامسا وهو يعبث بحبات مسبحته:

الحقد نهش قلبه على كل من حوله وكل زملائه السابقين واللاحقين، فانطبع على وجهه بهذا القبح الشرير!

ولم أستغرب ما سمعت لأن قبح الوجه قد يكون في أحيان كثيرة من قبح السريرة، ولأن كثيرين منا لا يعرفون قيمة نصيحة أرسطو لنا بأهمية أن نطهر نفوسنا من الحقد على الآخرين حتى تصفو لنا الحياة وتصفو لنا وجوهنا وملامحنا أيضا فلقد قيل له: ما بال الحقود أشد هماً من الآخرين؟ فأجاب: لأنه أخذ نصيبه من هموم الحياة.. وأضاف إليه غمه بسرور الناس!

أى همه بنجاحهم وتوفيقهم فيما لم يوفق هو فيه.. فأصبح كل نجاح لهم سهما جديدا يصيب قلبه ويرسم خطا جديدا في تجاعيد وجهه، لهذا تسرع الشيخوخة إليه ولو كان في سن الشباب.. ويكتسي وجهه بالقبح الدميم ولو كان وسيما.

وفي قديم الزمان شاهد أفلاطون شابا دميما يسب شابا وسيما فأمره بالكف عنه وقال له: ينبغي أن ينظر المرء كل يوم إلى وجهه في المرآة فإذا وجده حسنا لم يخلطه بقبيح.. وإذا وجده قبيحا لم يجمع بين قبحين!

وصدق أفلاطون فيها قال.. ولعلي أضيف إليه أنه إذا لم يجمع بين قبحين.. والتزم مع الحياة بالقيم الصحيحة والأخلاقيات الكريمة..

وحمل في قلبه دائما أنبل المشاعر وأرقها وكان وفيا مخلصا أمينا مع الحياة ومع الآخرين، فإن قبح وجهه سوف يتراجع تدريجيا في عيون الآخرين وسوف يطفو صفاء نفسه على وجهه ويكسبه طابع الطيبة والقبول لدى الآخرين.. وهذا هو جمال الروح الحقيقي الذي لا يعدله جمال وهذا هو سر سعادة كثيرين مع زوجات عاطلات عن الجمال المادي لكنهن ثريات بجال النفوس والعشرة الجميلة والفهم لشريك الحياة والعطف والقلب الطيب، وهذا أيضا سر شقاء كثيرين رجالا ونساء مع شركاء للحياة سخت عليهم الحياة في مقاييس الجمال الخارجي وبخلوا هم

على أنفسهم بجمال الروح والطبع والعشرة فتعذبوا وعذبوا شركاءهم بسوء أخلاقهم ولم يغن الجمال المادي عنهم شيئا.

ثم هذا في النهاية هو ما أراد الوحش أن يقوله لنا في الأسطورة القديمة حين كسب حب الجميلة التي فشل أجمل الشباب في نيل ودها بنفسه الطيبة وقلبه الحنون الذهبي، وهو ما تستطيع كل «جميلة» أن تفعله بنفسها حين تكون جميلة شكلا وروحا فيصبح شريك حياتها هو الوحش الطيب الذي تأسره بجمالها الداخلي والخارجي.. ويأسرها هو بأخلاقه وطيبة قلبه.

وشكرا لوالت ديزني الذي استدعى إلى ذهني هذه الأفكار القديمة الجديدة حين قرأت منذ أيام الأسطورة التي بني عليها عرضه الشهير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكننا لا نتعلم أبدا!

هل هو جديد أن نقول: لو علمتم الغيب ما اخترتم إلا الواقع؟ لا ليس جديداً ولا فريداً فنحن لا نعلم الغيب.. ولن نعلمه ومع ذلك يظل الإنسان دائما يحلم بواقع أفضل من واقعه، ويتحرك في اتجاه «الحلم» مضحياً بواقعه، آملا في مستقبل أسعد، فلا يجد في يده غالباً إلا حسرة الندم! وهكذا الإنسان في كل عصر وزمان.

فشاه إيران السابق محمد رضا بهلوى مثلا كان متزوجاً من زوجة جميلة تتصدر صورها أغلفة المجلات العالمية كنموذج للجمال الشرقي الأصيل، وكان سعيداً بها ومعها، لكن الامبراطورة الجميلة ثريا أصفنديارى لم تكن قادرة على الإنجاب وهو يتلهف على إنجاب ولد يرث عرشه ويحمل اسمه من بعده، وللسياسة أحكام لا تخضع لأحكام القلب، لهذا فقد طلب من زوجته أن تسمح له بالزواج من أخرى لإنجاب الوريث الذي سيحفظ العرش في ذريته، والزوجة الجميلة تأبى.. وتبكي ثم توافق في النهاية لكنها تضع شروطاً عسيرة تجعل من زواجه أمرا مستحيلا هي ألا يكون للزوجة الجديدة أي دور في حياة زوجها سوى إنجاب الطفل.. وألا يكون لها أي وضع في البروتوكول، فلا تظهر مع زوجها في مكان ولا في احتفال، وأن يطلقها بعد إنجاب الطفل مباشرة فتتعهده ثريا بالتربية ليصبح صالحا للجلوس على العرش في المستقبل، والشاه السابق يحب زوجته وهي تحبه.. لكنه يحب عرشه أكثر، وهذه الشروط لن تقبل بها فتاة من أسرة كريمة تليق بأن تكون أما لشاه المستقبل، إذن فلا مفر من التضحية بالحب على مذبح العرش وطلق الشاه زوجته وهو يبكي.. وأشاد العقلاء بحكمته التي ضحت باعتبارات الحب والسعادة الشخصية من أجل مصلحة العرش والوطن وغادرت ثريا إيران إلى أوروبا.

وأصبحت حكايتها قصة أثيرة لدى الصحافة الغربية تكتب عنها كل يوم وتنشر صورها دائماً تحت عنوان «الجمال الحزين»!.

وتزوج الشاه من فتاة جميلة أخرى من عائلة عريقة، وحققت الامبراطورة الجديدة فرح ديبا لزوجها أكبر أحلامه فأنجبت له وريثاً للعرش وأبناء وبنات واطمأن قلبه نهائيا للمستقبل.. فالدولة في ازدهار و «الوريث» السعيد ينمو ويكبر.. وكل الحسابات سليمة وفي الاتجاه الصحيح.. لكن الأرض زلزلت فجأة. تحت الأقدام وهبت العاصفة فاقتلعت عرش الشاه من جذوره وغادر الشاه وأسرته إيران إلى المنفى ولم يعد هناك عرش يحتاج إلى وريث ولا إلى التضحية بزوجة محبة من أجل إنجابه.

وأسرع الصحفيون إلى ثريا يطلبون تعليقها على ما حدث فاكتفت بالصمت المعبر، لكن من المؤكد أنها تأملت هذه المفارقة الساخرة طويلا.. وتعجبت لها!

وفي قصة انتصار نابليون بونابرت وسيادته لأوروبا تلفت حوله وسأل نفسه: من سيرث عرش هذه الامبراطورية الشاسعة بعدي؟ ولم يسمع جواباً! فزوجته الجميلة الامبراطورة جوزيفين التي تدلهت في حبه وغالت في غيرتها عليه، لا تنجب.. وهو يريد بإلحاح وريثاً لعرشه ويرفض نصيحة مستشاريه بأن يتبنى

طفلا ليخلفه على العرش، ويرى أن الوقت قد أصبح مناسبا لتأسيس أسرة امبراطورية تحمل اسمه، وهكذا طلق زوجته جوزيفين وأجمع المؤرخون على وصف قراره هذا «بالقسوة» و«الغلظة»وتزوج من الأميرة ماري لويز ابنة امبراطور النمسا بعد أن أنزل بجيوش بلادها وبكبرياء أسرتها التي أرغمها على التضحية بالأميرة الجميلة، ضربات قاصمة، وتزوج ماري لويز وأنجبت لزوجها طفلا سعد به نابليون، ومنحه لقب «ملك روما» لكنه لم يهنأ بميلاده ولا بزواجه السعيد طويلا، فلقد لاحظ العرافون أن طلاقة لجوزيفين وزواجه من ماري لويز كان بداية لتخلي الحظ السعيد عنه خاصة وأنه قد توافق مع قراره الآخر الذي هز العالم المسيحي في ذلك الحين بخلع البابا بيوس التاسع ونفيه من روما، فأمضى نابليون معظم أيامه بعد الزواج السعيد في معارك خاسرة، وتوقفت الانتصارات وبدأت الهزائم حتى اضطر للاستسلام لجيوش ملوك أوروبا والتنازل عن العرش والخروج منفياً إلى جزيرة (ألبا). أما الامبراطورة الجميلة ماري لويز فلقد رفضت أن تصحبه إلى منفاه وأما «وريث العرش» فلقد عهدت به أمه إلى البلاط النمساوي لتربيته، فلم يطل به العمر ومات في سن مبكرة بمرض غامض، ولم تزد الفترة بين ميلاد الوريث الذي ضحى أبوه بزوجته الأولى لكي ينجبه وبين هزيمته وانكساره سوى عامين وبضعة أسابيع!

والملك فاروق الأول ملك مصر السابق طلق زوجته الملكة السابقة فريدة لأسباب كان أهمها أنها لم تنجب له سوى البنات، وهو يتلهف على إنجاب ولد ليحفظ له العرش في ذريته. وبعد طلاقه لها راح رجال حاشيته يبحثون له عن فتاة بارعة الجمال تصلح لأن تكون ملكة، وأما لوريث العرش، وكان من بين المكلفين بهذه المهمة جواهرجي الأسرة المالكة أحمد نجيب، وذات مساء دخلت إلى محله فتاة جميلة في السادسة عشرة من عمرها، لها وجه باسم بريء لتشتري مع خطيبها الموظف الشاب بإحدى المصالح الحكومية شبكتها الذهبية ورآها أحمد نجيب فصعق بجاملها و «استكثر» أن يفوز بها هذا الموظف الصغير.

فتعمد أن يعرقل عملية شرائها للشبكة وطلب منها أن تعود إليه بعد يومين ليريها خاتماً جميلاً رخيص الثمن سيحضره لها خصيصا، وأسرع يتصل بالملك فاروق ويطلب منه الحضور إلى محله في الموعد المحدد ليرى هذه الفتاة. وعادت الفتاة مع خطيبها في الموعد المحدد ورآها فاروق في مكتب الجواهرجي من خلف ستار وقرر خطبتها وسعى رجاله إلى أسرتها بالنبأ السعيد.. فلم تتردد الأسرة ولا الفتاة نفسها في التضحية بخطبة الموظف الصغير الذي فوجيء بالتنكر له بلا سبب مفهوم. وكان تصرف الفتاة بأحكام العقل المجردة «حكيماً» للغاية! فأين هذا الموظف الصغير الذي لا تعدها الحياة معه إلا بحياة ربة أسرة عادية تشرف على المطبخ وتكوي ملابس زوجها، من حياة القصور التي يعدها بها الزواج من فاروق، وتزوجت الفتاة الموعودة بالحظ السعيد من الملك وحققت له أكبر أحلامه فأنجبت له ولداً، واختال فاروق طرباً بمولد من سيحفظ العرش في ذريته وأقام الأفراح ابتهاجاً به فلم تمض ستة شهور حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو وفقد فاروق عرشه إلى الأبد وغادر مصر إلى إيطاليا، مصطحبا زوجته وطفله الوليد، ولم تطل

العشرة بينه وبين ناريان بعدها أكثر من شهور تضاعفت خلالها معاناتها معه، وقيل إنها لم تسعد بالحياة منذ تزوجته أكثر من أيام معدودة، وحصلت على الطلاق وعادت لمصر.. وبعد فترة تزوجت من طبيب شاب فلم تستقر بها سفينة الحياة الزوجية معه أكثر من عامين أو ثلاثة ثم طلقت منه، أما «الموظف الصغير» الذي امتحنته الحياة بهذه المحنة فقد عرف بعد قليل سر فسخ خطبته حين رأى صورة خطيبته السابقة في الصحف وقرأ أنباء زواجها من من الملك، وتجاوز آلامه بعد قليل وتقبل أقداره. ثم تزوج من فتاة جميلة فاضلة من أسرة كريمة سعد بها وسعدت به ومضت بها رحلة الحياة سعيدة هادئة.. ولم يمض وقت طويل حتى حقق نجاحه، واستقال من الوظيفة الصغيرة وحصل على الدكتوراه في القانون الدولي وعمل محامياً دوليا للشركات العالمية وصعد نجمه حتى شغل منصب الوزير وحقق ثراء عريضاً هيأ له ولزوجته حياة ناعمة كحياة القصور، وأتيح لي أن أقترب ذات مرة من حياته الشخصية وهو في منصب الوزير فلمست فيه وفى زوجته الفاضلة دمائة الخلق والطبع الوديع.

واه حقا لو كنتم تعلمون الغيب! فلقد تزوج الشاعر الإنجليزي العظيم ميلتون صاحب «الفردوس المفقود» من ابنة قاض إنجليزي ولم تكن زوجته في البداية سعيدة بزواجها منه لأن عمره ضعف عمرها ومزاجه كمزاج بعض الفنانين عنيف بعض الشيء، وقد ظلت تسأل نفسها طويلا: ماذا سأفعل حين أنجب أولاداً منه ثم يموت زوجي وهم صغار وأواجه الحياة كأرملة وحيدة! وأثرت هواجسها من المستقبل على حياتها معه فلم تنجب منه وهجرته في عام زواجها الأول، وعادت لبيت أسرتها وبقيت به عامين، ثم ثابت إلى رشدها وعادت إليه وأنجبت له ثلاث بنات، ولم تتحقق مخاوفها من أن تواجه الحياة كأرملة وحيدة فلقد ماتت «هي» وتركت بناتها في رعاية الشاعر الذي كف بصره وهو في الرابعة والأربعين فتقبل أقداره بشجاعة وقال في إحدى قصائده:

«أنا لا أعتراض على مشيئة السماء»

«ولم أضعف ولم يمت الأمل في قلبي».

وبعد قليل تزوج ميلتون من زوجة أخرى فاتت أيضا بعد سنة من زواجها منه فتزوج بعدها من زوجة ثالثة كانت «هي» التي طال بها العمر وعاشت بعده!

أما الأديب الإنجليزي العظيم شارلز ديكنز فلقد أحب الفتاة الجميلة ماريا بندل ابنة مدير أحد المصارف وهو أديب يكافح لبناء حياته بقلمه، وألح عليها في أن تتزوجه.. لكن الفتاة «العاقلة» لم تضعف أمام دموعه ولا أمام العاطفة التي تؤثر في غيرها من «الحمقاوات» ورأت أنه لن يستطيع أن يوفر لها إمكانات الحياة المريحة.. وقالت «إن ديكنز شاب لطيف.. لكنه أديب، فهل يستطيع أن يعولني بقلمه»؟

وحطمت قلب الأديب الشاب وتزوجت من ثري إنجليزي يملك الضياع والبيوت ويستطيع أن يهيىء لها الحياة اللائقة بها.. وأشادت الأسرة بقرارها وبرجاحة

عقلها فلم تمض أعوام قليلة حتى أفلس زوجها وبيعت الضياع والبيوت وعاشت حتى آخر أيامها في مستوى الكفاف تحاصرها الديون من كل جانب.

أما ديكنز فقد تغلب على آلامه وواصل كتابة روائعة القصصية وكسب بقلمه ما لم يحلم به ذات يوم وأصبح من أغنى الرجال في انجلترا في عصره «وعبدته نساء انجلترا» كما قال عنه من أرخوا لحياته ولو علمتم الغيب حقا ما اخترتم إلا الواقع أو كما يقول الإمام الحسن بن علي: من اعتمد على حسن اختيار الله لم يرض بغير ما اختاره الله له.

لكننا لا نرضى بكل أسف.. ولا نتقبل أقدارنا بشجاعة.. وإنها نتطلع دائما لما نرى أننا جديرون به.. ولا نكف أبدا عن الحلم بأن تجتمع لنا كل أسباب السعادة في بوتقة واحدة، كأننا بشر فوق العادة أو كأننا «درة البشر» التي ينبغي أن يكتمل لها ما لم يكتمل لأحد من قبلها، ولا يجوز أن يجرى عليها ما يجري على غيرها من الناس. أو كأننا نعلم الغيب ونضمن تماما أننا إذا تخلينا عما بين أيدينا وضحينا به على مذبح أحلامنا فسوف نجني السعادة التي نبحث عنها ونحصل على الأنفع الأرفع دائما وأبدأ لا نتعلم من دروس الحياة ودروس التاريخ التي تطالبنا بالعكس

أو قليلا ما نتعلم.. وقليلا ما نتقبل أقدارنا ونقول مع «ميلتون»:

«أنا لا أعترض على مشيئة السماء»!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حـاول أن تفهـم

تخيل نفسك تسير في الشارع فإذا بشخص يصطدم بك بعنف ثم لا يتوقف ليعتذر لك.. وإنها يمضي في طريقه بلا مبالاة.

لقد صدمك بعنف حتى كدت تسقط على الأرض ومع ذلك فلقد كنت مستعداً للصفح عنه.. إذا قال لك كلمة اعتذار واحدة ولم يقلها فغلى الدم في عروقك.. واستدرت إليه منفعلاً وجذبته من ذراعه وعنفته بشدة واستسلمت لانفعالك فقلت له: إنه حيوان وتماديت في الغضب حتى أصبحت مستعداً لأن تضربه أيضاً إذا تفوه بأي كلمة تزيد من هياج أعصابك.. فإذا بالرجل ينظر إليك مهموماً ويقول لك آسف، لم أرك ولم أشعر بأني اصطدمت بك.. لأني حزين ومهموم بأفكاري ولا أكاد أشعر بالناس من حولي.. فقد مات ابني الوحيد منذ أيام، وكنت أحاول التسرية عن نفسي بالمشي هرباً من جو البيت الحزين!

ماذا ستفعل حينئذ أو ماذا سيحدث لك حين تسمع منه ذلك؟

إنك نفس الشخص الهائج منفلت الأعصاب الذي كان على وشك الاعتداء عليه منذ لحظات.. وهو نفس الرجل الذي استثارك بشدة منذ قليل، لكن الوضع اختلف بينكما الآن وفي لحظة واحدة، فلم تعد حانقاً عليه إلى حد الجنون.. ولم تعد راغباً في إيلامه أو إيذائه.. وإنما أصبحت فجأة تحس بالتعاطف معه وبالندم على أنك جرحت مشاعره بكلماتك القاسية، وترغب بكل وسيلة في أن تخفف أثرها عليه وتعتذر له عنها بل ولن تستريح نفسياً إلا إذا تأكدت أنه قد صفح عنك، وقبل اعتذارك.. وربما تعارفتما وتبادلتما البطاقات، وأصبحت هذه المقابلة العاصفة بينكما بداية لعلاقة إنسانية حميمة.

ما الذي تغير داخلك خلال لحظات فنقلك من حالة الغضب الأهوج إلى حالة التعاطف والمشاركة والمواساة؟ إنه شيء جوهري هام هو الفهم الإنساني لمشاعر الآخرين ودوافعهم.. لقد فهمت لماذا اصطدم بك الرجل كأنما لم يرك.. ولماذا مضى في طريقه بغير اعتذار، وحين «فهمت» تغيرت حالتك الوجدانية من فورة الغضب إلى حالة العطف عن الآخرين والتماس الأعذار لهم.

وفهم كل شيء يؤدى إلى الصفح عن كل شيء كما قالت الأديبة الفرنسية مدام دى ستايل ذات يوم.. لكن كيف يتحقق هذا الفهم في البداية لكي ينزع فتيل الغضب ويغرس بدلاً منه بذور العطف والتقارب؟

إنه لن يتحقق إلا إذا «تكلم» الإنسان عن نفسه وعبر عن مشاعره بصدق أو تكلم الآخرون عنه وفسروا ظروفه.. لكن آفة الإنسان في أحيان كثيرة أنه قد لا يهتم بتوضيح أفكاره ويفضل أن يحيط نفسه بالغموض، فيسيء الآخرون فهمه ويتعاملون معه على أساس فهم خاطىء له.. وآفة الآخرين أنهم في كثير من الأحيان ليسوا على استعداد لأن يتطوعوا بشرح ظروف غيرهم.. وطلب الأعذار لهم، لأنهم مشغولون بأنفسهم عن الآخرين.

وفى مسرحية «سوء التفاهم» للأديب الفرنسي الجزائري المولد البير كامى عاد الإبن المهاجر بعد غيبة طويلة إلى بلدته.. وأقام في الفندق الصغير المهجور الذي تملكه أمه، وشقيقته، فلم يتعرفا عليه وفضل ألا يصارحهما بشخصيته في اليوم الأول من إقامته ليستمتع بالمفاجأة التي يعدها لهما بعد قليل، فكانت النتيجة المأساوية أن قتلته أمه وشقيقته دون أن يعرفا شخصيته ليسرقاه.. لأن الفندق مهجور والمدينة الصغيرة مخربة ولم يعد يزورها أحد.. ولم يعد الفندق يدر عليهما ما يسد مطالبهما!

ولخص كامي أزمة الشقاء الإنساني كلها في عبارة واحدة هي: لو أن كلمة واحدة قد قيلت لما وقعت الجريمة، لكن أحداً لم يقلها.. وشقاء البشر ينتج أحياناً بسبب عجزهم عن النطق بكلمات بسيطة أو بسبب تفضيل البعض لأن يغلف نفسه بالصمت والغموض!

وكذلك الحال في كثير من معاملات الإنسان اليومية وفى حياته الخاصة وفى كثير من أزماته التي تحس أحياناً أنه لو أن كلمة واحدة قد قيلت لما تعقدت الأمور على هذا النحو ولأمكن تجنب كثير من الخلافات والمشاكل.. والمعاناة.

إن الإنسان قنبلة قابلة للانفجار في أية لحظة.. لكن هناك كلمات سحرية تستطيع أن تنزع فتيلها وتبطل مفعولها قبل أن تدوي بالخراب والدمار، وهي الكلمات التي تحقق الفهم الإنساني فيقود الفهم إلى الصفح والتماس الأعذار للمخطئين.. لكن هل ينطق بها في الوقت المناسب؟ هذه هي القضية التي يهتم بها فرع جديد من فروع علم النفس السلوكي الذي يجد إقبالاً عليه الآن في الغرب لأنه يساعد الإنسان على تعديل سلوكه وتوضيح نفسه للآخرين حتى لا يسيئون فهمه ويظلمونه باتخاذ مواقف حادة منه على أساس فهم خاطىء له!

لقد قال سقراط العظييم لأحد تلاميذه ذات يوم: تكلم حتى أراك أي لكي أعرف شخصيتك الحقيقية من خلال أفكارك.. وأفهمك وألتمس العذر لك.

وهذا هو نفس ما يطالب به المتخصصون في هذا الفرع الجديد الإنسان في حياته الخاصة.. والعامة على السواء.

أن يتكلم.. ويوضح نفسه ولا يتصور أن الآخرين ينبغى عليهم أن يعرفوه من الداخل بغير جهد منه. فالصمت والغموض والانكفاء على الذات والتردد في البوح بالمشاعر من أكثر عوامل سوء التفاهم الإنساني بين البشر ومن أعدى أعداء الحب بين المتحابين والمودة بين الأهل والأصدقاء ورفاق الحياة.

لقد درس خبراء الاستشارات العائلية في الولايات المتحدة عدداً كبيراً من حالات عدم الوفاق الزوجي، وكثرة المشاحنات اليومية بين أزواج وزوجات يعترف كل منهم بأنه يحب رفيق حياته، لكنه يعاني معه، وتوصلوا بعد الدراسة إلى روشتة من ثلاث خطوات تساهم في تجنب أسباب المنازعات اليومية بين الأزواج.. ويمكن في رأيي تعميمها على كل العلاقات الإنسانية الأخرى.

الخطوة الأولى منها تقول لك: اسمع جيدا ما قيل لك لتتفهم أولا الأمر المطروح للنقاش، قبل أن تندفع إلى الرفض والاعتراض والهجوم وتخرج منك كلمات طائشة، ثم تكتشف بعد انفجار الأزمة أنك لم تتبين جيداً ما قيل لك، وأنك تسرعت بالانفعال قبل أن «تفهم».. ولو «فهمت» لعذرت وكان رد فعلك أكثر. عقلانية وأقل اندفاعاً!

وعلى الجانب الآخر.. فإذا قلت شيئاً لشريك حياتك أو لأي إنسان تتعامل معه.. فتأكد أولاً من أنه قد سمع بوضوح ما قلته واستوعبه جيداً قبل أن يثور غضبك عليه لأنه لم يستجب لك الاستجابة الملائمة، فقد تكتشف بعد اشتعال الأزمة أنه لم يسمعك أصلا.. أو سمعك ولم يفهمك جيداً.. أو سمعك وفهمك على نحو خاطىء وهذه الخطوة ضرورية لتجنب بعض أسباب النزاع بين البشر من المنبع.. فقد تلوم على سبيل المثال شخصاً لأنه لم يرد عليك تحيتك وتقاطعه أو تعامله بجفاء ثم تكتشف بعد حين أنه لم يسمع تحيتك من الأصل، أو سمعها ولم يتصور أنها موجهة إليه هو بل لشخص آخر.. إلخ

أما الخطوة الثانية فهي أن تجعل وجهة نظر شريك حياتك أو الطرف الآخر معك في النقاش قابلة للمناقشة والتفكر فيها، ومن ثم قبولها أو رفضها بعد ذلك، ذلك أن من أهم أسباب سوء التفاهم بين البشر.. مبادرة أحد الطرفين بنبذ رأي الطرف الآخر قبل مناقشته كما لو كان «زبالة» لا تستحق الالتفات إليها، وليس وجهة نظر جديرة بالتفكير فيها. كما أن إشعار شريك الحياة أو محدثك بأنك تأخذ شكواه أو أفكاره مأخذ الجد يريحه نفسياً، ويشعره باهتمامك به ومشاعره قبل أن تبدأ مناقشة رأيه والاختلاف معه حوله.

فقد تقول لك زوجتك مثلاً إنك لا تشعر بمعاناتي.. ولا تهتم بأحاسيسي كإنسانة وكل ما يعنيك من الحياة هو مطالبك واحتياجاتك.. إنني لست خادمة مكلفة بخدمتك وخدمة أطفالك ليل نهار فلي أنا أيضاً احتياجاتي الإنسانية وحقوقي.. أريد من يفهمني ويقدر مشاعري ويشاركني أحاسيسي ويلبي احتياجاتي العاطفية، وليس نزيلا في فندق لا يعنيه من أمري سوى الطعام والملابس النظيفة وميزانية البيت وصحة الأولاد.. إلخ.

فكيف يكون فعلك السريع تجاه شكواها التي سمعتها من قبل وربما سوف تسمعها إلى نهاية العمر؟

إنك قد تجيبها الإجابة الشائعة: ما هذا الهراء الذي تقولينه وترددينه كل حين؛ إننى أشقى وأكافح وأفعل كل ما أستطيع لإرضائك وتلبية احتياجاتك ومطالب الأبناء فاذا تفعلين أنت؟ إن أعمال البيت وإعداد الطعام لا تستغرق منك أكثر من ساعتين وتمضين اليوم بأكمله جالسة كالصنم أمام التليفزيون؟ ثم تحاولين بعد ذلك زيادة متاعبي بهذه التفاهات التي لا يهتم بها سوى «رأس» خالية من الاهتمامات الجدية كرأسك؟

فإذا فعلت ذلك فلقد حولت شكوى عابرة أو مجرد عبارة للتنفيس عن الضيق العابر بحكم العادة، إلى موضوع للجدال. وسوف ينهض كل منكما لإثبات سلامة

موقفه وخطأ موقف الآخر وينتهي الأمر بنزاع جديد يؤكد لكل منكما أنه إنسان تعيس وضحية لأنانية الآخر واهتمامه بنفسه وحدها! وكذلك نفس الشيء في أي خلاف عابر مع أي إنسان تتعامل معه! وخبراء الاستشارات ينصحونك بشيء مختلف هو أن تجعل من شكوى الطرف الآخر شيئاً له منطقه ومعقوليته حتى ولو اختلفت معه.. فالشكوى جدية أولا وليست من التفاهات لكن إذا كان لك رأي آخر فيها تشرحه لها وتحاولان معاً التوفيق بين ظروف كل منكما بما يزيل أسباب الشكوى ويرضي الطرفين.

ولأن الأميركيين مولعون بمعلبات الطعام الجاهز و الأكلات المطهوة مسبقاً التي لا تحتاج إلا إلى تسخينها قبل تناولها، فلقد أعدوا لهم أيضاً حوارات وعبارات جاهزة لكي يستخدموها لامتصاص بوادر الشقاق وتحويله إلى مناقشة عائلية هادئة وليس إلى نزاع عائلي ويدربون الأزواج والزوجات الذين يلجأون إلى مكاتب الاستشارات العائلية على حفظها وترديدها في الحالات الماثلة وهي قائمة تختلف في كلماتها، لكنها تتفق في مضمونها الذي لا يخرج عن مضمون هذه العبارة: إن كلامك يبدو لي منطقياً ومعقولاً وأفهم أسبابك وأقدر مشاعرك وأتعاطف معها.. لكنك من ناحية أخرى يا عزيزتي.. ثم يبدأ الزوج أو الزوجة في عرض وجهة النظر الأخرى في مناخ من العطف والاستعداد للتفاهم وليس في جو من العناد والرفض والتحفز لإثبات حمق الطرف الآخر أو تفاهته.

ثم تأتي الخطوة الثالثة بعد ذلك وهي تطالب كل طرف بأن «يتمثل» مشاعر الآخر.. ويتصور نفسه في موقفه، وحين يفعل ذلك فسوف يكتشف أنه لو كان الشخص الآخر لكان له بعض الحق في شكواه. وهذا «التمثل» يخفف من حدة الرفض والإنكار لوجهة نظر الطرف الآخر.. ويفتح الباب لالتماس الأعذار له.. ويقوي الرغبة في التفاهم معه.

ويرتبط بهذه الخطوة شيء آخر شديد الأهمية. هو أن يشعر كل طرف الطرف الآخر أنه يحاول الالتقاء معه في منتصف الطريق، ويحرص على عدم إغضابه.. لأنه إنسان عزيز عليه ولا يتصور أن يفقده مشاعره الحميمة. ومن عجب أن هؤلاء الخبراء لا يكتفون بذلك وإنما يتجاوزونه إلى «تدريب» الأزواج والزوجات على التعبير عن مشاعر الحب التي يحملونها لشركاء الحياة والتي تتوارى أحياناً خلف غيوم الشجار اليومي.

وقد شاهدت في إحدى حلقات البرنامج التليفزيوني الأميركي الشهير «أوبرا وينفري شو» مذيعة البرنامج السمراء الذكية تعرض ثلاث حالات لأزواج وزوجات يحب كل منهم الآخر لكنهم كانوا يعيشون في شقاق مستمر ومشاجرات يومية، فلجأوا إلى خبير الاستشارات الأسرية، وقام الخبير بدراسة حالاتهم ومساعدتهم على عودة الحب والصفاء بينهم.. ولا غرابة في ذلك لكن الغريب حقاً، هو أن كل ذلك قد تم على عدة مراحل استغرقت عدة أسابيع وسجلتها كاميرا التليفزيون في بيوت هؤلاء الأزواج والزوجات! فسجلت الكاميرا في البداية شكوى كل زوجة وزوج بدموع الزوجة وسأم الزوج وتفكيره في الانفصال، ثم بدأ العلاج وتابعته الكاميرا أيضاً في جلسات متعددة، تضمنت نصائح الخبير لكل

زوجة وزوج با يفعل ويقول عند نشوب بوادر الخلاف. ثم بدأ «التدريب العملي» من الخبير للزوجين على النطق بالعبارات المدروسة التي تنزع فتيل الغضب والعناد قبل الانفجار، ثم النطق بعبارات الحب والهيام التي أنسى استمرار المشاجرات الزوجية استخدامها خلال السنوات الأخيرة. وشاهدت الخبير يجلس بين الزوجين كالملقن في خشبة المسرح يقول للزوجة: قولي له ماذا تحبين فيه؟ فتنظر إلى زوجها وتعبر له عما تحب فيه ابتداء من لون عينيه إلى تسريحة شعره، إلى ملامح وجهه حتى طريقة مشيته.. ثم يتجه الخبير إلى الزوج ويطلب منه أن يعبر لزوجته عما يحبه فيها فيستجيب ويعبر لها عن إعجابه بكل شيء فيها من عينيها حتى أصابع قدميها الجميلة.

ويلقن الخبير الزوجة بما تجيب به على كلمات الإطراء ويسعفها «بمفاتيح» الحوار كما يفعل الملقن مع الممثلين كلما نسوا.. وكذلك يفعل مع الزوج. والغريب حقاً هو أنه رغم أنها كان يرددان حواراً معداً من جانب الخبير الجالس بينها، فلقد سعد كل منهما بما سمع وبدت السعادة على وجهه، لأن الحوار معد.. لكن المشاعر صادقة وكانت تنتظر من يساعدها على إخراجها والتعبير عنها.، ولأن الإنسان يتطلع بلهفة دائماً لمن يؤكد أنه يحبه ويفهمه ويتعاطف معه.

وبعد التدريب على الحوار بدأ التدريب على «الحركة» أو الميزانسين بلغة المسرح، فراح الخبير يدرب كل زوجين على أن يستلقيا متجاورين على أريكة غرفة المعيشة ويحتضن كل منها الآخر في حنان ورأيته يرفع يد الزوجة ويضعها على مؤخرة رأس زوجها ويطلب منها أن تداعب شعره بأصابعها وهي تتحدث إليه.. ويرفع ذراع الزوج ويلفه حول كتف زوجته، ويطلب من كل منها أن ينظر إلى عيني الآخر وهويتكلم معه، لأن نظرة العين نوع من التواصل.. وأزمة جفاف الحب تبدأ من تجاهل كل طرف النظر إلى عيني الآخر وهو يحدثه حتى ينتهي الأمر بانقطاع سلوك التواصل والاتصال بين الاثنين مع تصاعد الخلافات.. ورأيته ينصحهما بألا يناقشا أي اختلاف في وجهة النظر لهما إلا وهما في هذا الوضع الحميم.. ويؤكد لها أن النتائج ستختلف كثيراً.

وبعد انتهاء برنامج العلاج الذي استغرق عدة أسابيع جاء الجميع إلى استديو التليفزيون وناقشتهم المذيعة الذكية وعرضت أمامهم لجمهور الحاضرين في الاستديو مراحل العلاج التي صورتها الكاميرا فشاهدوا أنفسهم مع الجمهور ومع ملايين المشاهدين في أنحاء العالم.. وهم تعساء متباعدون يفتقدون التجاوب والاتصال.. ثم وهم يعالجون بواسطة الخبير إلى أن نجح العلاج وحل الوئام محل الخلف!

وفى عبارة واحدة لخص الخبير الأزمة كلها في أنها كانت أزمة انقطاع التواصل بسبب عدم فهم كل منها لدوافع الآخر وحقيقة أسبابه ومشاعره.. وحين تحقق الفهم عاد التواصل وذاب الجليد ونمت بذور الحب القديم من جديد!

وبالفهم تحل كثير من المشاكل.. ويتخفف الإنسان من كثير من عناده ومعاناته لكن الفهم لا يتحقق في ظل الصمت والغموض وموت الكلمات الحلوة فوق

الشفاه.. فتكلم أرجوك حتى أراك.. وأفهمك وألتمس لك العذر وأصفح عنك.. وشكرا مقدما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حبوها.. ولعنوها!

كلهم أحبوها.. أكثرهم لعنوها.. جميعهم اتفقوا على أنه لاغنى عنها! هذا باختصار هو موقف الأدباء والمفكرين العظام من المرأة منذ قديم الزمان! فكتب الأدب حافلة بالسخريات اللاذعة عن المرأة والزواج، وبالرغم من ذلك فالجميع يسلمون مع الشاعر الإنجليزي (كيتس) بأنك «تستطيع أن تكره المرأة.. وتستطيع أن تحبها لكنك في كل الأحوال لا تستطيع أن تعيش بدونها».

وهذا صحيح فكل من تظاهروا من الأدباء والمفكرين بأنهم يكرهون المرأة.. ولا يرونها «كائنا» جديراً بالحب، سلموا أمامها في حياتهم الخاصة وبعد بعض العناد وألقوا أسلحتهم نادمين.

وصاحب أشهر السخريات اللاذعة عن المرأة والزواج الروائي الفرنسي العظيم أنوريه دي بلزاك كان يقول إنه لا ينبغي للرجل أن يتزوج قبل أن يدرس علم وظائف الأعضاء.. ويقوم بتشريح امرأة واحدة على الأقل ليعرف سر هذا الكائن الغريب!.

وكان يقول أيضاً: العشق أسهل ألف مرة من الزواج فالعاشق ليس مطالباً إلا بأن يكون لطيفا من حين لآخر عندما يلتقي بحبيبته، أما الزوج فهو مطالب بأن يكون لطيفاً ليل نهار وإلا كانت عاقبته سوداء!.

وغير ذلك كثير وكثير من الكلمات اللاذعة الساخرة ومع ذلك فلقد كان هو نفسه أسيرا لكونتيسة بولندية ظل يطاردها اثني عشر عاما لكي تحصل على الطلاق من زوجها وتتزوجه، وهي تعبث به وتراوغه ثم مات زوجها فأسرع إليها يكرر مطلبه ويؤكد لها أنه قد تخلص من ديونه وجمع ثروة كبيرة وسوف يهيىء لها حياة فاخرة، فظلت تراوغه خمس سنوات أخرى ثم وافقت على الزواج منه، وأعد لها بلزاك قصراً فاخراً وكتب إلى شقيقته أنه قد حقق الآن حلم حياته، وتزوجها فإذا به يجد بين يديه سيدة كهلة ذوى جمالها وتورمت ساقاها ويداها من أثر مرض النقرس.. وتعجز عن السير أحياناً بغير مساعدة الآخرين، لكنه رغم كل ذلك سعيد بأن فتاة أحلامه القديمة قد استقرت في عش الزوجية معه، ولم يمض على زواجه بها سوى شهور حتى مات وورثت الكونتيسة العجوز ثروته، وقال بعض النقاد إنها ما تزوجته إلا بعد أن تأكدت من قرب وفاته، وصدقت عليه كلمة معاصره العظيم فيكتور هوجو الذي زاره في مرضه ثم كتب عنه في أوراقه «تزوج أخيراً وهو غني وعلى أبواب القبر» أي بعد طول عناد ومكابرة في احتقار الزواج ورفضه والتندر عليه!

والأديب الإيرلندي الكبير برنارد شو كان يقول: إن الفقراء يتزوجون لأنهم لا يملكون أجر خادمة، وأواسط الناس يتزوجون لأنهم لا يقدرون على تكاليف العشيقة، والأثرياء يتزوجون لأنهم لا يجدون وسيلة أخرى «لشراء» وريث يرث عنهم أموالهم! وكان يقول أيضا ساخراً من الزواج: طريقان لا ثالث لها لكي

تصبح ثريا.. الأول أن تتزوج من زوجة ثرية.. والثاني أن تكافح عشرين عاما وتجمع ثروة ثم تتزوج من زوجة ثرية أيضا!

ومع ذلك فلقد استمتع بحياته العائلية مع زوجته إلى أقصى حد واستمتع بحبها وعطفها وإعجابها به كإنسان وأديب، وكانت زوجته أطول لسانا منه على النقاد الذين هاجموا مسرحياته.. بل وعلى الجمهور الذي لم يحسن استقبال بعضها وطلبت منه غاضبة بعد فشل إحدى هذه المسرحيات ألا يكتب «لهؤلاء الناس» مسرحيات جديدة لأنهم لا يستحقونها!

والشاعر سانذارد كتب يقول:

«يكتب على الماء.. يزرع في الرمال من يسلم كل أمره إلى قلب امرأة»!.

فلم تمض عليه فترة قصيرة حتى «سلم كل أمره» إلى قلب امرأة وتزوجها وعاش إلى جوارها حتى نهاية عمره!

والفيلسوف الألماني شوبنهاور ظل معظم سنوات عمره يكره المرأة ويحتقرها ويقول: «المرأة مخلوق وضيع قصير النظر ليس لديه أي استعداد للسمو الروحي وهي «شيء» بين الطفل والرجل تستعبدها اللحظة الراهنة ولا تستطيع أن تنظر لأبعد من موضع قدمها»!

وعاش وحيداً منعزلاً حتى بلغ السبعين.. وكان من فقرات برنامجه اليومي الذي يقسمه بين القراءة والتفكير والتحديق الصامت في تمثال صغير لبوذا يضعه على مكتبه فقرة ثابتة لم تتغير لأكثر من عشرين عاما هي: توجيه كلمة قاسية كل يوم إلى صاحبة البيت الذي يقيم فيه والسخرية من غبائها وتبادل بعض السباب معها!

ثم طرقت بابه ذات يوم فتاة شقراء جميلة صغيرة استأذنته في أن تصنع له تمثالاً.. ووافق الفيلسوف وجلس أمامها ساعتين كل يوم بهذا القلب الذي ظل يكره المرأة من أعاقه أكثر من خمسين سنة.. يقع في هوى هذه الفتاة الصغيرة الجميلة ويسلم قياده لها بلا مقاومة ويكتب الفيلسوف في أوراقه متعجباً من نفسه: لم أكن أتخيل أن هناك فتاة واحدة في العالم جديرة بالحب حتى التقيت بهذه الفتاة!

والقائد الروماني ماركوس انطونيوس أو مارك انطونيو زحف بجيوشه إلى الشرق ليرفع أعلام روما عليه.. ووصل إلى طرطوس في سوريا، وأقام معسكره هناك، وكان يشك في ولاء ملكة مصر الجميلة كليوباترا فأرسل يستدعيها للحضور إليه لتقدم إليه الحساب عما فعلت وعما تقدم إلى روما، فتوجهت إليه كليوباترا في موكب لم يشهد له التاريخ مثيلا في الجلال والعظمة، والتقت بالقائد الروماني المنتصر، وبدأ أنطونيو كما قال المؤرخون حديثه لها بلهجة «السيد الآمر» للتابع المشكوك في أمانته فلم يلبث أن فتنته الملكة الساحرة ووقع في هواها وعادت معه إلى الإسكندرية فاستسلم لحبها وأشركها معه في العرش ثم أقدم على الخطوة التي أثارت عليه عداء روما فطلق زوجته أوكتافيا، وتزوج كليوباترا فاعتبرته روما خائنا لها وسيرت إليه الأساطيل التي هزمته وانتحرت كليوباترا.

ولخص المؤرخون قصته مع كليوباترا في عبارة موجزة هي أنه:

بدأ آمراً ثم انتهى عبداً مطيعا!

وكذلك فعل المفكر الفرنسي «سان سيمون» واضع بدايات الفكر الاشتراكي فلقد انشغل بدعوته وبالشباب الذين يلتفون حوله ويتعلمون مبادئه عن المرأة والزواج وقال: إن المرأة «اهتمام لا يليق بالمفكرين».. لكنه رغم ذلك تمنى أن يتزوج أشهر كاتبة في عصره وهي مدام دي ستايل وحاول إقناعها بالزواج منه.. فقال لها: أنت أعظم امرأة في العالم وأنا أعظم رجل فلنتزوج إذن لننجب أعظم ولد في هذا الكون!

لكن مدام دى ستايل ردته خائباً وضحكت من طفوليته وأوهامه ومن محاولته أن يخفي ضعفه واحتياجه العاطفي إليها تحت قناع فخم من الكلمات الكبيرة والألفاظ الرنانة.. وكأنها إذا تزوجا فلن يفعلا ذلك لاحتياجات إنسانية وعاطفية وبيولوجية كما يفعل سائر البشر.. وإنما لأداء رسالة تاريخية تليق بأمثالها من الفلاسفة والمفكرين!

وعاش سان سيمون عمره يتمنى الزواج منها.. وهي ترفضه بإصرار وما حدث لشوبنهاور ومارك أنطونيو وسان سيمون حدث لكثيرين غيرهم ويحدث كل يوم لآخرين بدأوا جميعا آمرين.. ثم انتهوا راكعين.. بل ونادمين على ضياع العمر بلا زواج. من توفيق الحكيم الذي ظل رافضاً للزواج حتى اقترب من الخمسين، وكتبت عنه الصحف أنه عدو المرأة ثم تزوج وسعد بحب زوجته له سنوات طويلة.. كأي أعزب عادي قاوم فكرة الزواج طويلا ثم انهزم أمامها، فإذا قرأت هذه الكلمات القصيرة اللاذعة التي يجمل بها بعض الكتاب كتاباتهم من نوع:

إذا تشاجر الزوج وزوجته فإما أن تنتصر هي أو ينهزم هو!

أو من نوع:

الزواج كالجلوس فوق ظهر سفينة في بحر هائج كلاهما ينبغي أن يفعله المرء بحذر شديد!

أو من نوع:

لا تمدح زوجتك لأصدقائك إلا إذا عاشرتها سبع سنوات كاملة فإذا فعلت.. «ابقى قابلني» إذا استطعت أن تجد صوتك بعدها لكي تتكلم بالمدح أو بغيره!

إذا قرأت شيئاً من ذلك فلا تتصور أن كاتبه من أعداء المرأة أو أعداء الزواج.. فهي ليست سوى ثرثرة ينصح بها أطباء النفس لكي تخفف من البخار المكتوم «وتعين» الجميع على الاستمتاع بالحياة الزوجية.. أو على مواصلة الحياة. والشيء اللافت للنظر حقا هو أن هذه السخريات اللاذعة من الزواج لا نقرأها إلا للكتاب الرجال، وأننا لا نقرأ مثلا لكاتبة أو أديبة عبارة لاذعة تسخر من الرجل أو الزواج، وتصبح قولا مأثورا تتناقله كتب الأدب كما تفعل مع أقوال الرجال. وتفسير هذه الملاحظة عندي هو أن معظم الكتاب أصلاً من الرجال.. وأن من

يكتب من النساء يتحرجن من السخرية من الزواج ومن الرجل لأسباب عائلية واجتماعية مفهومة، وأيضا لأن المرأة تبدد موهبتها الفنية في انتقاد الرجل والزواج في الكلام الشفوى وجلسات الصديقات، ولو خطت أفكارها على الورق لأضحكتنا بتعليقاتها اللاذعة من الرجل ربما بأكثر مما يضحكنا الرجل حين يسخر من المرأة والزواج. فعسى أن تتجرأ المرأة وتكتب بالشعر والنثر رأيها في ذلك وإلى أن تفعل فسوف يظل إعجابي بلا حدود بعبارة الفيلسوف الإغريقي سقراط حين سأله شاب من تلاميذه: هل تنصحني بأن أتزوج أم بأن أبقى عزباً؟

فأجابه سقراط الحكيم بلا تردد: تزوج يا ولدي.. فأنت في كلا الحالين نادم!

أي أنك إن تزوجت سوف تندم على ضياع حريتك ومالك وراحة بالك!

وإن لم تتزوج فسوف تندم على ضياع العمر في الوحدة والوحشة وافتقاد الرفيق!

وما دام الأمر كذلك فرأيي دائماً هو أن تندم بعد أن تضيف شيئاً للحياة.. بدلا من أن تندم بعد أن تخصم شيئاً منها. ذلك أن ندم الأعزب في رأيي دائماً أكبر.. لهذا لا أتردد في استعارة عبارة سقراط البليغة هذه لأجيب بها على من يسألونني نفس السؤال الحائر. فهل توافقني في ذلك أم.. هل عندك جواب آخر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عـذاب كل إنســان!

أقسى أنواع العذاب.. أن ترى «أملك» أمامك أو قريباً من يدك وتعجز عن أن تمسك به!

ولأنه «قريب» فسوف تتعذب دائماً بالرغبة فيه «مستحيل» فسوف تتعذب دائماً بالحرمان منه وأبداً لن تناله ويسكن به قلبك.. وأبداً لن تيأس وتنعم باليأس منه.

وهذا هو عذاب كل إنسان يتطلع إلى حلم سعادة مستحيلة.. أو إلى أهداف لا تسمح له الأقدار ببلوغها.. ولا يسمح هو لنفسه باليأس منها.

وهو أيضاً عذاب فرنتشيسكا الجميلة الذي صور به الشاعر الإيطالي العظيم عذاب الإنسان في كل مكان وزمان، أصدق تصوير.. وأبشعه!

ففي مدينة إيطالية صغيرة تقع على ساحل الأدرياتيك، اتفقت أسرتان نبيلتان في العصور الوسطى على وضع حد للعداء والتنافس بينهما عن طريق المصاهرة. ورشحت فرانتشيسكا الجميلة الرقيقة للزواج من أحد شباب الأسرة المنافسة، فاعتقدت أنها سوف تتزوج من باولو الشاب الوسيم القوي الذي تحبه في صمت، لكنها خدعت وفوجئت بنفسها تزف إلى شقيقه القبيح المشوه الصارم جانتشوتو فاستسلمت لمصيرها ونفذت إرادة أبيها وأسرتها وتزوجته وأنجبت منه طفلة وكتمت حبها الصامت في قلبها، ولأن نداء الحب يخترق الحواجز فلقد أحبها باولو وبادلها حبها الصامت المقهور.

ثم عين الزوج عمدة لإحدى المدن القريبة فانتقل إليها وأصبح غيابه عن زوجته الجميلة يطول، ووجد المحبان بعض الوقت لتبادل الأحاديث البريئة والنظرات المعبرة، ثم حدث أن جلسا في أحد الأيام يقرآن معاً قصة فرنسية عن غرام الملكة جينفرا بفارسها الوسيم لانتشلوتو فبلغا فيها مشهداً عاطفياً تضعف فيه إرادتها ويستسلمان لإرادة الحب فيتبادلان قبلة محرمة، فالتقت عيون الحبيبين فرانتشيسكا وباولو وشحب وجه كل منهما وتزايد نبضه ورأت فرانتشيسكا نفسها في صورة الملكة جينفرا ورأى باولو نفسه في صورة الفارس الوسيم.. فال على حبيبته ولمس شفتيها.. واستسلمت الجميلة لقبلته للحظات ثم تمالكت نفسها ونهضت مضطربة. ورآهما أحد الأقارب فكتب إلى زوجها وعاد الزوج وراقبها خفية حتى رأهما في عزلتها يقرآن نفس القصة فاندفع إليهما.. وبادر باولو بالفرار لكن ثوبه تعلق بالباب وهجم عليه لانتشلوتو ليضربه بسيفه فأسرعت فرانتشيسكا تعترض طريقه وتحمي حبيبها، فاخترق السيف صدرها ونفذ إلى ظهر باولو فمات العاشقان في لحظة واحدة وبسيف واحد جمع بين جسديهما للمرة الأولى منذ غزا الحب قلبيهما.

وعرف الشاعر العظيم دانتي الليجري بمأساة العاشقين الحقيقية في شبابه وتأثر بها، واعتزم أن يكتب عنها في أشعاره ذات يوم. ثم كتب ملحمته الشعرية «الكوميديا الإلهية» التي يتصور فيها أنه قد صعد إلى السماء وزار بإرشاد أستاذه الشاعر العظيم فرجيل الجحيم ثم المطهر ثم الفردوس، وكتب يصف «ما

شهده» شعرا، فقال: انه رأى في المنزلة الثانية من منازل الجحيم فرانتشيسكا وحبيبها باولو بين الآثمين بدافع الحب وليس عن استسلام للشهوات واللذات، وهؤلاء عذابهم أخف من عذاب الممعنين في الفسوق واللذات بإرادتهم. ومع أنه أخف فإنه أقسى على من له قلب وعاطفة من عذاب الجسد، فلقد صورهم دانتي ورياح الجحيم تتلاعب بهم بصفة دائمة وتضربهم ببعضهم بعضا بلا توقف وتزأر الرياح حولهم للأبد فلا يسمعون بعضهم بعضاً.. ولا يستريحون. وهكذا من يفقد سيطرته على عواطفه فتتلاعب به في الدنيا.. وتتلاعب به رياح الجحيم في الآخرة كما يقول لنا دانتي.

أما فرانتشيسكا الجميلة وحبيبها فلقد اختار لها دانتي عقابا مختلفا رآه أخف من عذاب الآخرين.. ورأيته أنا أقسى وأشد! فالرياح تحملها معاً دائماً ويحلقان أو يتخبطان متجاورين وعواصف الجحيم تسكن قليلاً من حين لآخر لكي تتيح لها أن يتبادلا عبارات الحب التي حرما منها في الدنيا لأن خطيئتهما في رأي دانتي تستحق العطف لا القسوة، وقد نالا عقابهما في الدنيا بالقتل.. وسكنا المنزلة الثانية من الجحيم في الآخرة.. فلا بأس بأن يسمح لها ببعض العزاء العاطفي فتترفق بهما رياح الجحيم وتحملهما معا من مكان إلى آخر ويتبادلان الأحاديث.. ثم تقربهما الرياح حتى يوشك ثغراهما أن يتلاقيا فإذا ما هما بتبادل القبلات باعدت بينها من جديد واستمر هذا العذاب بلا نهاية.. ولا أمل

وحين سألها دانتي عن خطيئتها أجابته باكية بأنها الحب الذي لا يعفي محبوبا من أن يبادل من يحبه.. الحب!

وقالت له: إن الحب قد قادهما إلى ميتة واحدة وحكمت الأقدار عليهما بأن يتلازما في الحياة والموت واللذة والعذاب!

وسمع باولو كلام حبيبته فبكى صامتاً.. واشتد تأثر دانتي بعذابهما فأغمي عليه!

وانعكس تعاطف الشاعر العظيم مع فرانتشيسكا الجميلة فصورها رقيقة نبيلة صادقة لا تحقد على أحد حتى على من قتلها ولا تسخط على عذابها الذي تتقبله برضا وتتحمله في صبر ولا تتهرب من خطيئتها أو تلتمس لنفسها الاعذار فيها، وإنها تفسرها بالحب وتقول: إن حرارة القلوب تذيب الذنوب أو تذيب الإحساس بها على الأصح فيكون هذا المصير!

وحرام والله ما فعله الشاعر العظيم بفرانتشيسكا الجميلة وحبيبها باولو رغم عطفه عليها وإيانه بأنها قد أحبته بلا خطيئة حتى كانت لحظة الضعف والقبلة المحرمة التي لم تتكرر!

فقد أراد لها عذاباً «مخففاً» فحكم عليها بأن تقاسي أشد أنواع العذاب.. ولو اختار لها أقصى درجات الجحيم التي يرشح لها في أنشودته الرابعة والثلاثين من يغدرون بمن أحسن إليهم، لكان ذلك أرفق بهما وأكثر رحمة من قسوة العذاب البدني.

فعذاب الأمل في المستحيل والاقتراب منه حتى يبدو للإنسان أنه سوف يناله مع الحرمان الأبدي منه رغم ذلك أشد وأقسى!

أقسى صور العذاب التي تخيلها عقل الإنسان، ما جاء في إحدى الأساطير الإغريقية القديمة عن الرجل الذي غضبت عليه الآلهة فحكمت عليه بأن يقف ليل نهار وسط بركة من المياه العذبة وهو في أشد حالات العطش فإذا انحنى على الماء ليروي عطشه جف وابتلعته الأرض ولم يذق منه رشفة وإذا انتصب جسمه يائساً من الشرب، تفجر الماء فغمر البركة من جديد وهكذا إلى الأبد.. بلا ري للعطش.. ولا يأس من الماء!

ومن أعجب صورها أيضا ما صوره أحد الأدباء عن السياسي الذي ظل يتطلع لرئاسة الوزارة ويبذل في سبيل الوصول إليها كل غال ورخيص حتى وافته المنية قبل أن يحقق حلمه فيها، وكان قد أوشك فعلا على التحقيق، واجتمع حوله أبناؤه وأهله وهو في النزع الأخير يبكون ويرددون له الدعوات ويسألونه أن ينطق بالشهادتين قبل أن يحم القضاء فيفتح شفتيه بصعوبة ويهم بالكلام، فإذا به يتخيل أنه يلقى بيان وزارته الجديدة أمام البرلمان ويقول: وستعمل حكومتي على تنفيذ كذا وكذا من برامج الإصلاح! وتصعد روحه إلى السماء وهو معذب حتى اللحظة الأخيرة بالأمل الذي لم يبلغه.. والرغبة التي لم تمكنه الحياة من تحقيقها.. والقصة حقيقية وليست من صنع خيال الأديب.

وهذا هو عذاب الإنسان في كل زمان ومكان في كثير من الأحيان عذابه بالتطلع الأبدي إلى السعادة التي تلوح له قريبة في الأفق فإذا ما أنهكه الجري إليها ابتعدت وأوغلت في البعد.

وعذابه بالتطلع إلى الثراء.. والصحة.. والمكانة الاجتماعية والرضا بحياته الذي لا يجيء ولا يمل الإنسان رغبته فيه، فحتى في أشد حالات المرض، ورغم كل ما تؤكده التقارير الطبية الجامدة قد يظل الإنسان حتى اللحظة الأخيرة يراوده أمل عجيب في أن يبرأ من مرضه بطريقة سحرية ويستعيد صحته وشبابه وسنوات عمره الضائعة في المعاناة ويحلم بيوم أو بأيام يحقق لنفسه فيها كل ما أراده لها من سعادة وهناء!

كيف وقد فات الأوان.. والحواجز والسدود تزداد ارتفاعاً؟ لا يعرف ومتى.. وأنغام الوداع الحزينة تتردد في الأجواء؟ لا يدري وبأى وسيلة والعين بصيرة.. واليد قصيرة والأحلام تبدو بعيدة غاية الابتعاد؟

لا يعلم!

لكن الحلم الغامض مازال يراوده.. وهو يتعذب به في معظم الأحيان ويتعزى عنه في أقل الأحيان.. والرياح لا تهدأ.. ولا تكف عن عبثها بالأماني ولا عن تقريبنا منها ثم إبعادنا عنها وزئير العواصف يصك الأسماع.. فلا يصل صوتنا لمن نريد أن يصل إليه ولا يصل صوته إلينا.. ولا نبلغ الأمل.. ولا نيأس فيارب رحمتك بالإنسان.. وشكراً،،

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

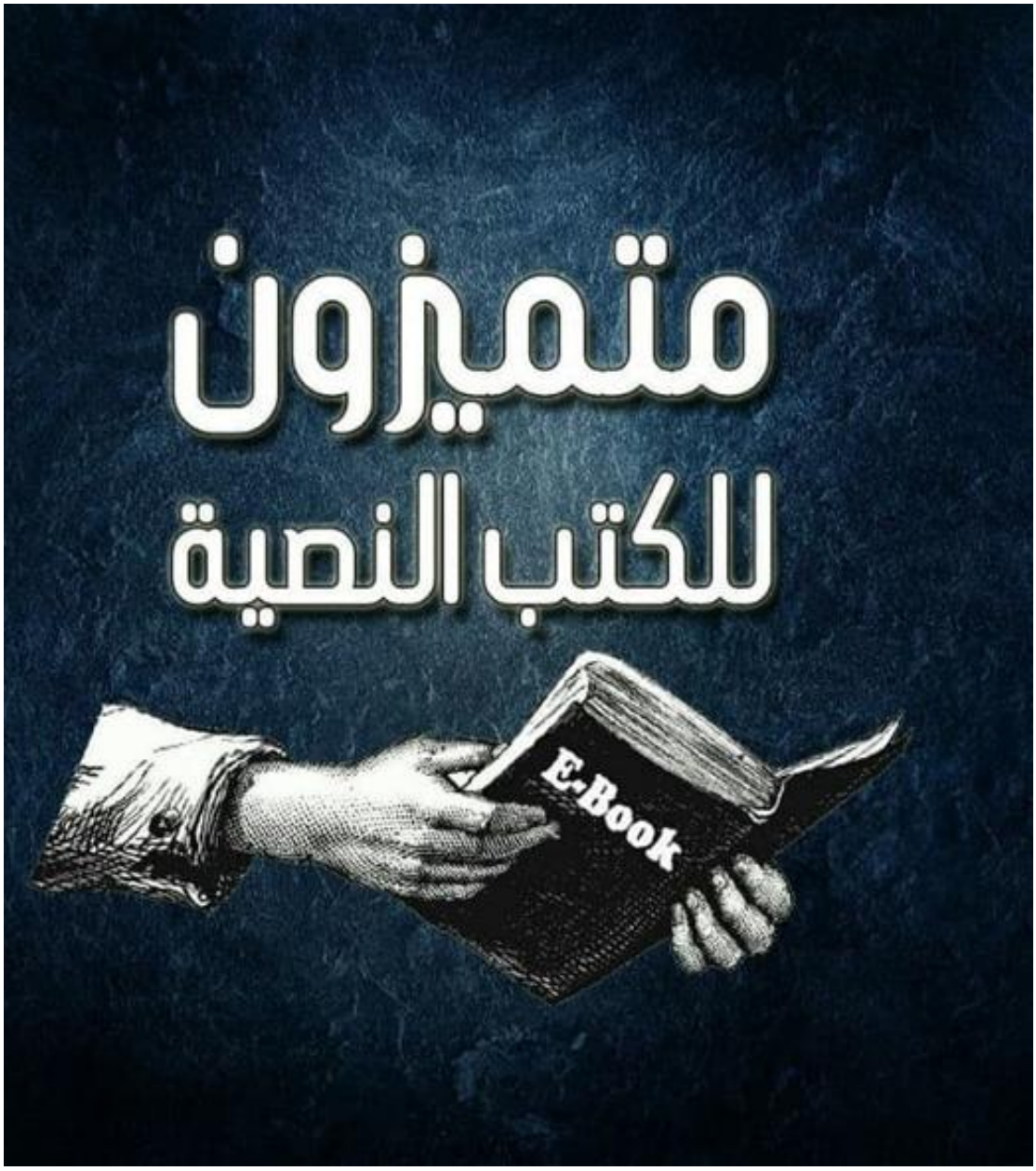
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

مقدمة..

خُبز الغرباء!

وحدي.. مع الآخرين

الوجه الباسم!

رجل المستحيل

صباح الفل

منطق الربح.. والخسارة!

السحر الأسود

رسالة من امرأة «مهجورة»

لحظات انكسار!

مجمع الأحزان!

نطح الصخور

السهم الأخير!

أقسى من الألم!

دموع الأرملة!

لكنها أبدا.. لم تحبه!

أفراح.. محزنة!

وضع التفاهم المريح!

أكرهه.. أحبه!

علاقة شائكة

شريط من ورق!

أنت الجميلة.. فأين الوحش؟

ولكننا لا نتعلم أبدا!

حاول أن تفهم

حبوها.. ولعنوها!

عذاب كل إنسان!

الفهرس: